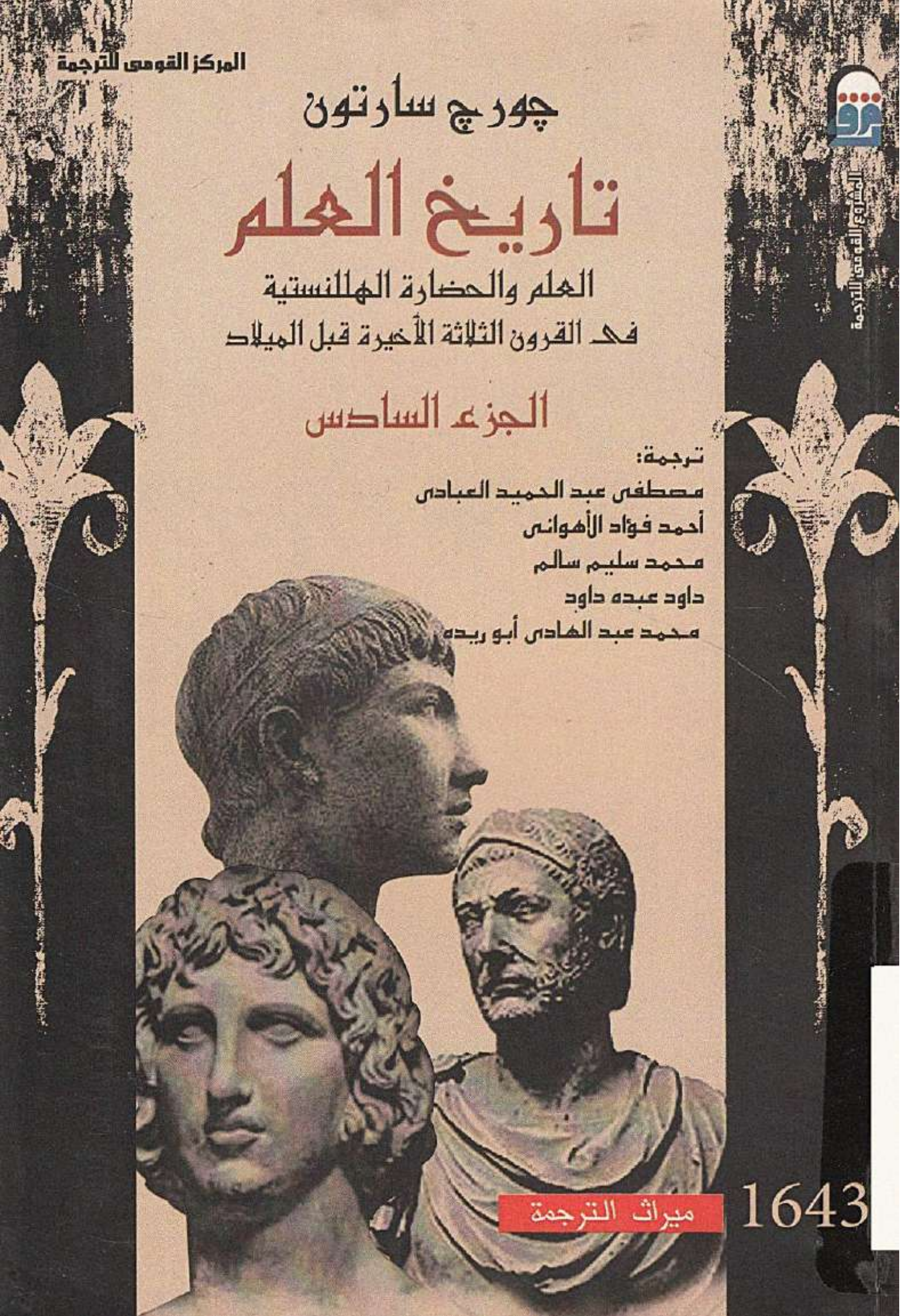


المركز القومى للترجمة
جورج سارتون
تاريخ العلم
العلم والحضارة الهللنستية
فى القرون الثلاثة الأخيرة قبل الميلاد
الجزء السادس
ترجمة:
مصطفى عبد الحميد العبادى
أحمد فؤاد الأهوانى
محمد سليم سالم
داود عبده داود
محمد عبد الهادى أبو ريده
المشروع القومى للترجمة
ميراث الترجمة
1643

المركز القومى للترجمة

إشراف: جابر عصفور

سلسلة ميراث الترجمة

المشرف على السلسلة: مصطفى لبيب

- العدد: 1643
- تاريخ العلم: العلم والحضارة الهللنستية فى القرون الثلاثة الأخيرة قبل الميلاد (الجزء السادس)
- چورج سارتون
- نخبة
- إبراهيم بيومى مدكور ومحمد مصطفى زيادة وقسطنطين زريق ومحمد مرسى أحمد
- 2010

هذه ترجمة كتاب:

A History of Science,

(Vol. II, Part III)

Hellenistic Science and Culture in the Last Three Centuries B.C.

by: George Sarton

" صدر هذا الكتاب بالتعاون مع الجمعية المصرية لنشر المعرفة والثقافة العالمية"

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ - ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El Gabalaya st. Opera House, El Gezira, Cairo.

E-mail: egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524- 27354526 Fax: 27354554

تاريخ العلم

العلم والحضارة الهللنستية
فى القرون الثلاثة الأخيرة قبل الميلاد

الجزء السادس

تأليف: چورچ سارتون

ترجمة لفيف من العلماء

إشراف

إبراهيم بيومى مدكور   محمد مصطفى زيادة
قسطنطين زريق   محمد مرسى أحمد



2010

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

سارتون، چورچ.

تاريخ العلـم (الجزء السادس): العلم والحضارة الهللنستية فى القرون الثلاثة الأخيرة قبل الميلاد/ تـأليف: چورچ سـارتون، ترجمة: نخبة، إشراف: إبراهيم بيومى مدكور (وآخرون)
القاهرة : المركز القومى للترجمة ، ٢٠١٠
٢٢٨ ص ، ٢٤ سم
١ – العلوم عند اليونان
(أ) مدكور، إبراهيم بيومى (مشرف مشارك)
(ب) العنوان ٥٠٩

رقم الإيداع ١٧٠٢١ / ٢٠١٠

الترقيم الدولى: I.S.B.N 978 – 977 - 704 - 276- 5

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

محتويات الكتاب

صفحة

صفحة

الفصل الثالث والعشرون

علم الجغرافيا فى القرنين الأخيرين[1]

كراتيس وسترابون

بينما كانت المؤلفات الرئيسية ، فى العمارة والزراعة مكتوبة باللغة اللاتينية ، وهى تكاد تكون الوحيدة من نوعها ، كان معظم المؤلفات الجغرافية مكتوباً باللغة اليونانية، باستثناء ما ظهر منها فى نهاية القرون الثلاثة التى نحن بصددها ، أى زمن قيصر وأغسطس، حين ظهرت مؤلفات جغرافية باللغة اللاتينية وكانت تلك المؤلفات رومانية خالصة، أى مؤلفات رومانية خالية من أية صيغة هلنستية . وكان الرائدان الرئيسيان فى هذا المجال كراتيس المالوسى (القرن الثانى ق.م.) وسترابون الأماسى (القرن الأول ق.م) .

الجغرافيا عند اليونان

كراتيس المالوسى :

كانت مدينة مالوس ، موطن كراتيس ، مقر جالية يونانية قديمة بإقليم قيليقية الحالية ، ويقال إن هذه الجالية تأسست زمن حرب طروادة[2] . وعاش كراتيس بمدينة برجامة حيث كان رئيساً لمدرسة فقه اللغة ومديراً للمكتبة . وكان معنى ذلك أنه دخل كثيراً فى مناقشات مع معاصريه من علماء مدرسة الإسكندرية ، وسوف نتحدث عن ذلك فى الفصل السادس والعشرين . وكانت السنة الوحيدة المعروفة من حياته هى سنة ١٦٨ ، حين أرسله الملك يومينيس الثانى مندوباً إلى روما ليقدم تهنئات هذا الملك إلى رؤساء الدولة الرومانية

بمناسبة انتصار بيدنا . ويقال إن زيارته أثرت فى نمو المكتبات العامة فى روما . غير أن هذا القول يكون سابقاً لأوانه فيما يخص نمو المكتبات فى روما .

ويذكر سترابون (الكتاب الثانى ، فصل ٥ ، فقرة ١٠) أن كراتيس صنع كرة أرضية ، وهى أول محاولة تعرفها ، مع العلم بأن تصميمات كروية للأجرام السماوية استخدمت من قبل . ولما كان المعمور من العالم جزءاً صغيراً من سطح الأرض، لاحظ سترابون أنه ينبغى استخدام كرة كبيرة لا يقل قطراها عن عشر أقدام لأغراض الدراسة العملية ، ولكنه لم يذكر أن كرة كراتيس كانت كبيرة بهذا الحجم. ويبدو أن كراتيس لم يحفل بالتفاصيل الجغرافية ، وأنه كان أكثر اهتماماً بالظواهر العامة فى الكرة الأرضية . إذ أحيا نظرية الفيثاغوريين وأضاف إليها ، وهى النظرية القائلة بوجود أربع كتل أرضية ، بمعنى أنه ليست هناك معمورة واحدة ، بل توجد منها أربع واقعة على أربع كتل من الأرض، يفصلها بعضها عن بعض محيطان ، وتواجه كل الاثنتين منها الاثنتين الأخريين (تستطيع أيها القارئ أن تتخيل تفاحة تأخذها أنت وتقسمها إلى أربعة أجزاء بواسطة مسطحين متعامدين). وكانت هذه النظرية الفيثاغورية من غير شك نظرية لا يقوم لها دليل ، ولكنها أرضت الخيال ، وألهمت الفكر الجغرافى أكثر من مرة[٣] .

وسوف نتحدث الآن بإيجاز أكثر ، عن ثلاثة من معاصرى كراتيس ، وهم: بوليمون الرحالة ، وأجاثرخيديس ، وبوليبيوس الرواقى .

بوليمون الرحالة :

أما بوليمون الرحالة (النصف الأول من القرن الثانى ق.م.) فنشأ فى مدينة طروادة ، وطوف فى جميع بلاد اليونان . ويشير لقبه ، أى الرحالة ، إلى مهنة تعتبر من مظاهر الحياة فى عصره ؛ إذ أولع اليونان دائماً بالترحال ، وكان هناك رحالة محترفون، وهم ممن جعلوا صناعتهم معرفة المدن اليونانية، ويقومون بإرشاد الآخرين ، مثل الزوار الرومان ، من مدينة إلى أخرى ، شارحين لهم

المبانى الهامة فيها . ولم يصلنا من أعمال بوليمون غير شذرات[٤] من مؤلفاته . ومن هذه المؤلفات كتب سياحية وتاريخية فى تأسيس كثير من المدن . كما قام ببحث بعض المسائل الأثرية ، ونشر نقوشاً كتابية خاصة بكثير من المدن القديمة . وكان معظم هذه النقوش التى قام بجمعها عبارات تهنئة مقدمة للآلهة بمعابد دلفى وإسبرطة وأثينا . وليس من الثابت أن كراتيس نفسه عمل مرشداً مترحلا بين البلاد ، ولكن أعماله جعلت مهنة الإرشاد السياحى عملا مستطاعاً ، أى إنه كان الأب للمرشد السياحى اليونانى .

أجاثرخيديس الكنيدى[٥] :

كان أجاثرخيديس من الفلاسفة المشائين فى النصف الأول من القرن الثانى ق . م ، وبلغ أوج مجده فى الإسكندرية فى الربع الثانى من القرن الثانى ، إذ كان مربياً أو معلماً لأحد الملوك البطالمة (بطلميوس الحادى عشر سوتير الثانى ؟) وله مؤلفات فى جغرافية آسيا وتاريخها فى عشرة كتب ، وفى جغرافية أوربا وتاريخها فى ٤٩ كتاباً ، ولكن أهم أعماله كتاب عن البحر الأحمر[٦] ؛ ويشتمل هذا الكتاب على معلومات جغرافية وبشرية عن إثيوبيا وبلاد العرب ؛ مثل أخبار مناجم الذهب فى إثيوبيا ، وآكلى السمك على الساحل العربى . ويرجع أجاثرخيديس سبب فيضان النيل فى الصيف إلى المياه التى تتجمع فى إثيوبيا فى فصل الشتاء .

بوليبيوس :

كان بوليبيوس الرواقى (النصف الأول من القرن الثانى) : أولا وقبل كل شىء مؤرخاً ، وهو أحد عظماء المؤرخين فى العصور القديمة ، وسوف نفصل القول فى دراسة أهمية أعماله بصورة أشمل فى الفصل التالى ، لكنه يستحق أن يستوقف اهتمامنا هنا ، إذ كانت الجغرافيا فى نظره إحدى المواد الثانوية المساعدة للتاريخ السياسى ، لكنه أدرك تمام الإدراك أن المعرفة الجغرافية الجيدة

كانت من اللوازم الأساسية لكل مؤرخ باحث . وكان بوليبيوس الرواقى يونانياً صميماً من إقليم أركاديا . طوف كثيراً فى أرجاء العالم اليونانى ، كما فعل غيره من اليونانيين . لكنه على خلاف أكثرهم ترحل كذلك فى البلاد الغربية ، أى إيطاليا وجاليا وإسبانيا . ولذا اكتسب بوليبيوس خبرة غير عادية بالبيئة الغربية ، التى قام بوصفها فى عرض متقن لأحداث الغرب . فبين مدى تقدم المعرفة الجغرافية التى أدت إليها الفتوح الرومانية، ونستطيع أن نقول إنه أول من وصف العالم الرومانى .

ومع أن بوليبيوس كان من أبناء الجيل الفكرى فى الجزء الأخير من القرن الثالث ، فإنه عمر طويلا حتى إنه وصف لنا أحداث النصف الثانى من القرن الثانى ، وتوفى فى الثانية والثمانين ، أى حوالى سنة ١٢٥ ق.م .

ويستحق ثلاثة رجال آخرين اهتمام مؤرخى الجغرافيا ، وهم : هيبارخوس ، وأرتيميدوروس ، ويودكسوس ، وهم ممن عاصروا بوليبيوس ، وكانوا أصغر منه سناً .

هيبارخوس النيقى : (النصف الثانى من القرن الثانى ق. م.) :

كان هيبارخوس فلكياً قبل أى شىء آخر ، وساعد بصفته هذه على إقامة الأساس الرياضى للمعرفة الجغرافية . ويستطيع الباحث أن يقول إن جدراة هيبارخوس كجغرافى هى إصراره على استخدام أساليب رياضية دقيقة فى تحديد الأماكن . ولكن كراهيته للفلكى إراتوسثنيس وارتيابه فى المعلومات الجديدة التى أمكن الحصول عليها منذ فتوح الإسكندر ، أفسدت منهجه هذا بعض الشىء . وكتب هيبارخوس كتاباً فى مهاجمة نظريات إراتوسثنيس ، لكنه ارتفع على حساب هذا الفلكى الكبير ، بدليل اقتناعه وموافقته التامة على جميع ما وصل إليه إراتوسثنيس من نتائج فيما يتعلق بحجم الأرض .

وحاول هيبارخوس أن يقيس خطوط العرض بتحديد النسبة بين أقصر أيام

السنة وأطولها ، بعكس طريقة البابليين التى تقيس الزيادة فى أطوال النهار كلما اتجه الإنسان جنوبا بطريقة المتواليات العددية . وكان هيبارخوس أول من قسم الجزء المعمور من العالم إلى مناطق حسب مواقعها من خطوط العرض أو حسب الأحوال الجوية ، وذلك بتقدير خطوط العرض والطول بالنسبة لخطوط دائرية كبيرة مقسمة إلى ٣٦٠ درجة ، واستخدام هذه النسب بنظام لتحديد موقع كل منطقة من هذه المناطق . واقترح هيبارخوس لتحديد خطوط الطول معاينة الكسوف من أماكن متفرقة ، على قاعدة أن اختلاف التوقيت المحلى يدلنا على اختلاف خطوط الطول. وكانت هذه الطريقة ممتازة ، غير أن تطبيقها المنتظم كان يتطلب قدراً من التنظيم السياسى العام ، وهو ما لم يكن موجوداً وقتذاك ، كما يتطلب قدراً من التنظيم العلمى الذى لم يكن فى الإمكان تصوره فى عصره .

ليس لدينا ما يثبت أن هيبارخوس ترحل كثيراً بين البلاد . ولذا نسأل : من أين ، وكيف إذن حصل على معلوماته ؟ نحن مدينون إلى سترابون بالقليل مما نعرفه عن جهود هيبارخوس الشخصية ، ومن المحتمل أن جغرافية بطلميوس التى جمعت بعد هيبارخوس بثلاثة قرون، اعتمدت على مادة جمعها سترابون.

أرتميدوروس الأفيسوسى[٧] : (النصف الثانى من القرن الثانى ق. م.) :

زادت المعلومات الجغرافية التى اهتدى إليها كل من أجاثرخيديس وهيبارخوس على يد أرتميدروس الأفيسوسى الذى بلغ أوجه فى نهاية القرن الثانى (حوالى ١٠٤ — ١٠٠ ق.م) . وسافر أرتميدوروس إلى بلاد نائية حتى بلغ إسبانيا (وجاليا) غرباً ، واستقر فى الإسكندرية حيث كتب أحد عشر مؤلفاً جغرافياً . وفى مجال الجغرافيا الشرقية اعتمد هذا الباحث على أجاثرخيدس ، وأضاف إليه معلومات عن البحر الأحمر وخليج عدن . واعتمد فيما يتعلق بالهند على مؤلفى العصر الإسكندرى ولا سيما ميجاسثنيس . وكان أرتميدوروس يطمع فى تأليف كتاب يشمل العالم المأهول بأسره ، إذ قام مرتين بحساب طوله وعرضه

بدون مقاييس فلكية . . ويبدو أنه رفض حرص كل من إراتوسثنيس وهيبارخوس على استخدام خطوط الطول والعرض، وأظهر اهتماماً أكبر بالمسافات الجغرافية. ومعنى ذلك أنه اعتمد فى عمل خرائطه على الرحلات والمقاييس الفلكية . ويجب عند الحكم على طريقته أن نذكر أن مقاييس خطوط العرض لم تكن دقيقة ، وأن مقاييس خطوط الطول كانت أكثر خطأ . ومع العلم بأن الخريطة التى تقوم على أساس الرحلات تكون من الناحية النظرية أقل دقة من خريطة تقوم على أساس النسب بين خطوط الطول والعرض ، فإنها فى مجال التطبيق العملى لا تكون أسوأ كثيراً . ومن ناحية أخرى قلّت قيمة الرحلات كثيراً نظراً لعدم وجود شىء من أدوات الإرشاد المغناطيسى(٨) .

يودكسوس الكيزيكى(٩) :

يعتور الشك قصة يودكسوس كما رواها سترابون بسبب غرابتها ، غير أنى شخصياً لا أظن أنها بعيدة الاحتمال : وخلاصتها أن هذا الرجل أرسلته مدينته كيزيكوس فى بعثة إلى الإسكندرية ، وقابل حين إقامته هناك بحاراً هندياً ، وكان هذا البحار هو الوحيد الذى نجا من سفينة تحطمت على ساحل البحر الأحمر، ولم تكن مثل هذه الحوادث نادرة، لأن الصخور المرجانية فى ذلك الساحل شديدة الخطورة . وحكى البحار الهندى مغامراته واقترح أن يتولى قيادة رحلة إلى الهند ، إذا جهز الملك سفينة لهذا الغرض ، وهو الملك بطلميوس يوئرجتيس الثانى ، أو فيسكون الذى امتد حكمه إلى سنة ١١٦ ق.م . وأمكن تحقيق ذلك الاقتراح والتحق يودكسوس بهذه السفينة ، التى أبحرت إلى الهند وعادت منها ، واستطاع الملك أن يستولى على حمولة السفينة الغالية ، لكن العائدين من البحارة أحضروا معهم شيئاً هاماً لم يستطع الملك أن يسلبه منهم، وهو المعرفة بالرياح الموسمية الجنوبية الغربية ، وهى الرياح التى تسهل الملاحة من باب المندب فى البحر الأحمر إلى خليج عدن وبحر العرب . وسوف نعود إلى هذه النقطة بعد قليل ، بعد الانتهاء من قصة يودكسوس .

ثم قام يودكسوس برحلة ثانية إلى الهند ، وفى هذه المرة أحضر معه حلية مأخوذة من مقدم سفينة ، واتضح أن السفينة جاءت أصلا من مدينة قادس فى إسبانيا . فاستنتج يودكسوس أن هذه السفينة لا بد أبحرت حول أفريقية ، فقرر أن يفعل هو ذلك . فأبحر إلى قادس ثم اتجه جنوباً على طول الساحل الغربى لأفريقية ، غير أنه فقد فى الطريق ، ولم يعرف أحد عنه شيئاً.

والواضح أن الجزء الأول من هذه القصة هو الجزء العظيم الأهمية ، وهو اكتشاف الرياح الموسمية(١٠) . إذ كان هذا الاكتشاف مما لا يمكن المبالغة فى أهميته العالمية ؛ لأن السفر من البحر الأحمر إلى ساحل ملبار بالهند ، والعودة ثانية من الهند إلى البحر الأحمر أصبح ممكناً على خير وجه ، وذلك بالسير فى اتجاه الرياح الموسمية ، مع العلم باستحالة السير فى عكس اتجاهها . فهل اكتشفها يودكسوس أو غيره من أهل الغرب؟ ذلك أن اكتشافها ينسب عادة إلى هيبالوس ، ولكن يختلف العلماء حول زمن هذا الاكتشاف ، فيقول بعضهم إن هيبالوس عاش بعد الإمبراطور أغسطس ، ويقول آخرون(١١) إنه ينتمى إلى العصر البطلمى المتأخر . وبصرف النظر عن هيبالوس ، يبدو من المحتمل أن سفن البطالمة المتأخرين أبحرت إلى الهند ، ولكن الرحلات الأولى المباشرة عبر المحيط الهندى إلى الهند الجنوبية لم تكن قبل سنى ٤٠ ــ ٥٠ بعد الميلاد(١٢) . وبسط البطالمة المتأخرون سلطانهم على مضيق باب المندب ، وفى عام ٧٨ ق.م . ــ إن لم يكن قبل ذلك ــ كان القائد العام لمصر العليا هو أيضاً قبطان البحر الأحمر والمحيط الهندى . وزاد عدد الهنود فى مصر أكثر من ذى قبل ، وأصبحت منتجات جنوب الهند أكثر وفرة فى أسواق مصر وأوربا مثل الفلفل . يضاف إلى ذلك أن اتجاه الملكة كليوباترا السابعة نحو التفكير فى أن تترك البحر المتوسط وأن تحكم فى المحيط الهندى دليل على أن التجارة مع الهند كانت نامية فى عصرها (توفيت سنة ٣٠ ق.م.) ، علماً بأن هذه التجارة لم تكن لتنمو نمواً ذا بال دون الاستفادة التامة من الرياح الموسمية .

لننتقل الآن إلى القرن الأول ق.م حين كان علماء الجغرافيا ثلاثة من كبار الشخصيات : بوسيدونيوس وسترابون وازيدوروس .

بوسيدونيوس الأفامى : (القرن الأول ق.م)[١٣] :

سبق لنا أن ذكرنا بوسيدونيوس مرات عديدة، وسوف يقابلنا اسمه مراراً فيما يلى ؛ إذ شملت ثقافته جميع ألوان المعرفة فى عصره . لكن من الخطأ أن نقارن بينه وبين أرسطو ، أو أن نطلق عليه اسم أرسطو العصر الهلنستى ؛ لأن عظمة أرسطو لا ترجع إلى سعة معرفته بقدر ما ترجع إلى رجحان آرائه وصوابها . ومن المعروف أن بوسيدونيوس كان آخر العلماء الذين اتخذوا من المعرفة كلها موضوعا للدراسة فى عصر ما قبل الميلاد . غير أنه لم يتصف بشىء من عبقرية أرسطو فى استنباط النظرية من الجزئيات . وبقدر ما نستطيع أن نحكم من الشذرات التى وصلت إلينا من مؤلفات بوسيدونيوس يبدو أن هذا الرجل كانت تغلب عليه نزعات من الخيال والتصوف ، ولعل من الأصوب أن نصفه بأنه كان أكثر الرحالة القدماء ذكاء[١٤] ، وكفاه ذلك فخراً ، وكم من فصل قيم عند سترابون مأخوذ عنه .

وكتب بوسيدونيوس كتاباً فى موضوع المحيط حيث أعاد فكرة إراتوستنيس من أنه ليس هناك سوى محيط واحد[١٥] . وسافر بوسيدونيوس كثيراً ، لا على امتداد سواحل البحر المتوسط فحسب ، بل أوغل فى داخل البلاد مثل إسبانيا وجاليا وإنجلترا . وكانت له ملاحظات كثيرة تتعلق بالجغرافية البشرية والطبيعية ، وأقام بوسيدونيوس شهراً كاملا فى قادس، حيث درس ظاهرة المد والجزر ، وكان من أوائل من أرجع هذه الظاهرة إلى تأثير الشمس والقمر ، كما لفت النظر إلى اختلاف ارتفاع المد فى حالة اكتمال القمر وفى حالة التربيعين. ودرس بوسيدونيوس ظاهرة الزلازل والبراكين وظهور جزيرة بركانية جديدة فى مجموعة جزر الليبارى أو الجزر الأيولية (شمالى صقلية) . كما زار مناجم جنوب

إسبانيا وجاليا ، ووصف ممراتها ومصارف مياهها . وشهد بوسيدنيوس ظاهرة صخور الملح ، ووصف سهل كراو بالقرب من مصب الرون ، كما لاحظ وفرة الحصى المستدير المنتشر هنالك ، ويمكن جمع هذه التفصيلات وأشباهها من جغرافية سترابون ، الذى اقتبس منه كثيراً .

وحاول بوسيدونيوس أن يدخل تحسينا على تقدير إراتوستثنيس لحجم الأرض ، بأن أنقص خطأ طول محيطها من ٢٥٠،٠٠٠ إلى ١٨٠،٠٠٠ فرسخ ، ومن ناحية أخرى بالغ بوسيدونيوس فى تقدير طول قارة أوراسيا ، وذكر أنه إذا أبحر رجل من ساحل الأطلنطى غرباً إلى مسافة ٧٠،٠٠٠ فرسخ فإنه يستطيع بذلك أن يصل إلى الهند . وكان لهذا الخطأ نتائج بعيدة المدى ، إذ ظهر هذا الخطأ فى صورة أو أخرى فى مؤلفات سترابون وبطلميوس وروجر بيكون وبييرد إلى (عام ١٤١٠ م.) ، كما زاد من تفاؤل كولومبوس ، وكان السبب فى اكتشافه للعالم الجديد ، لا الأطراف الشرقية من قارة أوراسيا .

سترابون الأماسى (القرن الأول ق. م .) :

التعريف الصحيح بالجغرافى سترابون هو أنه مؤلف كتاب « الجغرافيا » ، وكل ما نعرفه عنه مستمد من هذا الكتاب الذى يعد أهم مؤلفاته ، وهو الكتاب الوحيد الذى بقى لنا من هذه المؤلفات ، ونستنتج منه أن سترابون ولد حوالى عام ٦٤ ق.م فى مدينة أماسيا[١٦] ، التى يفرد لها وصفا يدل على محبته لهذه المدينة . وينتمى سترابون إلى أسرة ذات شأن ، عمل بعض أفرادها فى خدمة ملوك بنطس وهم : مثراداتيس الخامس يوئرجيتيس ومثراداتيس السادس يوباتور ، حيث كانوا قادة عسكريين وحكاماً وكهنة للالهة ما (بيلونا) . وتنحدر أسرة سترابون من فرعين مختلفين ، يونانى وأسيوى ، ولكن كان سترابون يونانياً محضاً فى لغته وعاداته . ولا بد أن أسرته عاشت فى رغد من العيش مما مكنه من أن ينال قسطاً وافراً من التعليم . وبعد أن أتم سترابون مراحل التعليم الأول فى البيت أرسل إلى نيسا (بالقرب من مدينة تراليس فى إقليم كاريا) ،

حيث درس النحو والأدب على يد أريستوديموس . وفى سنة ٤٤ ق.م (وهو فى العشرين من عمره) ذهب سترابون إلى روما لمتابعة دراسته العليا . وتتلمذ على أيدى تيرانيون الأميسوسى[١٧] ، وهو العالم النحوى والجغرافى (ولعل هذا العالم هو الذى أجاز لاسترابون الاشتغال بالجغرافيا) . وكان من أساتذة سترابون كذلك كسينارخوس السليوكى فى إقليم قيليقية ، وهو أحد الفلاسفة المشائين . وعرف سترابون عدداً من الرواقيين أمثال بوسيدنيوس و بؤيتوس[١٨] الصيداوى وأثينودوروس الطرسوسى فى قيليقية . ولذا صار سترابون رواقيا متحمساً للرواقية ، وأدرك ضرورة الأساطير والطقوس والأسرار الدينية لعامة الناس ، ولكن ديانته هو كانت « الرواقية » .

كان سترابون رحالة عظيماً ، ولكن ليس بالقدر الذى يوحى به كتابه « الجغرافيا » أو ما يذكره هو عن نفسه (انظر سترابون ــ ج٢ ، ف ٥ ، ١١)[١٩] وسافر سترابون من أرمينيا شرقا إلى إيطاليا غرباً ، وزار بلاد اليونان (على الأقل كورنثه) ومصر ــ حيث صعد فى النيل حتى أطراف إثيوبيا ، وكان سترابون على معرفة واسعة بكثير من بقاع آسيا الصغرى ، واستمد الكثير من معلوماته من الكتب ، أى الكتب اليونانية ، إذ أن ما كان من الكتب الجغرافية بلغات أخرى قليل فى هذا المجال .

ويشير سترابون فى كتاب الجغرافيا إلى بعض مراحل حياته : فكان فى روما فى سنة ٤٤ كما كان بها فى سنوات تالية ، ٣٥ ، ٣١ ، ٢٩ ، ٧ ق.م وأقام سترابون فى مصر من سنة ٢٥[٢٠] إلى سنة ٢٠ أو بعد ذلك . وحصل سترابون على الكثير من معلوماته فى مكتبة الإسكندرية (إذ لا يمكنه فى غيرها أن يحصل على جميع ما احتاج إليه من مؤلفات) . وعاش سترابون متمتعاً بمجده فى عصر الإمبراطور أغسطس كله وبداية حكم تيبريوس (١٤ ــ ٣٧ م.) ومن المحتمل أنه أمضى أعوامه الأخيرة فى بلدته أماسيا ، ومات فى سنة ٢١ م . أو بعد ذلك .

وألف سترابون كتابين عظيمين : أحدهما فى التاريخ ، وهو مفقود ،

وثانيهما فى « الجغرافيا » ، وهو الذى وصلنا كاملاتقريباً ، ويعد هذا الكتاب أحد أعلام التراث القديم . وهو مقسم إلى سبعة عشر جزءاً ، مشتملة على وجه التقريب على ما يأتى :

١ — ٢ مقدمة. وهى تاريخية إلى حدما ، حيث ينتقد هوميروس و إراتوسثنيس، ويناقش بوليبيس وبوسيدونيوس ويودكسوس الكيزيكى ، كما يتحدث عن الجرافيا الرياضية وشكل الأرض ورسم الخرائط على سطح كروى وسطح مستو. ويصر على القول بوجود محيط واحد فقط ، بدليل حدوث المد والجزر فى كل مكان ، وعلى هذا يستطيع الإنسان أن يبحر من إسبانيا إلى جزر الهند الشرقية (ك ١ ، ب ١ ، ف ٨) .

٣ — إسبانيا وجزر كاستيريدس .

٤ — جاليا و بريطانيا وغيرهما .

٥ — إيطاليا الشمالية والوسطى .

٦ — جنوب إيطاليا وصقلية . الإمبراطورية الرومانية .

٧ — أوربا الوسطى والشرقية (الجزء الأخير من هذا الجزء مفقود) .[٢١]

٨ — جزائر البلوبونيز .

٩ — اليونان الشمالية .

١٠ — الجزر اليونانية .

١١ — منطقة البحر الأسود ، وبحر الخزر وجبال طورسوس وأرمينيا .

١٢ — ١٤ آسيا الصغرى .

١٥ — الهند وفارس .

١٦ — بلاد ما بين النهرين وسوريا وبلاد العرب وساحل إثيوبيا .

١٧ — مصر .

وهذا الكتاب دائرة معارف جغرافية ، وتختلف أجزاؤه بالضرورة من حيث القيمة العلمية . وتوجد حول جغرافية سترابون مؤلفات حديثة كثيرة ، وأكثرها أهمية بحوث قام بها علماء تخصصوا فى دراسة مختلف الأقاليم . وليس هنا مجال إعادة الحديث من هذه الدراسات ، فهى كثيرة جداً .

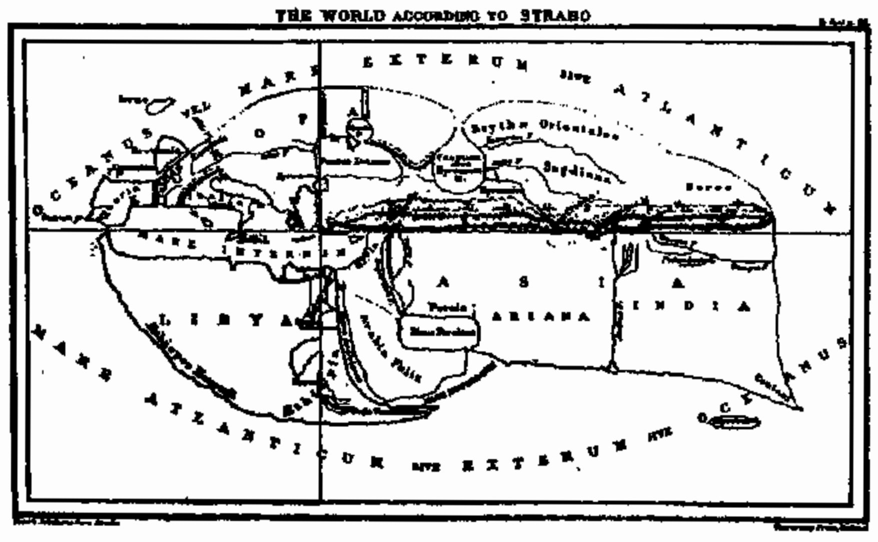
ولنقتصر على بحث بعض الأسئلة العامة ، أولا ، ما هو هدف سترابون؟ المعروف أنه أراد أن يكتب وصفاً جغرافيا للعالم ، ولكن نظراً لأن تعليمه الأصلى كان أدبيًّا بحتاً ، فإنه لم يحفل بالجغرافيا الرياضية ، التى ازدراها دون معرفة كافية بها، ودون فهم حقيقى لمشكلاتها . ومن ناحية أخرى كان سترابون شديد الاهتمام بالناس ، وغلب عليه التفكير الفلسفى ، فالجغرافيا عنده طبيعية ، ومع ذلك كان الطابع البشري والتاريخى والأثرى أكثر ظهوراً ، إذ أراد أن يقدم لقرائه فكرة عامة عن مسطح الأرض، أى طبيعتها (من حيث الأنهار والجبال وما إلى ذلك) ؛ ثم اختلافات أقاليمها ، وبعد ذلك يشرح كيف عاش الناس فى كل إقليم ، وأى نوع من الناس هم . وتضمن ذلك عرضا للتقلبات والتغيرات التى طرأت عليهم وأعمالهم ، وذكراً لمدنهم (ومتى أسست ؟) فضلا عن الطرق ، والمسالك والمعالم العامة ، وعظماء الرجال .

ونظراً لكونه رواقيًّا، تقبل سترابون المبادئ العامة فيما يختص بعبادة النجوم، ولكنه لم يتطرف فى اعتناق مذهب التنجيم ، وليس هناك ما يثبت أنه اعتقد فى الجينيثليا لوجيا ، أى قراءة الطالع تبعاً للأفلاك السماوية . بل كان ملمًّا بما قام به المصريون وكهنة الكلدان من دراسات فلكية[٢٢] .

وذكر أن الفينيقيين أهل مدينة صيدا هم الذين نقلوا مبادئ علم الفلك والحساب إلى اليونان[٢٣] .

وفى مجال السياسة كان سترابون متحيزاً قطعاً لجانب روما ، إذ أدرك أن عصر الإمبراطور أغسطس جلب للعالم عناصر السلام والوحدة (انظر ج ٦ ، فصل ٤ ، فقرة ٢) ، بدليل أن ذلك العصر قضى على القرصنة التى كانت متفشية فى شرق البحر المتوسط ، واستتب الأمن للسفر والتجارة فضلا عن

الرخاء . وكان سترابون فخوراً بشرقيته ، ولم يترك مناسبة دون أن يذكر العلماء الذين ولدوا فى الشرق، وبرغم إعجابه الشديد بالحكومة الرومانية ، فإنه لم يحفظ أى احترام للعلماء الرومان (وله العذر فى ذلك) .



شكل ٨٠ — خريطة العالم كما تصورها سترابون (فى القرن الأول ق . م .)

وتوجد مناقشات كثيرة حول تاريخ كتاب الجغرافيا . ولعل الجزء الأكبر من المعلومات الواردة بهذا الكتاب كانت من جمع سترابون قبل أن يغادر الإسكندرية (حول عام ٢٠ ق.م.) ، ثم انتهى سترابون فى سنة ٧ ق.م. من النسخة الأولى من هذا الكتاب. ولم يستخدم خريطة الجغرافى أجريبا ، التى لم تكن نشرت بعد فى ذلك العام . أما قائمة الولايات الرومانية الواردة فى آخر صفحة من هذا الكتاب ، فقد قام سترابون بكتابتها فى تاريخ لا يتجاوز سنة ١١ق.م . ، ثم راجعها بنفسه سنة ٧ق.م . وهو بعيد عن روما . ثم راجع سترابون الكتاب كله فى مدينة أماسيا حوالى عام ١٨ م ، كما هو واضح من ذكره للإمبراطور تيبريوس (الذى ابتدأ حكمه سنة ١٤ م.) فى حوالى عشرين موضعاً من هذا الكتاب .

وكان سترابون مدركاً لضخامة كتابه ولأهميته ، حتى أطلق عليه وصف

التأليف الضخم ، وكان كذلك ، حتى إن الباحث لا يستطيع إلا أن يسأل كيف أمكن لرجل واحد أن ينجز مثل هذا العمل الكبير . الواقع أن عملا فى مثل حجم هذا الكتاب فى زماننا نحن لا يمكن إلا أن تقوم به أكاديميات أو جامعات ويشرف على تنفيذه مديرون ، يشرفون على عدد من العلماء والمساعدين ، ويستخدمون أنواعاً شتى من الأدوات الحديثة . ومن حسن حظنا أن لدينا بفضل سترابون هذا الوصف الجغرافى المستفيض للعالم الغربى زمن الإمبراطور أغسطس ، مضافاً إليه كمية كبيرة من المعلومات التاريخية والأثرية والبشرية ، وكذلك أخبار التجارة والصناعة ، وجوانب أخرى .

ولم يتخيل سترابون أفراد قرائه على أنهم جماعة من علماء الجغرافيا ؛ لأن أمثال أولئك لم يكونوا وجدوا بعد ، ولكنه تخيلهم من الساسة ورجال الأعمال ، وغيرهم من المتعلمين فى عصره (انظر ج١ ، فصل ١ ، فقرة ٢٢ — ٢٣) ، ولذا كان هؤلاء القراء قليلين ، ولكنهم كانوا رجالا على جانب كبير من الذكاء بحيث لا يقلون عن خير رجال عصرنا .

وبرغم أن سترابون لم يكن عالما طبيعياً ، فإن جغرافيته تصف كثيراً من الحقائق الطبيعية الهامة التى يتناولها هو بروح ناقدة . ومثال ذلك أن سترابون فسر تكوين الجبال بفعل حركات الضغط الداخلية ،وأن وادى تمبى فى إقليم تساليا ببلاد اليونان نتج عن زلزال . وكان سترابون يعتقد أن السبب فى الظواهر البركانية هو القوة المتفجرة فى الرياح الحبيسة داخل الأرض ، واعتبر البراكين نوعاً من صمامات الأمن[٢٤] . وأرجع سترابون ظهور جزر البحر المتوسط إلى انفصال عن جسم الأرض بواسطة الزلازل أو بفعل البراكين ، وقصد بذلك جزر الليبارى ، شمال شرق صقلية . وكرر سترابون من جديد وبوضوح تام النظرية القديمة القائلة بأن الأرض والبحر كثيراً ما تبادلا موقعيهما ، ودلل على ذلك بعدد من الأمثلة التى زالت فيها مساحة من الأرض ، والتى ارتفعت فيها مساحات أخرى . وبعض هذه الأمثلة محدود بمكان معين ، وبعضها الآخر واسع الانتشار . فمثلا عند الحديث عن واحة آمون يقول : « كان معبد آمون

من قبل عند ساحل البحر ، ولكنه الآن فى الداخل ، بعد أن انحسر عنه الماء »[٢٥].
ويذكر سترابون أن وجود بقايا أصداف متحجرة فى أماكن مختلفة يثبت أن الأراضى فى مصر السفلى حيث توجد هذه البقايا كانت فى الماضى مغمورة بالماء . ويرجع سترابون السبب فى زوال بعض المساحات الأرضية إلى الزلازل ، وأن ظاهرة أخرى مثل هذه تستطيع أن تقضى على برزخ السويس وتفتح الطريق بين البحر المتوسط والبحر الأحمر[٢٦] . ويسجل سترابون ملاحظات عديدة عن القوة التحاتية للماء ، وعن التراكمات الطميية عند مصبات الأنهار أو على امتداد مجراها . ويحدثنا سترابون كذلك عن صناعة الملح واستخراجه من عيون المياه المعدنية ، وعن مناجم الفضة فى إقليم لوريون ، وصناعة الزجاج فى الإسكندرية ، وصناعة السواقى ، وبناء المزلق الذى تتحرك فوقه السفن فى برزخ كورنثه ، كما يحدثنا عن القناة القديمة التى تصل النيل بالبحر الأحمر ، وهى القناة التى كانت تنتهى عند ميناء أرسينوى ، وكانت تغلق بواسطة بوابة مزدوجة للوقاية على سبيل الاحتياط من تغير التيار والسماح بمرور السفن فى الاتجاهين .

لم يكن سترابون أديباً فناناً ، ولكنه أتقن فن الكتابة كما يمكن أن يتقنه عالم؛ وكان واسع الثقافة ، صحيح اللغة ، واضحاً دون أن يسعى إلى المحسنات اللفظية . وقد يجده أصحاب الذوق الأدبى مملا يسير على وتيرة واحدة ، ولكن مما لا شك فيه أنه اجتهد فى تأليفه أصدق الاجتهاد ، وبذل أقصى ما يستطيع ليدخل عليه التنوع ، وليعطى قارئه الكثير من القصص مما يتفق والغاية الصارمة التى ارتسمها لنفسه . ويتفوق كتاب سترابون كثيراً من ناحيتى الأسلوب والمضمون عن الجزء الجغرافى من كتاب بلينى عن التاريخ الطبيعى .

وذكر سترابون أن أرسطو كان أول من اقتنى الكتب ، وأن ملوك مصر احتذوا حذوه بعد ذلك[٢٧] . وهذه العبارة صحيحة فى جملتها ، لأنه ربما لا يكون أرسطو أول من اقتنى كتباً (وما معنى ذلك ؟ وكم كتاباً يجب أن يمتلك الفرد ليصبح صاحب مكتبة ؟) ، ولكن مما لا شك فيه أنه بفضل تأثيره — وهو

التأثير الذى انتقل إلى مصر بواسطة ديمتريوس الفاليرى وستراتون — قرر البطالمة الأولون تأسيس مكتبة الإسكندرية .

وتفوقت دراسات سترابون تفوقاً كثيراً على أسفاره ، إذ قرأ جميع الأدب اليونانى الذى وصل إلى يده ، مبتدئاً بقصائد هوميروس . وكان شديد الإعجاب به ، شأنه فى ذلك شأن جميع اليونان . وبالغ سترابون فى تقدير القيمة الجغرافية لعقيدة الأوديسة ، مع العلم بأن إراتوستنيس كان يميل إلى التقليل من هذه القيمة . على أن أغنى مصادر سترابون هو معاصره الذى يكبره ، واسمه بوسيدونيوس . وسترابون هو الذى حفظ للأجيال التالية تقدير بوسيدونيوس الخاطئ عن حجم الأرض .

ونظراً لما لكتاب « الجغرافيا » — وهو كتاب فريد فى نوعه — من قيمة عملية هائلة للساسة ورجال الإدارة فى الإمبراطورية الرومانية ، فإننا نعجب لقلة ما لقى سترابون من اهتمام القدماء به . هل كان ذلك لإخفاء النسخ الأولى من هذا الكتاب بواسطة أصحابها لا ستخدامها فى الأغراض العملية ، وليس للأغراض العلمية ؟ وليس هناك — فيما أرى — تفسير آخر . ذلك أن المؤرخ يوسيفوس هو الوحيد الذى عرف هذا الكتاب . على حين لم يعرفه أحد من اليونانيين ولا بطلميوس نفسه ، ولا عالم رومانى حتى بلينى ، رغم صعوبة تصور ذلك . وربما يكون هذا الإهمال لاسترابون من ناحية القدماء هو السبب فى عدم وجود ترجمة عربية له ، إذ بقى سترابون مجهولا للجغرافيين المسلمين ومؤرخيهم .

ثم حدث فى العصر البيزنطى أن اكتشف كتاب الجغرافيا على يد ستيفانوس البيزنطى (فى القرن السادس) . واستخدمه يوستاثيوس التسالونيكى (فى القرن الثانى عشر) ومكسيموس بلانوديس (فى القرن الثالث عشر) . غير أن أقدم مخطوط وصل إلينا هو المخطوط الباريزى رقم ١٣٩٧ ، ويحتوى الأجزاء العشرة الأولى فقط ، أما الأجزاء السبعة الأخيرة فمصدرها ثلاث مخطوطات متأخرة ، وهى مخطوطات الفاتيكان رقم ١٣٢٩ ، ومختصر الفاتيكان ، والبندقية رقم ٦٤٠ .

أما بداية طبع هذا الكتاب فترجع إلى جوارينو الفيرونى (١٣٧٠ — ١٤٦٠ تقريباً) وهو الذى أحضر معه من القسطنطينية مخطوطة يونانية ، وترجم منها الأجزاء العشرة الأولى إلى اللاتينية ، أما الجزءان ١١ — ١٢ فقام بترجمتهما جريجوريو تيفرناس . وتم طبع الكتاب كله بواسطة سوينهيم وبانارتز فى روما سنة ١٤٦٩ (انظر شكل ٨١) ، وأعيد طبعه خمس مرات قبل عام ١٥٠٠ وهى البندقية ١٤٧٢ ، وروما ١٤٧٣ ، وتريفيزو ١٤٨٠ ، والبندقية ١٤٩٤ و ١٤٩٥. وقام بطبع المخطوط اليونانى الأصلى ألدوس ، بالبندقية ١٥١٦ (انظر شكل ٨٢)، كما قام فلهلم كسيلاندر بإعداد طبعة لاتينية منقحة (بال — هنريفوس بترى ١٥٧٠) ، وكانت هذه الطبعة اللاتينية أول الطبعات الجيدة من هذا الكتاب .

ثم نشر إسحاق كازوبون النص اليونانى مرة أخرى ، وأضاف إليه ترجمة كسيلاندر (جنيف ١٥٨٧) . وكذلك قام يانسون دى ألميلوفين الهولندى بطبعة أخرى ممتازة (أمستردام ١٧٠٧) .

ونشر أديمانتوس كوريه نصًّا يونانيًّا جديداً فى أربعة مجلدات ، باريس ١٨١٥ — ١٨١٩ (انظر شكل ٨٤)، ومعه ترجمة فرنسية فى خمسة مجلدات ، باريس ١٨٠٥ — ١٨١٩ (انظر شكل ٨٥) . وكانت هذه الترجمة بناء على أمر نابليون ، واشترك فيها ثلاثة من علماء فرنسا هم : لا بورت دى تيل وليترون وجوسلان .

أما أحسن طبعة من هذا الكتاب فهى التى قام بها أغسطس مينيكه ، وهى التى نشرها توبنر (ليبزج ١٨٥٢ — ١٨٥٣) ، وأعيد طبعها مراراً فى ثلاثة مجلدات .

أما الطبعة اليونانية الإنجليزية فى سلسلة لويب الكلاسيكية ، فابتدأها جون روبرت ستلنجتون ، وأتمها هوراس ليونارد جونز (ثمانية مجلدات — ١٩١٧ — ١٩٣٢) .

وهذه المعلومات مستمدة من المصادر التالية التى اعتمد عليها المؤلف هنا فى دراسة تاريخ كتاب الجغرافيا لاسترابون ، وهى :

Marcel Dubois, Examen de la geographie de Strabon (416 pp., Paris : Impremerie Nationale, 1891),

وفيه يعرض لما ظهر من كتب تتعلق بدراسة سترابون حتى سنة ١٨٩٠.

Ernst Honigmann, in Pauly-Wissowa, Real-Encyclopadie (2) 7, 76 — 155, 1931

Henry Fanshawe Tozer, Selections from Strabo (388 pp., 6 maps; Oxford : Clarendon Press, 1893); Selections in Greek with notes.

إزيدورس الخاراكسى [٢٨] :

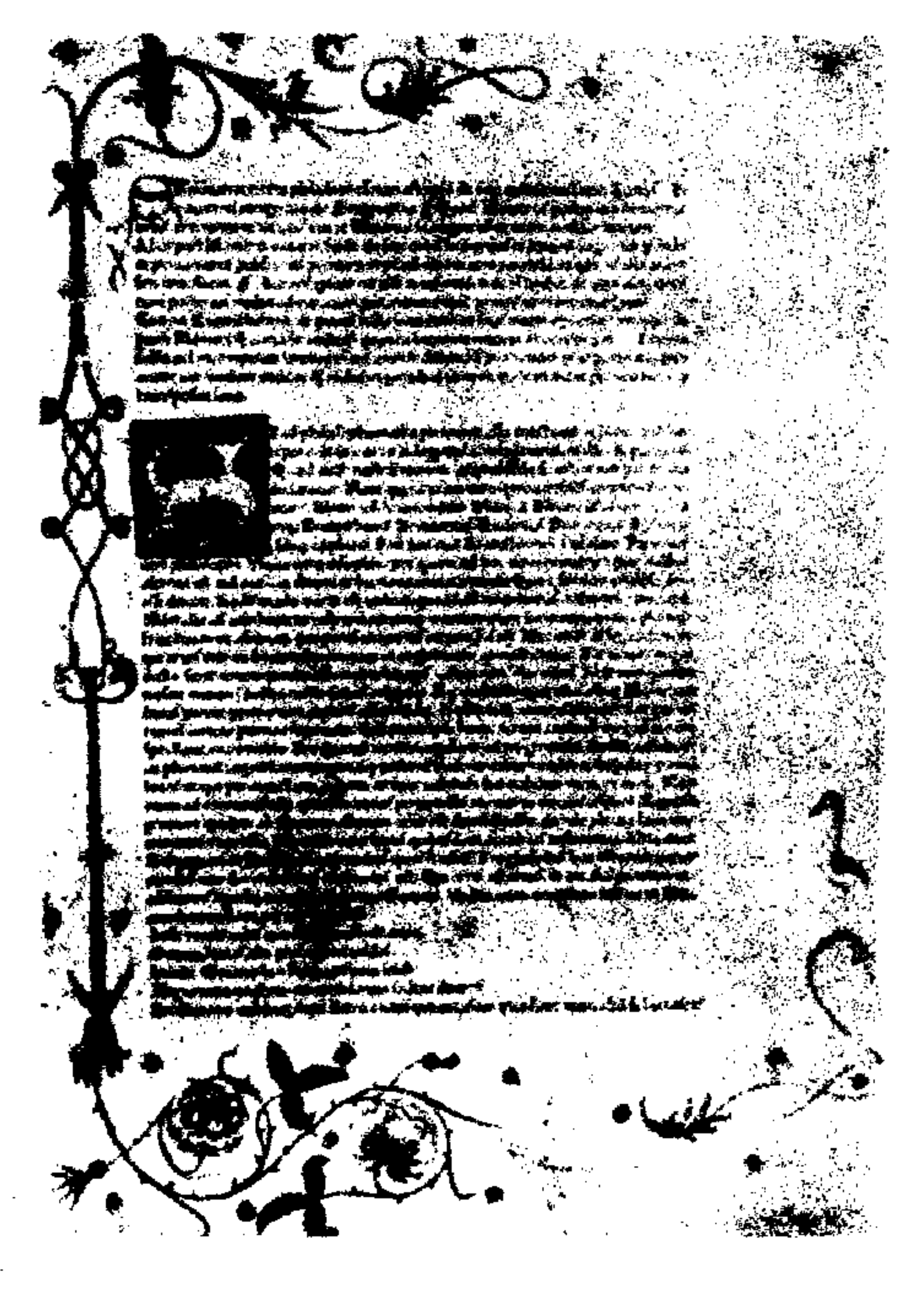
نستطيع أن نختتم القسم اليونانى من هذا الفصل بكلمة موجزة عن إيزيدورس هذا (فى نهاية القرن الأول ق.م.)، وكان معاصراً لا سترابون ، ولو أنه يستحيل علينا أن نقول إنه ظهر قبل ميلاد المسيح أو بعده، ومن الأسهل علينا أن نعده من الجغرافيين من عصر الإمبراطور أغسطس، بل لعله قام بعمله بتكليف من أجريبا . على أن سترابون لم يذكر إيزيدورس فى جغرافيته، ولكن بلينى حفظ لنا فقرات من كتاب إيزيدورس الذى عنوانه وصف العالم ، كما حفظ لنا أثينيوس النقراطيسى فقرة من كتابه «رحلة حول بارثيا » ، وهى فقرة خاصة بصيد اللؤلؤ. ولدينا نص كامل لكتاب إيزيدورس الذى عنوانه « محطات السفر فى بارثيا »، وهو كتاب يصف طريق القوافل من أنطاكية إلى الهند[٢٩] . وهو دليل طيب لإرشاد المسافرين والتجار وموظفى الدولة، ومن نوعه جمعت بضعة كتب فى عصر الإمبراطور أغسطس ، وسوف نعود للحديث عنها عند ذكر أجريبا فيما يلى .

علم الجغرافيا عند اللاتين

يقلّ عدد ما وصلنا من المؤلفات اللاتينية كثيراً عن عدد المؤلفات اليونانية، وتبدأ المؤلفات اللاتينية فى الظهور فى نهاية عصر ما قبل ميلاد المسيح . وسنبدأ حديثنا بشخص على جانب كبير من الأهمية وهو يوليوس قيصر .

يوليوس قيصر :

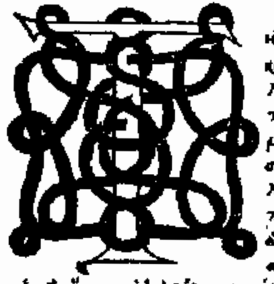
سوف نبحث فى الفصل الرابع والعشرين كتب يوليوس قيصر المعروفة باسم التعليقات (حوالى ٥٢ – ٥٠ ق.م.)، ولكن ينبغى أن نتحدث هنا عن أساسها الجغرافى . وهذا عسير ، لأن معلومات يوليوس قيصر الجغرافية قليلة، والفقرات التى تتضمن قدراً من الجغرافيا يقال إنها إضافات كتبت بعد قيصر . ويقال كذلك إن قيصر استخدم « مساعد بحوث » له فى كتابة بعض الفقرات الجغرافية الخاصة ببلاد الجرمان وغابة هركينيا[٣٠]، وأنها مأخوذة عن جغرافيين يونانيين ، ولا ينبغى أن يثير ذلك فى صدورنا شيئاً من الخلط ، فإن مساعدى البحوث لا يتوقعون الاعتراف بجهودهم . أما موضع الأهمية فهو أن الكثير من معلومات يوليوس قيصر مأخوذ عن كتب يونانية، سواء قام هو بذلك – وكان يعرف من اليونانية ما يمكنه من ذلك – أو بمساعدة كاتب . على أن أهم مصادره من الكتب الجغرافية هى إراتوسثنيس و بوليبيوس و بوسيدونيوس ، وإلى جانب ذلك حصل يوليوس على قدر كبير من المعلومات من أهل البلاد التى نزل بها ، سواء أكان أولئك من الأسرى أم من غيرهم ، لأن أسماء الأماكن والقبائل كانت مستقاة من مخبرين محليين ، ويذكر شيشرون أنهم كانوا من الكثرة حتى إنه فى كل يوم كانت تأتى إليه أخبار جديدة بأسماء لم تكن معروفة من قبل[٣١] .



شكل ٨١ — الترجمة اللاتينية لكتاب الجغرافيا لاسترابون التي قام بها جوارينو الفيرونى (Rome : Sweynheym and Pannartz, 1469) . وهى بداية المطبوع من كتاب الجغرافيا لاسترابون . وترجع أهميتها إلى أن جوارينو استخدم مخطوطات يونانية (مفقودة الآن) وهى مخطوطات أفضل مما استخدمه ناشر النص الرئيسى .

ΣΤΡΑΒΩΝΟΣ ΓΕΩΓΡΑΦΙΚΩΝ

ΒΙΒΛΙΟΝ ΠΡΩΤΟΝ.



Ἡν τῆ φιλοσόφου πραγματείαν εἶναι νομίζομεν, εἴπερ ἄλλην τινά, καὶ τὴν γεωγραφικήν [illegible]

Strabo. a

شكل ٨٢ - المخطوط الرئيسي لكتاب الجغرافيا لاسترابون (folio,31 cm, 366 pp.,Venice Aldus, 1516)

وتبين فى الصفحة الأولى منه صغر حجم الحروف التى استخدمت فى الطباعة . ويلاحظ أن التصميم الزخرفى فى أعلى الصفحة ، والعنوان والحرف الأول الكبير مطبوعة كلها باللون الأحمر . كان ألدوس مانوتيوس (١٤٤٩ – ١٥١٥) يقوم بنفسه بنشر النصوص اليونانية ، وكان أكثر أهل عصره نشاطاً فى هذا المجال ، لكنه كان يجد مساعدين أحياناً . ومنهم ماركو موزوروس الكريتى اليونانى

STRABONIS

RERVM GEO-

GRAPHICARVM

LIBRI XVII



Lutetiae Parisiorum, Typis Regiis.

M. DCXX.

شكل ٨٣ – الطبعة اليونانية اللاتينية من كتاب الجغرافيا لاسترابون، وهى التى قام بها إسحاق كازوبون (باريس ١٦٢٠). سبق لكازوبون أن نشر طبعة يونانية لاتينية قبل تلك الطبعة (جنيف ١٥٨٧)، مستخدماً الترجمة التى قام بها جيليلموس كسيلاندر . غير أن هذه الطبعة على أية حال جديدة، وتعتبر أحد المعالم الأساسية فى الدراسات الاسترابونية . وكثيراً ما احتفظت طبعات لاحقة بأرقام صفحات هذه الطبعة . على حين رأى بعض الناشرين الآخرين ترقيم صفحات سترابون حسب طبعة أمستردام. ومثال ذلك، بداية الجزء الثانى تصبح (G 67 — A 117) . (وهى مجلد ثقيل جداً وطوله ٣٥ سم وسمكه ٨ سم بدون الغلاف) ويضم هذا الجزء جميع النص اليونانى مع ترجمة أكسيلاندر اللاتينية فى عمودين متقابلين (فى ٨٤٣ صفحة) ، وملحق بها فهارس مستفيضة ، وتأتى أخيراً شروح وتصويبات كازوبون (فى ٢٨٢ صفحة) ، ولها فهرس خاص بها .

من العسير علينا أن نتصور أن يوليوس قيصر قام بغزواته وحملاته بغير خرائط ، لأننا ندرك تمام الإدراك مدى أهمية استخدام الخرائط بحيث لا نكاد نتصور سفراً بغير خريطة . أما يوليوس قيصر ومعاونوه فكان لديهم فكرة عامة عن كل بلد من البلاد التى اتجهوا إليها، ومثال ذلك بلاد الغال . حيث حصلوا على مزيد من المعلومات من مصادر محلية كلما تقدموا فى السير فيها . وكان بعض هذه المعلومات يتعلق بقبائل لا نستطيع حتى الآن تعيين موقعها على الخريطة ، لأن إقليم كل قبيلة لم يكن ثابتاً ، فقد يتسع أو ينكمش حسب الظروف السياسية ، وكان يتغير بعض الشىء بصورة مستمرة بتغير فصول السنة .

سبق لبلاد الحال أن زارها كل من يوليبوس وبوسيدنيوس ، ولكن فتح يوليوس قيصر لها (٥٨ — ٥٠ ق.م) زاد معرفة الرومان كثيراً بأرجائها ، إذ كان ذلك أشبه باكتشاف عالم جديد ، ملىء بكل جديد . وسبق الرومان أن استعمروا جزءاً من جاليا وهو بروڤانس الحالية ؛ ولكن يوليوس قيصر فتح جميع الأراضى التى سكنها الجاليون والكلتيون . وفى عصر أغسطس قيصر قسمت جاليا إلى أربع ولايات : وهى بروڤانس الحالية ، وسميت جاليا الناربونية (حول مدينة ناربون) ، ثم أقاليم جاليا الثلاثة التى فتحها يوليوس قيصر ، وهى : جاليا الأكويتانية ، وتقع بين جبال البرانس ونهر اللوار ، ثم جاليا اللجدونية ، وتقع بين نهر اللوار ونهر السين ونهر السون وهى حول مدينة ليون ، ثم جاليا البلجيكية شمالى نهر السين بين نهرى السون والراين . وتمثل هذه الأقاليم الثلاثة من جاليا الشعوب الثلاثة الرئيسية التى أخضعها يوليوس قيصر للحكم الرومانى ، وهى الأكويتانيون فى الجنوب ، والكلتيون أو الجاليون فى الوسط ، والبلجيكيون فى الشمال . كان يوليوس قيصر على علم تام بالأنهار الرئيسية التى سبق أن ذكرناها ، فضلا عن معرفته بنهرى الجارون والمارون ، وكذلك سلسلة جبال سيفن فى الجنوب وجبال الجورا والفوج فى الشرق ، وغابة الأردون فى جاليا البلجيكية . وكانت لديه ثروة كبيرة من المعلومات التفصيلية ، فكثير من أسماء الأماكن والقبائل التى نعرفها الآن فى صورتها الحديثة ظهرت لأول مرة فى « تعليقات يوليوس قيصر » .

وأمدنا يوليوس قيصر كذلك بما نستطيع أن نسميه الآن معلومات خاصة بجغرافية الأجناس ، وهى معلومات تتعلق بعادات الناس وتقاليدهم .

وغزا يوليوس قيصر بريطانيا مرتين ، فى سنة ٥٥ وسنة ٥٤ ، وأغار على جرمانيا كذلك مرتين فى سنة ٥٥ وسنة ٥٣ . ووصف شكل بريطانيا الجغرافى المثلث ، وقدر حجمها تقديراً جيداً ، وذكر جزيرة هيبيرنيا أو إيرنى وهى أيرلندا الحالية ، وأن هذه الجزيرة تبلغ نصف حجم بريطانيا ، وتقع غربيها ،

ΣΤΡΑΒΩΝΟΣ

ΓΕΩΓΡΑΦΙΚΩΝ

ΒΙΒΛΙΑ ΕΠΤΑΚΑΙΔΕΚΑ,

ΕΚΔΙΔΟΝΤΟΣ ΚΑΙ ΔΙΟΡΘΟΥΝΤΟΣ Α ΚΟΡΑΗ,

ΜΕΡΟΣ ΠΡΩΤΟΝ.



ΕΝ ΠΑΡΙΣΙΟΙΣ,

ΕΚ ΤΗΣ ΤΥΠΟΓΡΑΦΙΑΣ Ι. Μ. ΕΒΕΡΑΡΤΟΥ.

SE TROUVE,

͵ΑΩΙΘ.

شكل ٨٤ — صفحة العنوان من المجلد الأول من طبعة سترابون التى أعدها أدمانتيوس كورايس، ونشرت فى أربعة أجزاء (باريس ١٨١٥ — ١٨١٩) . كان كورايس من مدينة إزمير ، وكان عالماً ومواطناً يونانياً (١٧٤٨ — ١٨٣٣) وعاش فى باريس منذ ١٧٨٨ ، وهو أحد المؤسسين المفكرين لليونان الحديثة . انظر المجلد الأول من كتاب تاريخ العلم، ص ٣٦٩ من الأصل الإنجليزى.

GÉOGRAPHIE

DE

STRABON,

TRADUITE DU GREC EN FRANÇAIS.

TOME PREMIER.



A PARIS,

DE L'IMPRIMERIE IMPÉRIALE.

شكل ٨٥ — صفحة العنوان من الجزء الأول من الترجمة الفرنسية لاسترابون ، وهى التى قام كورايس بترجمتها بناء على تكليف من نابليون وتحت رعايته، واشترك فى هذه الترجمة دلابورت دى تيل ولترون وجوسلان (خمسة أجزاء ، ٢٩ سم ، باريس ١٨٠٥ — ١٨١٩) ، وهذه الترجمة مذيلة بشروح مستفيضة وخرائط . وصدرت الأجزاء الثلاثة الأولى منها (١٨٠٥ — ١٨١٢) من المطبعة الإمبراطورية بباريس، والجزءان الرابع والخامس (١٨١٤ — ١٨١٩) من المطبعة ذاتها التى أطلق عليها حينئذ اسم المطبعة الملكية .

وكان يوليوس قيصر أول من لا حظ جزيرة مان[٣٢]، أما معرفته ببلاد الجرمان فكانت أكثر غموضاً ، كما سبق أن لاحظنا فى وصفه غابة هيركينيا ، وذلك لأن معلوماته لم تتعد أعالى نهر الراين ، وقليلا من أعالى نهر الدانوب[٣٣] .

والخلاصة أن تعليقات يوليوس قيصر تمدنا بعدد كبير من الأسماء الجغرافية والبشرية ، ولكن لا ينبغى أن نتوقع منها معرفة جغرافية دقيقة ، لأن تلك المعرفة لم تكن غايته ، ولم يسع هو للحصول عليها .

ولم يكن يوليوس قيصر مدركاً لضرورة المعرفة الجغرافية ، كما أدركها الإسكندر الأكبر ، كما أن الأرض التى خرج ليكشف معالمها ويفتحها ويستعمرها كانت أصغر حجماً وأقل غموضاً .

وكان يوليوس قيصر أول قائد رومانى يعبر نهر الراين ،وكان القائد الرومانى الثانى دروسوس [٣٤]، الذى عينه أغسطس قيصر فى سنة ١٣ ق.م والياً على جاليا الرومانية . وفى سنة ١٢ قام دروسوس بعمل إحصاء عام ، وبنى فى ليون هيكلا لروما ولأغسطس . وفى ذلك العام أمره أغسطس بأن يغزو جرمانيا ، وتم ذلك من الناحية الشمالية لبلجيكا (باتافيا وهولندا) . وكانت القاعدة الأساسية لجيش دروسوس عند مدينة ڤيتيرا ، [٣٥] ثم عند مدينة ماينز بعد ذلك . واستمرت حملته فى جرمانيا حتى عام ٩ ق.م. حيث بلغ نهر الألب ومات هناك ، ودفن فى الضريح المعروف باسم أغسطس قيصر . ولكى ييسر دروسوس على نفسه عملية نقل الإمدادات ، حفر قناة تصل بين الراين وبين زويدر والمحيط ، وساعده ذلك على إخضاع الفريزيين ، ولكن هذه القناة لم تكن كبيرة الفائدة فيما بعد [٣٦] .

وفى عام ٤٤ حين كان يوليوس قيصر فنصلا مع ماركس أنطونيوس أمر بعمل مسح عام للدولة الرومانية. غير أن مصرعه ، فى الخامس عشر من مارس عام ٤٤ ، حال بينه وبين إنجاز مشروعه . وتروى الأخبار المأثورة عن العصور الوسطى أن يوليوس قيصر كان قد ابتدأ فعلا فى هذا المسح العام للدولة الرومانية ، إذ يذكر ايتيكوس ايستر[٣٧] فى كتاب جغرافية العالم (النصف الثانى من القرن

السابع) أن يوليوس قيصر أمر بإجراء هذا المسح العام حينما كان قنصلا ، وأن زينودوكسوس أتم مسح البلاد الشرقية فى إحدى وعشرين سنة ونصف سنة ، وأن ثيودوتوس أنجز مسح البلاد الشمالية فى ثلاثين عاماً ، كما قام بوليكليتوس بمسح البلاد الجنوبية فى اثنتين وثلاثين سنة . وعلى ذلك استغرق مسح أراضى الدولة الرومانية اثنتين وثلاثين سنة ، وتم عرض ذلك العمل على السناتور الرومانى فى عام ١٢ ق . م ويوجد فى خريطة حول العالم التى رسمها ريتشارد هالدنجهام [٣٨] جدول يذكر أن يوليوس قيصر ابتدأ عملية المسح ، وأنه عهد بذلك العمل فى الشرق إلى شخص يسمى نيكودوكسوس ، وفى الشمال والغرب إلى ثيودوكسوس ، وفى الجنوب إلى بوليكيتوس . وهذه الأسماء الثلاثة قريبة جداً من الأسماء التى نكرها ايتيكوس إيستر ، ولا بد أنها هى أسماء الأشخاص أنفسهم . وبناء على هذه الأسماء ، فإن مساعدى يوليوس قيصر الثلاثة كانوا من اليونانيين .

ماركس فيبسانيوس أجريبا (٦٣ — ١٢ ق . م)

أدى بنا الحديث عن فتح جرمانيا من يوليوس قيصر إلى دروسوس ، الذى كان أحد ضباط أغسطس قيصر . وهذا الوصف ينطبق أيضاً على أجريبا ، وكان يمكننا أن نكتب هذا القسم تحت اسم « أغسطس » ، كما أطلقنا على القسم السابق اسم « يوليوس قيصر » . ولكن شتان ما بين هذين الرجلين ، إذ كان يوليوس قيصر يقود حملاته بنفسه ، وتعليقاته التى كتبها هى مذكراته الخاصة ، فى حين كان أغسطس قيصر رجلا محظوظاً اصطفاه القدر ليكون أول إمبراطور ، واستحق منصبه الأعلى هذا ، وكان كفءاً له ، ولكنه اضطر من أجل ذلك أن يتفرغ لإدارة الإمبراطورية وأن يترك لغيره التمتع بالأعمال الإنشائية .

وسبق لنا أن وصفنا أعمال أجريبا فى العمارة والهندسة ، وكان

من توفيقاته أنه أتم عملا آخر بدأه يوليوس قيصر وهو مسح أراضى الدولة الرومانية ، وتضمن ذلك منه أعمالا جغرافية كثيرة ، ومنها قياس الطرق وكانت هذه الطرق بنيت أصلا لأغراض عسكرية ، ولكنها استخدمت أيضاً لأغراض التجارة والسفر . وأفاد عمل الخريطة لهذه الطرق جميع الأغراض الحربية والسلمية . وابتدأ ذلك العمل قبل أغسطس قيصر وأجريپا. فيذكر بوليبيوس أنه سبق قياس الطريق من حدود إسبانيا إلى نهر الرون ، وأن المسافات على طول ذلك الطريق كانت مكتوبة على شواهد حجرية . وفيما بين أيام بوليبيوس وأغسطس قيصر بنيت طرق كثيرة أخرى ، ثم قيست وعينت مسافاتها بالطريقة نفسها . وفى أيام أغسطس قيصر حان الوقت لمسح شبكة هذه الطرق الرومانية كلها ، وهذه هى المهمة التى عهد بها الإمبراطور أغسطس إلى أجريپا .

وكانت نتيجة هذا العمل رسم خريطة للعالم (أى للإمبراطورية الرومانية وبعض الدول المجاورة) ، ورسمت هذه الخريطة بناء على أمر من أغسطس على حائط باب أوكتانيان فى روما . وكانت هذه الخريطة من تصميم أجريپا ، ولكن لم يتم رسمها حتى وفاته ، ولها شرح يبين المسافات بين الأماكن فضلا عن مساحات الأقاليم .

وأدى هذا العمل إلى نهضة جديدة لتأليف المراشد الجغرافية لأغراض عسكرية أو مدنية . وسبق لنا أن أوردنا مثلا على ذلك فى الفقرات السابقة الخاصة بالجغرافى إيزيدوروس الشاراكى ، ومن المحتمل أن كتابه الذى عنوانه المحطات البارثية كان نتيجة من نتائج العمل الذى قام به أجريپا . ويمكننا أن نتصور من ذلك أن كل حاكم رومانى عارف بمسئولياته كان يأمر بعمل مراشد جغرافية مماثلة لإقليمه ، لأنه كان من العسير ، بل من المستحيل ، على حاكم رومانى أن يحكم فى إقليمه دون أن يكون لديه كتاب من هذا النوع .

وبالتدريج صارت المراشد الجغرافية نوعين ، وأولها المراشد الوصفية ، لأنها تصف الطرق والأقاليم بالألفاظ ، مع ذكر قوائم بأسماء المحطات والمسافات بينها ، وثانيها المراشد المصورة ، وهى تحتوى على خرائط ورسوم توضيحية أخرى . ولما كانت هذه الوثائق الجغرافية من ضرورات السفر ، فمن المحتمل أن تأليفها ابتدأ قبل عصر أغسطس قيصر ، ولكنها زادت كثيراً منذ ذلك ومع هذا فإن مابقى لنا منها قليل جداً ، وكان اختفاؤها نتيجة حتمية لكثرة استخدامها ، لأنها كانت معدة لاستخدام المسافرين وليس للعلماء . وأقدم ما لدينا من النوع الأول ما هو معروف باسم رحلة أنسونيوس وهى إلى القرن الثالث ، كما أن أقدم ما لدينا من النوع الثانى هو جدول بيوتنجر من القرن نفسه [٣٩] .

ويشرح فييجتيوس فى كتابه فى فن الحرب (النصف الثانى من القرن الرابع) مدى الحاجة الحربية للمراشد الجغرافية بنوعيها ، مفترضاً وجودها الفعلى ، وكانت هذه المراشد مألوفة لمدة لا تقل عن أربعة قرون قبل فييجتيوس. وكانت هناك أيضاً مراشد للملاحين ، وهذه ترجع إلى العصر الإسكندرى ونسخت هذه المراشد القديمة وزيدت بالتدريج خلال العصر البيزنطى [٤٠]. استمدت كتب الرحلات اللاتينية مادتها من دراسة أجريبا ومن مصادر يونانية مختلفة .

الملك جوبا الثانى (مات سنة ٢٠ م تقريباً) :

يتضح التأثير الرومانى ، وكذلك تأثير اليونان غير المباشر ، فى أخبار جوبا الأول ، وهو ملك نوميديا الذى اتخذ جانب بومبى ، وانهزم على يد يوليوس قيصر ، ثم انتحر أخيراً فى عاصمته زاما [٤١] سنة ٤٦ ق.م. أما ابنه جوبا الثانى ، الذى كان طفلا فى ذلك الوقت ، فكان زينة فى موكب النصر الذى أحرزه يوليوس قيصر فى ذلك العام ، ونشأ جوبا الثانى فى روما ، وتعلم أحسن تعليم على يد معلمين يونانيين ، حتى أصبح عالماً ممتازاً ومواطناً

رومانياً . واطمأن الإمبراطور أغسطس قيصر إلى ولائه وسمح له بالعودة إلى نوميديا ، ثم أقامه ملكاً على مورتيانيا سنة ٢٥ ق.م[٤٢] ونتيجة لثقافته اليونانية ، أراد جوبا الثانى أن تكون له علاقات وثيقة مع العالم اليونانى وتزوج مرتين من أميرتين يونانيتين : الأولى كليوباترا سيليني ، ابنة ماركس أنطونيوس من الملكة كليوباترا العظيمة ، ثم جلافيرا ، ابنة أرخيلاوس ، ملك كبادوكيا [٤٣] . وبذل جوبا الثانى غاية جهده ليدخل الثقافة اليونانية والرومانية إلى مملكته . وكتب كثيراً من الكتب باللغة اليونانية ،[٤٤] تناول فيها تاريخ روما وليبيا ، وبلاد العرب وأشور ، كما قارن بين تراث اليونان وتراث الرومان ، ووصف جوبا الثانى النبات المعروف باسم يوفوربيا (وهو نبات أفريقى) ، وأطلق عليه هو هذا الاسم تكريماً لطبيبه يوفوربوس ، ومن المعروف أن مؤلفات جوبا الثانى مفقودة ، ولكنها معروفة لنا بأسمائها فى كل من بلينى وبلوتارك (القرن الأول) .

ونحن نهتم بصفة خاصة بهذا النوميدى اليونانى الماهر ، نظراً لحب استطلاعه الجغرافى ، إذ قام بأبحاث تتعلق بجزائر الخالدات (الكنارى) ، التى اعتقد أنها تتكون من خمس جزر[٤٥] . ثم إنه عرف نهر النيجر ، وأسس النظرية القائلة بأن نهر النيل ينبع من جبل يقع فى غرب موريتانيا ، بالقرب من المحيط [٤٦] . ولعل الذى ضلله هنا هو هيرودوت ؟ وكيفما كان الأمر ، فنحن لا نستطيع أن نلومه على أخطاء لم تصحح إلا فى القرن الماضى ، لأنه كان من العسير إصلاحها إلا بكثرة الملاحة فى البحار ورسم الخرائط الرياضية .

وهنا نستطيع أن نقرر بشأن الخطأ الجغرافى بشأن منابع النيل أن لوكريتيوس قال فى كتابه الذى عنوانه مسائل الطبيعة أن النيل ينبع من المناطق الجنوبية الحارة ، وأن فتروفيس خلط بين النيجر والنيل . ويدل ذلك على وجود أخطاء جغرافية غريبة أخرى فى المؤلفات اليونانية واللاتينية ، ولكن هذا يطيل حديثنا أكثر مما ينبغى ، مع العلم بأننا تحدثنا بما فيه الكفاية لنعطى فكرة عن المعرفة الجغرافية فى عصر ما قبل المسيح .

هيجينوس (مات عام ١٠ م تقريباً) :

خصص هذا الكاتب الرومانى الوفير الإنتاج ، الذى أعتقه أغسطس قيصر وعينه مديراً لمكتبة البلاتين ، واحداً من مؤلفاته العديدة (المفقودة) لجغرافية إيطاليا . وكان هيجينوس فى ذلك أحد السباقين الذين احتذى حذوهم بترارك وكثير من الإنسانيين فى عصر النهضة الأوربية الكبرى . أى إنه كان الأول ، منذ بوليبيوس وسترابون ، ولعله الأول فى اللغة اللاتينية كلها فى موضوع تحويل الجغرافيا فى اتجاه الجغرافيا التاريخية ، وذلك لأنه كان يعمل على تحقيق أسماء الأماكن التى يذكرها المؤرخون والشعراء على ما كان موجوداً فى زمانه . لأنه لم يكن للأماكن معنى عند الإنسانيين القدماء أو الإنسانيين فى عصر النهضة إلا بمقدار علاقتها بالإنسان ، وليس الإنسان عامة ، بل الإنسان السياسى والجندى ، والفيلسوف والشاعر والفنان أو البطل الأسطورى .

التعليقات

(١) فيما يتعلق بالجغرافيا فى القرن الثالث ق . م . ، انظر الفصل السادس .

(٢) التاريخ التقليدى للحرب الطروادية هو ١١٩٢ — ١١٨٣ ، لكن التاريخ الحقيقى لا يعنينا فيما يتعلق بمدينة مالوس ، ويكفى أن نذكر أن مالوس أنشئت فى تاريخ موغل فى التقدم .

(٣) انظر Hans Joachim Mette, Sphairopoiia , Untersuchungen zur Kosmologie des Krates von Pergamon (336 pp., Munich, 1936) [Isis 30, 325 (1939)] .

(٤) انظر Collected by Karl Muller, Fragmenta historicorum graecorum, vol. 3 (Paris, 1849), pp. 108 — 148.

(٥) انظر Greek - Latin edition of fragments in Karl Muller, Geographi graeci minores (Paris, ed. 1, 1855), Vol. 1, pp. 111 — 195; English translation in E.H. Warmington, Greek geography (London, 1934) [Isis 35, 250 (1944)], pp. 43 — 44, 198 — 207.

(٦) يبدو أن هذا الكتاب كان من الكتب البحرية الصغيرة لإرشاد الملاحين . فيما يتعلق بسواحل البحر الأحمر . وبقيت منه أوراق فى مؤلفات ديودور الصقلى (النصف الثانى من القرن الأول ق . م .) وفوتيوس (النصف الثانى من القرن التاسع الميلادى) .

(٧) لا ينبغى الخلط بين أرتميدوروس هذا وأرتيمدوروس آخر ، وهو كذلك من إفيسوس (النصف الثانى من القرن الثانى الميلادى) ولكنه من عصر متأخر ، ويسمى هذا الأخير عادة أرتيميدوروس دالديانوس ، وهو الذى ألف كتاباً عن الأحلام ، ولابد أن اسم أرتيمدوروس ومعناه منحة أرتيميس كان منتشراً فى إفيسوس ، وهى المدينة التى وهبت لأرتيميس .

(٨) اكتشف اليونان منذ عصر مبكر خاصية الجاذبية فى المغناطيس ، ولكن خاصية التوجيه المغناطيسى لم تكتشف إلا فى العصور الوسطى ، ولذا كان استخدام البوصلة فى الملاحة من أعمال العصور الوسطى المتأخرة .

(٩) كيزيكوس جزيرة تقع فى بحر مرمرة، وهى إحدى المستوطنات اليونانية الأولى فى آسيا الصغرى . وهى متصلة الآن بالساحل الجنوبى لهذا البحر وتسمى كابيدا . وما نعرفه عن يودكسوس هذا مستمد من بوسيدونيوس كما ورد فى سترابون .

(١٠) المقصود بذلك اكتشاف الغربيين لهذه الرياح ؛ إذ من المحتمل أن الملاحين الهنود أو العرب كانوا عارفين بها، ولكن لاسبيل إلى إثبات ذلك . والرياح الموسمية ، رياح فصلية ، تهب فى فصل معين من السنة فى اتجاه معين وفى عكس الاتجاه فى فصل آخر .

(١١) يعد ميخائيل إيفانوفتش رستوفترف (١٨٧٠ — ١٩٥٢) أحد أولئك العلماء . انظر مجلة (Isis, 34, 173, 1942) ويذكر معجم أكسفورد للدراسات القديمة أن هيبالوس بلغ أوجه فى القرن الأول ق . م . وأطلق پلينى اسم هيبالوس على الريح الموسمية الجنوبية الغربية . انظر (Pliny, Natural History, VI, 104 — 106)

(١٢) هذه المعلومات وغيرها فى هذه الفقرة مأخوذة من كتاب W.W. Tarn and G.T. Griffith, Hellenistic civilisation (London : Arnold, 1952) pp. 247 — 248.
ولكنى شخصياً أشك فى صدق هذه العبارة بالذات ، التى لاتتمشى مع الحقائق التالية هنا .

(١٣) تقع أفاميا على نهر العاصى ، وكانت إحدى المدن الهامة فى الدولة السليوكية كما ظلت على أهميتها فى الولاية الرومانية الشامية ، وأطلق عليها خلال الحرب الصليبية الأولى اسم فامية (١٠٩٦ — ١٠٩٩) حينما حكمها الأمير تانكرد النورمانى .

(١٤) استخدم هـ . ف . توزر هذا التعبير فى كتابه الذى عنوانه :
History of Ancient Geography (rev. ed. by M. Cary; Cambridge, 1935), p. 190.

(١٥) كان هذا القول أحد المعتقدات القديمة التى يمكن إرجاعها إلى تيارخوس (فى القرن الرابع ق . م .) وأرسطو وهيكاتيوس (فى القرن السادس ق . م .) ، وهوميروس . ولمعرفة تفاصيل ذلك انظر القسم الأول حـ ١ ص ٢٩٩ ، ٣٨٤ ، حـ ٢ ص ١٤٩ حـ ٣ ص ٢٤٠ . ومن المعروف أن القول بوجود محيط واحد صحيح ؛ ولكن كلا من هوميروس وهيكاتيوس أخطأ حين اعتقد أن هذا المحيط الواحد نهر كبير يحيط بالأرض، ثم يعود ويصب فى مجراه ، لأن هذا الرأى النهرى يتعارض مع فكرة أن الأرض كرة .

(١٦) تقع أماسيا على نهر إيريس (واسمه يشيل ارماك فى تركيا الحالية) . وكانت أماسيا هذه عاصمة مملكة بنطس ، الواقعة فى الجنوب من الطرف الشرقى للبحر الأسود ،

وهى كذلك مسقط رأس الملك متريداتيس العظيم . انظر
(Strabon, XII, 3, 39; see also XV 30, 37).

(١٧) تقع أميسوس فى مملكة بنطس ، وعلى هذا يشترك تيرانيون هذا مع سترابون فى الوطن ، ولكنهما لم يلتقيا أو يعملا معاً إلا فى روما .

(١٨) توفى بوسيدونيوس فى سنة ٥٠ ق . م . وعلى ذلك لا يستطيع سترابون أن يقابله إلا فى شبابه المبكر . لأنه فى سنة ٥٠ ق . م . كان سترابون فى سن الرابعة عشرة ، وبوسيدونيوس فى الثمانين .

(١٩) مثل هذه الإشاره وأمثالها تعنى كتابه « الجغرافيا » .

(٢٠) سافر سترابون سنة ٢٥ إلى إقليم طيبة فى حاشية ايليوس جالوس وإلى مصر . ويذكر كارى . (M. Cary in Tozer's History of ancient geography, p. XXV iii)

« أنه فى سنة ٢٥ قام أغسطس قيصر بمحاولة طائشة للقضاء على الاحتكار الذى فرضه الحميريون من العرب على جنوب البحر الأحمر ، فوجه حملة برية ضد واحدة من مدنهم تسمى ماريابا . وبعد ستة أشهر من السير الشاق من خليج العقبة عبر صحراء العرب إلى ماريابا قام القائد ايليوس جالوس بمحاصرة المدينة ، ولكنه أخفق فى إخضاعها . وهذه هى المحاولة الجادة الوحيدة لفتح بلاد العرب فى التاريخ القديم . ومنعت العقبات التى عانتها حملة جالوس الأباطرة من القيام بمحاولات أخرى للتوغل فى بلاد العرب » .

(٢١) كانت نهاية الجزء السابع من هذه الجغرافيا موجودة فى القرن الحادى عشر الميلادى ، إذ يوجد ملخص لهذا الجزء فى مختصر الفاتيكان ، وهو مخطوط مكتوب فى نهاية ذلك القرن . وهناك فقرات كثيرة تبلغ ٣٤ صفحة من نهاية هذا الجزء السابع .

(٢٢) المقصود بالجينيثليالوجيا قراءة الطالع وحسبان الميلاد ، وكان الناس فى زمن سترابون يعتقدون فى التنجيم ، أما المتعلمون والأذكياء من أمثال سترابون فإنهم خففوا من تلك العقيدة بالروية والشك . اقرأ تعليقات سترابون على علم الفلك والتنجيم فى كتابه ج ١٦ ، فصل ١ ، وهو خاص بالكلدان ، ثم ج ١٧ ، فصل ١ ، فقرة ٤٦ الخاص بالمصريين .

(٢٣) Geography, XVI, 2, 24.

(٢٤) كان تصور البراكين على أنها صمامات أمن لايزال موجوداً فى أوربا حتى

نهاية القرن الثامن عشر . وقال بذلك واحد من مؤسسى علم الجيولوجيا الحديث وهو جيمس هاتون فى كتابه [Theory of the Earth, (ed. 2 vols., Edinburgh, 1795), vol. I, p. 146]

(٢٥) انظر جغرافية سترابون ، ج ١ ، فصل ٣ ، فقرة ٤ ، وفى هذا الفصل أمثلة أخرى .

(٢٦) لاحظ هيرودوت مثل هذه الملاحظات الجيولوجية من قبل بصدد وادى تيمبى بإقليم تساليا. كما لاحظ أرسطو وبوسيدونيوس ملاحظات مشابهة بصدد جزر ليبارى .

(٢٧) انظر كتاب الجغرافيا ، ج ١٣ ، فقرة ٥٤ ، ص ١ .

(٢٨) خاراكس كلمة يونانية معناها عصا ، ومن ثم سور من عصى أو معسكر مسور بعصى مثبتة فى الأرض ، وكثير من المعسكرات أطلق عليها اسم شاراك أو خاراكس وموقع هذا المكان قرب مصب نهر دجلة ، ولعل ازيدوروس كان كلدانيا .

(٢٩) انظر Wilfred H. Schoff, Parthian Stations of Isidore of Charax (47 pp. Philadelphia, 1914).

(٣٠) وصف يوليوس قيصر غابة هركينيا سابقاً فى كتابه الذى عنوانه حرب الجاليين ، بأنها غابة تخترق جرمانيا حتى إقليم داكيا (٦٠ يوماً فى الطول وتسعة أيام فى العرض) . ومعنى ذلك أن هذا الوصف ضم الغابة السوداء وأودينفالد وغابة تورنجر وهارتز وارتزجبرجه وريزنجبرجه . ويلاحظ أن ألفاظ « هارتز » و « إرتز » مشتقة من « هركينيا » . وكانت الجبال أكثر صعوبة عند تعيين موقعها بدون خريطة .

(٣١) انظر Cicero, De provinciis consularibus in senatu oratio (chap. 13) dated 56 B, C.

(٣٢) كانت الجزيرة التى أطلق عليها يوليوس قيصر اسم مونا ، وقال إنها تقع فى وسط المسافة بين بريطانيا وهيبيرنيا هى جزيرة مان وليست جزيرة أنجلسى ، وأطلق بلينى على هذه الجزيرة اسم مونابيا .

(٣٣) كان اليونان على علم بالجزء السفلى من وادى الدانوب ، وليس بالجزء العلوى منه . وكان أوكتافيانوس (أغسطس فيما بعد) أول من أدرك أثناء حملته فى بانونيا سنة ٣٥ ق.م. أن نهر الدانوفيوس فى ألمانيا الجنوبية ونهر الاستر فى بلاد البلقان جزءان من نهر واحد . وفى سنة ١٥ ق . م . زار تيبريوس منابع الدانوب . وهذه هى أول مرة يعرف فيها النهر كله .

(٣٤) نيرون كلوديوس (٣٨ — ٩ ق . م .) هو ابن زوجة أغسطس ، وتولى منصب المدير المالى فى السنة الثامنة عشرة من عهده . وخلف أغسطس فى الحكم تيبريوس (٤٢ ق . م . — ٣٧ م .) وهو الأخ الأكبر للقائد دروسوس ؛ وكانت مدة حكمه (١٤ — ٣٧ م .) .

(٣٥) تقع فتيرا فى الجزء السفلى من الراين بالقرب من مدينة اكسانتين الحالية . ومن الغريب أن يكون هذا الموقع الذى هو أقدم معسكر رومانى على الراين (كانت تقيم هناك فرقة حتى نهاية الإمبراطورية) ، هو أيضاً الموقع الذى أقيم عليه قصر النيبلونجن ، حيث ولد سيجفريد ، قاتل التنين الأسطورى .

(٣٦) Alfred Klotz, Casarstudien nebst einer Analyse der Strabonischen Beschreibung von Gallien und Britannien (267 pp.; Leipzig, 1910)

(٣٧) انظر Louis Baudet, Cosmographie d'Ethicus (Paris 1843) p. 8.

(٣٨) هذه الخريطة هى المحفوظة فى كاتدرائية هرفورد فى إنجلترا ، وهى مرسومة سنة ١٢٨٣ تقريباً ، انظر Introduction, vol. 2, p. 1050 . انظر الطبعة الجديدة لهذه الخريطة ، ومعها مقالة كتبها كرون ونشرتها الجمعية الملكية الجغرافية (لندن ١٩٥٤). وهذه الخريطة أو الأصل الذى أخذت عنه عملت لتوضيح تاريخ هروشيوش المؤرخ الرومانى فى القرن الخامس .

(٣٩) انظر For more details, see Introduction, vol. I, p. 323

(٤٠) فيما يتعلق بالعصر البيزنطى انظر Armand Delatte, Les Portulans grecs Liége: Faculté de philosophie et lettres, 1947) (Isis 40, 71 — 72 (1949).

وقامت كل دولة متحضرة بعمل المراشد اللازمة لها ، مثل الصين (Introduction, vol. I, pp. 324, 536)

والدول الإسلامية (المصدر نفسه ص ٦٠٦) . والكتب العربية والصينية الخاصة بالمراشد تاريخ مستقبل ، استجابة لضرورات الإدارة فى تلك البلاد .

(٤١) مدينة زاما هى ياما فى فى تونس ، وتقع فى الجنوب الغربى من قرطاجنة : (Oxford Classical Dictionary, p. 964).

(٤٢) يمكننا أن نقول على وجه التقريب بأن نوميديا هى غرب تونس وشرق الجزائر الحالية ، وأن موريتانيا هى غرب الجزائر ومراكش الحالية . وكان جوبا الأول ملكاً على

نوميديا ، أما جوبا الثانى فإنه صار ملكاً على موريتانيا فضلا عن نوميديا ، وكان ذلك من دواعى السياسة الرومانية .

(٤٣) لقى جوبا الثانى هاتين الأميرتين فى روما ، فبعد موت ماركس أنطونيوس سنة ٣٠ ق . م . أعيدت كليوباترا سيليني إلى روما . أما أرخيلاوس فكان ملكاً على كبادوكيا بناء على رغبة أنطونيوس ، ولكنه اتهم بالخيانة فيما بعد ، فأخذته السلطات الرومانية إلى روما وأرغم على البقاء هناك ، حيث مات سنة ١٧ م .

(٤٤) كان من الممكن أن نتحدث عن جوبا الثانى هذا مع غيره من اليونانيين فى القسم الأول من هذا الفصل . ولكن موقفه شاذ لأنه رجل من نوميديا ، وتعليمه كله فى روما ، وأنه يمثل مدى اصطباغ العاصمة اللاتينية للعالم بالصبغة الهلنستية .

(٤٥) يمكن مطابقة بعض الأسماء والتفاصيل الأخرى التى يذكرها بلينى على بعض الأسماء والتفاصيل الحالية ، مثل اسم جزائر الكناريا . ومن المحتمل أن هذه الجزر كانت معروفة للقرطاجيين ، ومن المحتمل كذلك أن جوبا الثانى استوحى فى بحثه أخباراً محلية .

(٤٦) كان من العسير القضاء على هذه النظرية وغيرها من النظريات التى تجعل من من النيجر فرعاً للنيل ، والتى تعتبر الصلة الغربية بين النيجر والنيل هى الصورة الإفريقية للصلة بين الجزئين القديمين من الدانوب الأوربى ، (Introduction, vol. 3, pp. 1158, 1772)

الفصل الرابع والعشرون

معرفة الماضى فى القرنين الأخيرين [1]

مؤرخو اليونان

بوليبيوس :

كان پوليبيوس بلا نزاع أعظم مؤرخ فى القرن الثانى (النصف الأول من القرن الثانى قبل الميلاد) ، بل لعلنا نذهب إلى أبعد من ذلك فنقول إنه أحد عظماء العصر القديم ، تأتى منزلته مباشرة بعد هيرودوت وثوكيديديس اللذين ازدهرا قبله بثلاثة قرون . وإلى جانب أهميته لذاته ، يعدّ كذلك رمزاً لعصر جديد ، نعنى أول عصر العالمية الغربية ، العصر الذهبى للجمهورية . ومن التناقض أن يكون أول من أعلن رسالة روما وعظمتها يونانيا ، أذاع ذلك بلغته اليونانية ، لا باللغة اللاتينية .

ولد پوليبيوس حول ٢٠٧ فى ميجالوپوليس بأركاديا ، مما يدل على عراقته فى يونانيته . وأركاديا إقليم واسع نسبيًّا ، يشغل الجزء الأوسط من الپلوبونيز ، ويفصله عن غيره من الأقاليم سلاسل من الجبال . أما أهله فكانوا يعدون أنفسهم أقدم اليونانيين وأعرقهم أصلا ، وكانوا فى الأغلب زراعاً ورعاة ، مهمتهم الأساسية تربية الماشية ورياضتهم الأساسية الصيد ، وآلهتهم الأساسية « بان » و « أرتميس » ، وفنهم الأثير ، الموسيقى [2] . وقد استطاع الأركاديون الدفاع عن استقلالهم زمناً أطول من غيرهم من اليونانيين وهزموا عدة مرات أكثر جيرانهم خطراً ، وهم اللقدمونيون (الإسبرطيون) إذ بدد بطلا طيبة آمالهم حين أخرج البطل پيلوبيداس الإسبرطيين من طيبة سنة ٣٧٩ ، وهزمهم البطل إيپا مينونداس فى ليوكترا سنة ٣٧١ . وقد اتبع الأركاديون نصيحة ايپا مينونداس

فابتنوا عاصمة جديدة حصينة سموها « ميجابوليس » (أى المدينة الكبيرة) . ثم انضموا بعد ذلك إلى الحلف الآخى ، وشاركوا فى مساوئه ، إلى أن انتصرت عليهم روما آخر الأمر .

ولنعد مرة أخرى إلى پوليبيوس ، وإن كان من المفيد أن نراه من خلال بيئته . فلقد كانت الحروب مع إسبرطة وروما حقائق رهيبة بالنسبة إليه . ونقشت فى أعماق قلبه ذكريات أحد عظماء الأبطال الوطنيين ، وهو فيلوبويمين [٣] . وكان ليكورتاس والد پوليبيوس ، صديق فيلوبويمين وخليفته فى رياسة الحلف الآخى ، هزم المسينيين سنة ١٨٢ وأرغم الإسبرطيين على دخول الحلف . إن أبا على شاكلة ليكورتاس ليجعلنا على يقين من أن پوليبيوس تلقى عنه أفضل تربية ممكنة ، كما أخذ عنه أروع المثل ، أما الرومان فقد جعلت منهم الحروب المقدونية [٤] أعداء مألوفين . وانتهت الحرب الثالث بانتصار پيندا [٥] والتى انتصر فيها إيميليوس پاولوس المقدونى سنة ١٦٨ على برسيوس ملك مقدونيا . وقد احتفل پوسيوس بانتصار پاولوس احتفالا عظيماً فى روما ، وأهم من ذلك أن مكتبته اليونانية أصبحت من نصيب پاولوس الذى استخدمها فى تعليم أكبر ابنيه وهما : فابيوس،وسكيپيو إيميليانوس أفريكانوس . [٦] ثم أخذ ألف شخص ضيوف شرف إلى روما ، وكان منهم پوليبيوس وهو فى سن الأربعين . ونظراً لشرف أسرته وارتفاع منزلته استضافته أسرة المنتصر ، فنزل معززاً مكرماً فى بيت سكيپيو إيميليانوس ، مؤسس « الحلقة السيبية » [٧] وزعيمها ، وهى جماعة من أرقى المثقفين الرومان ، وأعظم المعجبين بالآداب اليونانية ، والمشجعين للآداب اللاتينية . وكان الرواقيان پوليبيوس الذى نتحدث عنه وپاناتييوس ، من أبرز أعضائها . ومن أعضائها اللاتين جايوس لوكيليوس (١٨٠ — ١٠٢) الشاعر الهجائى ، تيرنتيوس (١٩٥ — ١٥٩) الشاعر الدرامى ، وشيشرون . ولسنا نغالى حين نؤكد أهمية تلك الحلقة فى صبغ روما بالصبغة اليونانية وتنمية الفلسفة والأدب اللاتينيين ، والثقافة الرومانية . وانظر كيف كان من حظ پوليبيوس أن أقام فى صميم

الحياة العقلية الرومانية ، فقد قضى ثمانية عشر عاماً فى روما (من ١٦٨ — ١٥٠ ق.م أى من سن ٤٠ إلى ٥٨) ، وسنحت له الفرصة فى أثنائها أن يلتقى بكل قادة الفكر ، من يونانيين ورومانيين ، مقيمين بالمدينة أو زائرين . مثال ذلك أنه فى سنة ١٥٥ أتيحت له فرصة لقاء أعضاء السفارة الأثينية كارنيادس الأكاديمى ، وديوجنيس البابلى ، وكريتولاوس المشائى. وفى سنة ١٥٠ حصل على إذن بالرحيل ، وإن كان لا يعتبر منفياً بعد هذا الزمن ، بل أمسى رومانياً أكثر من الرومان . بارح روما ، ورحل إلى الخارج ، ولكنه كثيراً ما كان يعود ليقطن مع صاحبه سكيپيو إيميليانوس أو ليصحبه فى معاركه . وكان معه سنة ١٤٦ عندما فتحت قرطاجنة ونهبت . وبعد أن دمر موميوس كورنثه فى السنة نفسها ، دعى پوليبيوس للمساعدة فى إعادة تنظيم اليونان . (Historiai, XXXIX, 13 f) فأدى مهمته هناك (١٤٦ — ١٤٥) ، ثم أكملها فى روما . وهذا نص عبارته (XXXIX, 19)

« بعد إتمام هذه الأعمال عدت من روما إلى موطنى [٨] ، وكأن ما قمت به قد توج كل أعمالى السياسية السابقة، وظفرت بعودة جميلة للدوام ولا ئى للرومان . وعندئذ تقدمت بالدعاء إلى كل الآلهة أن تستمر بقية حياتى فى الطريق نفسه والازدهار عينه ، فقد تبين لى أن القدر يحسد البشر ، وأنه على استعداد أن يظهر قوته فى تلك الأمور التى يخيل إلى المرء أنه بالحصول عليها يكون فى غاية النعمة والنجاح فى الحياة[٩] .

وليس معروفاً أين قضى بقية حياته ، ولكنه وهو فى الثانية والثمانين من العمر سقط من على ظهر جواده مما أدى إلى وفاته . (حول ١٢٥ ق.م) .

صنف كتباً متعددة، وخلد بواحد منها كتبه فى المدة من ١٦٨ إلى ١٤٠ ، وهو كتاب فى التاريخ العام (Historiai) يصف الغزو الرومانى لجزء كبير من العالم فى نصف قرن أو يزيد (٢٢٠ — ١٦٨) ويبين كيف أصبح المؤلف رومانياً بعد ذلك ، من ١٦٨ إلى ١٤٦ بعد الانتصار على اليونان وقرطاجة . ويقع المصنف فى أربعين جزءاً ، لم يصلنا منها إلا

الخمسة الأول ، واحتفظت شذرات من الباقى (من السادس إلى الأربعين) فى كتابات ليفى (النصف الثانى من القرن الأول قبل الميلاد) وديودوروس (النصف الثانى من القرن الأول) وپلوتارك (النصف الثانى من القرن الأول بعد الميلاد) ، وأبيان (النصف الثانى من القرن الثانى بعد الميلاد) . والكتابان الأول والثانى عبارة عن مقدمة يروى فيها حوادث من الوقت الذى توقف فيه تيماوس سنة ٢٦٤ فى أثناء الحرب البونية الأولى (٢٦٤ — ٢٤١) ، والحلف الآخى . وتصف الكتب من الثالث إلى الثلاثين غزوات الرومان ، حتى معركة پيندا سنة ١٦٨ (وقد عانى پوليبيوس كثيراً من هذه المعركة فى مقدونيا) . وتحكى الكتب من الواحد والثلاثين إلى التاسع والثلاثين الأحداث من ١٦٨ إلى ١٤٦ . والأرجح أن الكتاب الأربعين عبارة عن نظرة عامة وتلخيص للمصنف جميعه محدود بحوليات الأولمبياد[١٠] .

ولا تعنينا التفاصيل كثيراً ، ويكفى أن نقول إن تاريخ پوليبيوس يصف « العالم » كما عرفه من سنة ٢٦٤ إلى ١٤٦ ق.م، أى ١١٨ عاماً فى غاية الأهمية . وكان غرضه فنياً تماماً ، هو تعليم السياسة العملية لرجال السياسة والموظفين المدنيين . وكانت تجربته أكمل ما تكون ؛ لأنه قضى مرحلة النشأة والتكوين بل جاوزها (٤٠ عاماً) ، فى اليونان ، حيث شهد نتائج الفوضى السياسية ، ثم الأربعين السنة التالية فى روما أو فى رحلات لا يلبث أن يعود منها دائماً إلى روما . أكثر من الرحلة إلى اليونان ، وإيطاليا ، ومصر ، وصقلية ، وموريتانيا ، وإسبانيا ، والجال ، وربما إلى إنجلترا ، فلا غرابة أن يكون جيد المعرفة بالأقاليم والأماكن . وكان شاعراً تماماً بضرورة وصف البيئة الطبيعية للمحاولات الحربية أو الإدارية ، كما كان مزوداً بما يكفل له وصفها وصفاً صحيحاً ، إذ قرأ كل كتاب له صلة بهذا الموضوع باللغة اليونانية أو اللاتينية ، ووقع تحت يديه كثير من الوثائق العامة والخاصة . وأخيراً — وهذا هو الأهم — كان على صلة شخصية فى البداية ببعض قادة اليونان ، وفى الحلقة السبيونية بعد ذلك بقادة روما والعالم كله . . عرف حقائق الحرب والسلم ، ومشكلات

الاستراتيجية ، والتكتيك ، والدبلوماسية، ومقتضيات المفاوضات السياسية. ولقد تميز بعدم التحزب ، فهو يونانى حاول إنقاذ بلاده أطول وأكثر ما يمكن ولكنه عرف نقطة ضعفها ، كأحسن ما يستطيع مواطن أن يعرف . ومن جهة أخرى كانت مزايا النظام الرومانى ووحدته واضحة له . وعرف أن عقيدة روما الوطنية هى الإخلاص للوحدة وحسن الدفاع عنها ، وأن الحكام كانوا يستخدمون المؤسسات الدينية لإخضاع الجمهور (VI, 56) . وإذا كان اليونان لم يضيعوا حقهم فى حكم العالم فحسب ، بل فقدوا أيضاً حماية استقلالهم نفسه ، فلم يكن ثمة مخرج من الفوضى السياسية إلا الثقة بالقيادة الرومانية .

ونحن نجد آراءه العامة مشروحة فى بعض الأجزاء التى تعترض الرواية التاريخية . مثال ذلك أنه ناقش فى الكتاب السادس الدستور الرومانى ، وفى الكتاب الثانى عشر النظريات التاريخية ، وفى الكتاب التاسع والثلاثين جغرافية البحر المتوسط .

التى فى الحلقة السبيونية ببناتيوس وغيره من الرواقيين ، ولعله لقى بعضهم قبل مبارحته اليونان ، إذ كانت فلسفته وسياسته وديانته رواقية . ولقد حاول تفسير مساوئ الحياة ، وبيان أسباب الحوادث ، ولكن تبين أن كثيراً منها ، وبعضها فى غاية الأهمية، يرجع إلى المصادفة أو الحظ[11] ولا يمكن تحليله. أما بعضها الآخر فيمكن تحليله ، ومن الخير أن نفعل ذلك . مثال ذلك أنه يمكن تعيين مزايا أفراد معينين أو نقائصهم ، وبخاصة قوة إرادتهم ، وكذلك فضائل كل دولة ورذائلها ودساتيرها وإدارتها . بل إنه حاول تفسير التطور العام (anacyclosis) . واستلهم فى ذلك اعتقاد الرواقيين فى نظام الدورات التى قد تتكرر أو لا تتكرر[12] .

كان بوليبيوس مؤرخاً علمياً مثل ثوكيديدس، وإن كان دونه فى قوة الفكر وصفاء اللغة ، ولعله يعلو عليه من ناحية أنه لم يسلك مثله المسلك الخطابى كما صنع ليفى من بعد. لأنه لايتفق مع الضبط والدقة . فهو باحث قبل أن يكون أديباً ، وعالم يشارك العلماء فى ثقتهم بأن الحقيقة، إن أمكن بلوغها ، هى التى

ستسود . وانتقد أسلوبه من قديم فقال ديونيسيوس الهاليكارناسى (النصف الثانى من القرن الأول ق.م) : إن بوليبيوس من المؤلفين الذين تصعب متابعة قراءتهم إلى النهاية . الحق أن الكتاب ، كما يرى صاحبه ، دراسة (pragmateia) فى السياسة العملية ، ولذا عجز ديونيسيوس عن إدراك الصعوبات والدقائق التى يواجهها صاحب العقلية العلمية ، ولا جدوى من الزخارف اللفظية فى بحث علمى .

كان بوليبيوس على ثقافة عالية ، يعرف لغته كأى يونانى فى زمانه . ولم تكن اليونانية لعهده لغة أتيكا التى سادت فى القرن الرابع ، بل أسلوباً مشتركاً ينطق به المهذبون فى جميع أنحاء العالم اليونانى منذ القرن الثالث . وقد حاول أن يدون ما يريد أن يقوله بأوضح ما يستطيع ، واجتهد فى تحقيق ذلك ، فلم يحاول تسلية قرائه أو التأثير فيهم بالبلاغة الأدبية ، وإنما قصد إلى تعليمهم .

ومن المحتمل أن النص اليونانى لكتابه فى التاريخ كان تحت يد الباحثين الذين عملوا تحت رعاية قسطنطين السابع البرفرجينى (النصف الثانى من القرن العاشر) . وقد نفد كثير من المخطوطات عندما نهب الصليبيون القسطنطينية سنة ١٢٠٤ . وأقدم المخطوطات الباقية هو مخطوط الفاتيكان رقم ١٢٤ ، ويرجع تاريخه إلى القرن الحادى عشر ولا يحتوى إلا الأجزاء الخمسة الأولى . وقد شرع ليوناردو برونى الأريزى (١٣٦٩ — ١٤٤٤) فى ترجمة الكتاب إلى اللاتينية ، وإلى البابا نقولا الخامس خاصة (بابا ١٤٤٧ — ١٤٥٥) يرجع الفضل فى الاهتمام ببوليبيوس ، فهو مؤسس مكتبة الفاتيكان ، وهو الذى شجع نقولا بيروتى الساسوفيراتى (١٤٣٠ — ١٤٨٠) على أن يترجم الأجزاء الخمسة الأولى ترجمة جديدة طبعها سوينهيم وبنارتز فى روما سنة ١٤٧٢ (انظر ٨٦) وطبع فنستيوس أو بسوسبيوس الأصل اليونانى للكتاب (هاجنو ١٥٣٠) (انظر شكل ٨٧) .

والمراجع الخاصة ببوليبيوس معقدة جداً ، نظراً لأن كشف أجزاء الكتاب المفقودة تم تدريجياً ، وطبعت عدة طبعات متلاحقة باليونانية أو مترجمة

Polybii Historiarum liber secūdus finit. Incipit Tertius feliciter.

Satis est a nobis in primo libro ostensū quod sociale Annibalisque ac Syriacum bellū ueluti principia ac fūdamēta rerū a Romanis gestarū subiecimus ubi etiā redditę sūt causę que nos ut repetitis altius principiis secūdi libri historiā conectere/mus impulere. Nūc uero ipsa bella causasque a quibus & orta sūt: & tā lōge lateque diffusa demōstrare conabimur si prius conatū populi. R. quā breuius fieri poterit expo/suerimus. Nam cum unum opus ac ueluti unū spectaculum sit quod scribere aggressi sumus quo pacto & quando: aut quamobrem: uniuersę orbis partes in populi Romani ditionem peruenere: idque & principium cognitum habeat: & tempus definitum: & finem certū profecto utile existimauimus: res etiam que intra principiū ac finem huiusmodi bellorū gestę sūt duntaxat memoratu dignas summatim commemorare: ratiper hunc modum studiosos nostri operis totius historię cognitionem facilius adipisci posse. Multa quidē animus noster ex uniuersalis historię cognitione ad partiu/cularium rerum historiam necessaria percipit: nec parum etiam particularium rerū peritia: ad uniuersalis historię scientiam cōfert: Quod si utrunque inuicem iunctum ueluti unum ex ambobus factū prebeat incredibilem sane legentibus fructum afferet. Verum nos quidem summa totius operis satis superque duobus superioribus libris diximus: Particularium uero rerum que medio tempore gestę fuerunt: principia quidem sunt hęc que supramemorauimus bella: finis uero: Regum Macedonię interitus: Tempus inter principiū finemque medium anni quinquaginta: Intra quos tales ac tantę res gestę sunt: quales quantasque superior ętas intra tam breue tēporis spatium nunquā tulit: De quibus nos a centesima & quadragesima olympiade scribere incipientes hūc ordinē seruabimus. Principio ostendemus causas unde id bellum quod Annibalis appellatur inter Romanos ac Cartaginenses ortū sit. Vt Cartaginenses Italiā ingressi maximum in discrimen populum Romanum adduxerūt ut repente inciderunt in spem non solum reliqua Italia: sed ipsa etiā urbe Roma potiundi. Post hęc exequi conabimur quo pacto

شكل ٨٦ – تاريخ اليونان وروما ، تأليف بوليبيوس (النصف الأول من القرن الثانى ق . م) . وأقدم طبعة هى الترجمة اللاتينية للأجزاء الخمسة الأولى قام بها نقولا بيروتى

Folio; Rome : Sweynheym and Pannartz 31 Dec. 1473

وأهداها البابا نقولا الخامس (بابا ١٤٤٧ – ١٤٥٥) الذى منحها رعايته .

إلى لغات أخرى . وآخر الطبعات (الكاملة) للنص اليونانى أعدها فريد ريش دوبنر مع ترجمة لاتينية وفهارس جيدة (مجلدان ، باريس ، فرمان ديدو ، ١٨٣٩) ، وفريدريش هلتش (٤ مجلدات ، برلين ، فيدمان ، ١٨٦٦ —١٨٧٢) وتيودور بتربوست (٤ مجلدات ، ليبزج ، تيبنر ١٨٦٧ — ١٨٨٩) ، وراجعها لودفج دندروف (٥ مجلدات ، تيبنر ، ١٨٨٢ — ١٩٠٤) ، وراجعها مرة ثانية بتنر — وبست (٥ مجلدات تيبنر ١٨٨٩ — ١٩٠٤) .

شكل ٨٧ — پوليبيوس (النصف الأول من القرن الثانى ق . م) . صفحة العنوان فى الأصل اليونانى لكتابه فى التاريخ . طبع الأجزاء الخمسة الأولى Vincentius Obsopoeus Hagenau : Johannes Secerius, 1530. (ورق من حجم صغير ، ٢٧ سم) . ومعها ترجمة لاتينية قام بها Niccolo Perotti يقع النص اليونانى فى ١٠٦ ورقات ، وهو مهدى إلى Georg der Fromme, Markgraf von Brandenburg. ويقع النص اللاتينى فى ١٤٢ ورقة ، وهو مهدى البابا نقولا الخامس .

وقد ترجم لويس ميجريه الأجزاء الخمسة الأولى إلى الفرنسية (باريس ١٥٥٢) وترجمه پيير فالتس أخيراً ترجمة كاملة (٤ مجلدات ، باريس ١٩٢١) .

ترجم كرستوفر وطسن الأجزاء الخمسة الأولى إلى الإنجليزية (لندن ١٥٦٨) وترجمه إڤلين شوكبرج ترجمة كاملة إلى الإنجليزية لأول مرة (مجلدان لندن ، مكملان ١٨٨٩) . وترجمه و . ر. بافرن أخيراً مع النص اليونانى إلى الإنجليزية (لوب ٦ مجلدات ، كمبردج مطبعة جامعة هارڤارد ١٩٢٢ — ١٩٢٧) .

المؤرخون اليونان الآخرون :

أثر پوليبيوس فى جميع خلفائه ، فيما عدا سترابون فى الغالب الذى ضاع

كتابه فى التاريخ . وما أهدف إليه هو إعطاء فكرة عامة عن نشاطهم دون الوقوف طويلا عند كل واحد منهم .أما المؤرخون الذين يمكن مقارنتهم بپوليبيوس فهم الذين كتبوا باللاتينية (فى القرن التالى) مثل قيصر ، وسالوست وليڤى .

وفى كثير من الأحوال ليست كتابات المؤرخين اليونان الآخرين معروفة إلا على صورة شذرات . ولكى ألقى الضوء على الجهاز النقدى لكتابى سأشير ههنا ببساطة إلى المجموعات العامة للشذرات التى يمكن الرجوع إليها بسهولة .

هناك أولا المجموعة الرائعة المنشورة باليونانية مع ترجمة لا تينية قام بها كارل وتيودور موللر بعنوان :

Fragmenta historicorum graecorum (5 vols, Paris : Firmin Didot, 1848—1872

وقد أسدت هذه المجلدات خدمات لا تحصى للباحثين أكثر من قرن . أما ما جرى عليه العرف حديثاً من الاستخفاف بها فإنه أمر مخجل حقاً . ولما كان الأخوان موللر رائدين فى هذا المضمار فقد تعرض عملهما لكثير من أخطاء الحذف أو الزيادة ، التى يحلو لبعض المتحذلقين الكشف عنها . ولا نزاع فى أن الأخطاء يجب تصحيحها ، ولكن بغير غرور أو جحود للفضل .

وقد بدأ فيلكس باكوبى (١٨٧٦–) إصدار مجموعة جديدة بعنوان :

Die Fragmente der griechischen Historiker (Berlin, Wiedmann, 1923).

وصدر المجلد الثالث ب فى ليدن – للناشر بريل ١٩٥٠ ، بالنص اليونانى فقط .

بوليمون الطروادى وأجاثرخيديس الكنيدى :

كان هذان الرجلان اللذان ازدهرا فى النصف الأول من القرن الثانى ق. م فى بدء أمرهما جغرافيين ، ولكن نظراً لاهتمامهما بالآثار يمكن اعتبارهما مؤرخين.

وهذا صحيح بوجه خاص عن بوليمون بريجيتس الذى كان ينسخ فى الكتابات اليونانية . ولعله كان أول ناسخ للنقوش . [١٣] ارجع إلى ما كتبته عنها فى الفصل ٢٣ .

أبوللودوروس الأثينى :

أپوللودوروس (النصف الثانى من القرن الثانى ق.م) أمضى شطراً من حياته فى الإسكندرية وشطراً آخر فى برجامه . والأرجح أنه تتلمذ فى الإسكندرية على الفيلولوجى المشهور أريستارخوس الساموسراسى (النصف الأول من القرن الثانى ق.م) . وحول منتصف القرن رحل إلى برجامه حيث أهدى إلى أتاللوس الثانى فيلادلفوس (تولى الملك من ١٥٩ – إلى ١٣٩) تاريخاً بالشعر (Chronica) من سقوط طروادة إلى سنة ١٤٤ (ثم زاد فيه إلى ١٩٩) . وقد استقى جزءاً من تاريخه من أراتوستنيس . كان فيلولوجياً وملماً بتاريخ الخرافات ، كما كان مؤرخاً وكتب تعليقات على قدماء الشعراء مثل إيخارموس الكوسى (٥٤٠ – ٤٥٠) ، وسفرون السيراكوزى (ازدهر ٤٦٠ – ٤٢٠) الذى ابتدع ضرباً من الكوميديا (ميموس) ، وأهم من كتب عنه هو هوميروس ، فشرح مثلا أصناف السفن التى تكلم عنها . وأعظم أعماله تاريخ الآلهة (Peri theôn) فى ٢٤ جزءاً ، وهو ضرب من دائرة معارف تبحث فى الميثولوجيا اليونانية . وقد أصبح مثل هذا العمل ضرورياً أكثر من ذى قبل ، لأن المثقفين أمسوا لا يعرفون قصص الآلهة كما كان آباؤهم يعرفونها ، وأسوأ من ذلك أنهم أخذوا لا يعتقدونها وكان أبوللودوروس رواقياً حاول تأويل الخرافات بعبارات معقولة .

لنحذر أن نخلط بين هذا المصنف وبين مصنف غيره كتبه أبوللودوروس آخر بروح مختلفة جدا . أقل معقولية ، وأكثر ميثولوجية على نحو متخصص ، وأبوللودوروس هذا أثينى أيضاً ، أو على أية حال كان يسمى أبوللودوروس الأثينى [١٤] ومصنفه المعروف باسم « مكتبة أبوللودوروس » (Apollodòru bibliothèc) من تأليف متأخر يمكن أن نؤكد أنه بعد الميلاد . ويرجع تاريخه إلى القرون الثلاثة

الأولى ، ومن المحتمل أن يكون فى عهد هادريان (الإمبراطور من ١١٧ إلى ١٣٨) ، وربما تأخر عنه ، أى فى عهد اسكندر سيفيروس (الإمبراطور ٢٢٢—٢٣٥) . ولا يمكن تحديد زمنه بناء على النص ، لأن أحدث الحوادث المشار إليها فيه هو موت أوديسيوس وعودة هيراكليداى (وهى أحداث سابقة على التاريخ ولا يمكن تحديدها زمنياً) . ولا محل هنا «لمكتبة أبوللودورس» بحال ، ولم نعرض له إلا لنستبعد الخلط بينه وبين كتاب أبوللودورس الأقدم عن الآلهة . وقد كان من الناحية العملية مجهولا فى الزمن القديم ، وأول باحث أشار إليه هو فوتيوس (النصف الثانى من القرن التاسع) فى مكتبته الخاصة . أصدره فى طبعته الأولى (باليونانية مع ترجمة لاتينية) ، بنيدكت أيجيوس (Rome : Ant. Bladus, 1555) وأعيد طبعه عدة مرات لأنه لعب بخيال القراء فى عصر النهضة . والرجوع إلى الطبعة الإنجليزية مع الأصل اليونانى ميسور فى مكتبة الدراسات الكلاسية المعروفة باسم «لويب» ، وقد اضطلع بالترجمة جيمس جورج فريزر (مجلدان — ١٩٢١) [١٥] .

بوسيدونيوس (النصف الأول من القرن الثانى ق. م) :

شرع بوسيدونيوس فى سنة ٧٤ يحرر تاريخاً عاماً يعد صلة لتاريخ بوليبيوس ، ويؤرخ للفترة من ١٤٤ إلى ٨٢ . وقد اشتمل ما كتبه على كثير من التفاصيل ، ولكنه كان أقرب إلى السطحية منه إلى العمق ، بمقدار ما تسمح الشذرات الباقية للحكم عليه . وكانت بعض التفاصيل رائعة وغير متوقعة ، مثال ذلك أنه رد التدرج الطبقى عند الكلتيين إلى طوائف ثلاث : الشعراء ، والأنبياء ، والسحرة . وحاول تفسير التحالف الفكرى بين أثينا ، ومتريداتيس ضد روما . وأبقى أعماله ما دونه فى ميدان الجغرافيا .

كان بوسيدونيوس محاضراً شعبياً ومعلماً ناجحاً (جلس تحت قدميه بومبى كما جلس شيشرون) . وفى شهرته كرجل من رجال العلم وزعيم للرواقيين فى رودس ما أضفى عليه جلالا وسلطاناً لا يستحقهما بالفعل . فعده المعجبون به

أعمق فيلسوف فى زمانه ، بل لقد ذهبوا إلى القول بأنه أرسطو جديد . (١٦) ومن الواضح أنه كان عاجزاً كمعظم معاصريه عن التمييز بين الواقع والأمور العجيبة . ولا نستطيع أن ندفع الشعور بأنه واحد ممن بولغ فى تقديرهم ، كما يحدث فى أى مجتمع ، ولكن القدر اليسير الذى وصلنا من مؤلفاته لا يسمح بتحويل هذا الشعور إلى يقين .

وقد نشر فيلكس ياكوبى كل ما وصلنا من الشذرات التاريخية تحت عنوان:

Fragmente der griechischen Historiker, vol. 2 A (1926), pp. 222-317.

كاستور الرودسى (النصف الأول من القرن الأول ق.م.) .

كان كاستور معاصراً لپوسيدونيوس ، ازدهر فترة من الزمن فى رودس ، ولا ندرى من أين جاء إليها . تزوج فتاة من أسرة ديوتاروس التى تولت الحكم لحساب الرومان فى الإقليم الرابع من جالاتيا ، وأدى خدمات لبومپى ، ثم دعى فى بلاط قيصر للشهادة ضد ديوتاروس ، الذى انتقم منه فيما بعد وقتله . كتب كاستور تاريخاً (Chronica) فى ستة أجزاء، وألحق به جداول تاريخية ابتداء من المؤسسين الأسطوريين لبابل ونينوى، وهما بيلوس ونينوس ،حتى سنة ٦١، مما يجعلنا نستنتج أنه لم يمت إلا بعد ذلك التاريخ . والجداول التى أوردها مهمة كجزء من التراث التاريخى الذى وصل إلى المؤرخين المسيحيين ، أمثال يوسيبيوس (النصف الأول من القرن الرابع) ، وإلى مؤرخى العصر الوسيط، وعصرنا هذا .

كان كاستور آخر مؤرخ يونانى فى القرن الثانى . وثمة خمسة آخرون فى القرن الأول يستحقون الذكر ، جاءوا من خمس جهات مختلفة من العالم وهم ديودور الصقلى ، ونيكولاوس الدمشقى ، وديونيسيوس الهلكارناسى ، وسترابون الأماسى ، وجوبا النوميدى .

ديودور الصقلى :

عاش فى النصف الثانى من القرن الأول ، ويسمى الصقلى لأنه ولد فى

أجريون[١٧] حوالى سنة ٨٥ ، ولكنه عاش معظم حياته في روما ، وازدهر فى حكم قيصر وأغسطس حتى سنة ٢١ ق .م أو بعدها . أتم سنة ٣٠ ق.م ، بعد ثلاثين عاماً من السياحة والدراسة، تصنيف كتاب فى تاريخ اليونان جمعه من مقتطفات تاريخية وسماه « المكتبة التاريخية »[١٨] (Historiòn bibliothècè) وكان المفروض أن يستعرض الماضى كله من البدء حتى زمانه . وقسمه ثلاثة أجزاء : ١ ــ قبل حرب طروادة (٦ كتب) . ٢ــ من حرب طروادة إلى موت الإسكندر (١١ كتاباً) . ٣ ــ من ٣٢٣ إلى بداية غزو قيصر لبلاد الغال سنة ٥٨ (٢٣ كتاباً) ، وهو بذلك يشمل أربعين كتاباً ، بقى منها خمسة عشر ، إلى جانب شذرات من الأخرى ، والموجود بالفعل الكتب الخمسة الأولى من الجزء الأول . وسبعة من الجزء الثانى تشمل السنوات من ٤٨٠ إلى ٣٢٣ ، وثلاثة من الجزء الثالث تؤرخ للسنوات من ٣٢٣ إلى ٣٠٢ . كان المشروع بذلك الوضع فسيح الأمل ، لأن ديودور أراد أن يصف نصيب كل أمة ، ولكن وصفه كان خالياً من النقد ضعيف المستوى الفكرى ، فلم يكن لديودور نظرات عامة ، كما كان أسلوبه ضعيفاً كفكره ، ومع ذلك احتفظ بعدد من الوقائع التى عرف أن يسجلها .

ومن الجدير بالملاحظة محاولته فهم الماضى بأسره ، ولعل ذلك يرجع إلى أنه ــ وهو صقلى ــ كان الحياد الدولى أيسر عليه مما لو كان أثينيا أو إسكندريا أو رومانياً . وكانت لغته اليونانية، وإن تعلم اللاتينية فى شبابه. وجدير بالذكر كذلك أن مواقف الماضى الحاسمة فى نظره كانت حرب طروادة وموت الإسكندر ، ولم يكن ذلك اختياراً سيئاً .

نيكولاوس الدمشقى :

نيكولاوس، (النصف الثانى من القرن الأول) : ابن انتيباتروس لا ينقلنا فقط من صقلية وإيطاليا إلى سوريا ، بل من العالم الوثنى إلى البلاط الرومانى اليهودى لهيرود العظيم (ملك يهوذا من ٤٠ إلى ٤ ق.م) . ولد نيكولاوس بدمشق

عام ٦٤ ، وكان أبوه من أغنياء قومه ، يقدر التعليم قدره ، فحرص على أن ينال ابنه منه أوفر نصيب . وأكبر الظن أنه أخذ العلم على أيدى معلمين يونانيين إلى أن تفوق وسمع الملك عن امتيازه . وقد تولى هيرود الملك سنة ٤٠ بفضل أنتونى ، فشجع تحويل دولة يهوذا إلى الثقافتين اليونانية والرومانية ، وأصبح فى حاجة إلى معاونين من اليونانيين فكان نيكولاوس أبرزهم ، أمضى حياته فى خدمة هيرود ، وصحبه مرتين إلى روما خلال السنوات العشر الأخيرات من حكمه (١٤ — ٤) .

كان نيكولاوس أمين سر الملك ، اختص بالأمور السياسية والدبلوماسية ، بل بالفلسفة والتاريخ والتعليم العام . وكانت مهمته أن يشرح سياسة هيرود المناهضة للعرب (أو المناهضة للنبط) لمجلس الشيوخ فى روما ، ولكنه كان يشرح التاريخ لهيرود نفسه . وبعد موت هيرود (سنة ٤ ق.م) حاول نيكولاوس التقاعد غير أنه اضطر إلى الاستمرار فى خدمة أرخلاوس ، ابن هيرود ، ورحل إلى روما للدفاع عنه ، ولكن أغسطس نفى أرخلاوس إلى فينا (على الرون) حيث مات هناك . ولسنا ندرى ماحدث لنيكولاوس نفسه ، وهل أمضى سنواته الأخيرات فى بيت المقدس أم فى روما .

وعمله الأدبى الأساسى هو كتابة تاريخ عام يشبه ديودور ولكنه على نطاق أوسع . وكان يبغى منه تسجيل تاريخ البشرية منذ بدايتها حتى موت هيرود ويقع فى ١٤٤ كتاباً . ولسنا ندرى بالضبط كيف قسم الكتاب . إذ من الطبيعى أن يصبح أدق وأكمل كلما اقترب من عصر المؤلف . ويحكى الكتاب ٩٦ قصة حروب متريداتيس الكبير وحليفه تجراتيس ملك أرمنيا ،[١٩] وهذا يدل على أن بضعة وخمسين كتاباً — أى نحو ثلث الكتاب — كانت تصور حوادث القرن الأول قبل الميلاد . وقد ظفرت سيرة هيرود وتاريخ اليهود بنصيب وافر ، واعتمد عليه مصدراً أساسيًّا المؤرخ يوسيفوس (النصف الثانى من القرن الأول) .

وكتب نيكولاوس كذلك سيرة أغسطس ، وسيرة ذاتية لحياته روى فيها نشأته وتعليمه ، وتصنيفاً عجيباً جمع فيه عادات وتقاليد بضع وخمسين أمة (ethōn

synagôgè وما يؤسف له أن كل مؤلفاته التاريخية ليست معروفة إلا فى هيئة شذرات . وربما كان تصنيفه « الاثنوجرافى » فى غاية الفائدة . وكان مشائيًّا ، وكتب شروحاً على أرسطو لا يؤسف كثيراً على ضياعها . ورسالته فى النبات التى تعد جزءاً من المؤلفات الأرسطية وصفت بإيجاز فى الفصل الحادى والعشرين .

ΔΙΟΔΩΡΟΥ ΤΟΥ ΣΙΚΕΛΙΩ-
ΤΟΥ ΒΙΒΛΙΟΘΗΚΗΣ ΙΣΤΟΡΙΚΗΣ
βίβλοι πεντεκαίδεκα ἐκ τῶν τεσσαράκοντα.

DIODORI SICVLI
Bibliothecæ historicæ libri quindecim
de quadraginta.

Decem ex his quindecim nunquam prius fuerant editi.



ANNO M. D. LIX
EXCVDEBAT HENRICVS STEPHANVS
Illustris viri HVLDRICI FVGGERI typographus.

شكل ٨٨– ديودور الصقلى (النصف الثانى من القرن الأول) . الصفحة الأولى من أصل كتابه فى التاريخ نشره هنرى إتيين (طول الورقة ٣٥ سم ، عدد الصفحات ٨٤٨ ، جنوا ١٥٥٩) ، وأهداه إلى هلدرك فوجر . والنشرة لا تشمل إلا النص اليونانى . وهذا هو أصل الـ ١٥ كتاباً الباقية (من أربعين) . وقد نشر النص اليونانى للكتب ١٦ – ٢٠ فى بال ١٥٣٩ . ولا بد أن كتاب ديودور كله كان ضخماً .

ديونيسيوس الهاليكارناسى :

وفد ديونيسيوس على روما فى نهاية الحروب الأهلية ، وازدهر هناك من سنة ٣٠ تقريباً إلى ٨ ق.م . كان فى أول أمره مدرساً للغة اليونانية وناقداً

أديباً . مهنته معلم فى مدرسة أو مدرس خاص،وهى مهنة طيبة فى ذلك الحين بروما ، لأن كثيراً من الشباب فى روما لم يكن فى استطاعهم الإقامة فى اليونان ، وكانوا إلى ذلك الحين متطلعين إلى معرفة اللغة اليونانية ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا . كانت معظم كتاباته تبحث فى موضوعات أدبية ونحوية ، ولكننا هنا نعرض لكتابه عن بداية التاريخ الرومانى (Rhômaicè archaiologia) الذى أتمه سنة ٨ ق. م ولقد ألف بجو روما تماماً ، وكان غرضه شرح أصول مصيرها وأسباب عظمتها وكتابه الذى كان على الأرجح خطابياً يسجل تاريخ روما منذ إنشائها حتى الحروب البونية الأولى (٢٦٤ — ٢٤١) ، ولكنه مفقود .

ΔΙΟΝΥΣΙΟΥ ΤΟΥ ΑΛΙΚΑΡΝΑΣΣΕΩΣ
ΡΩΜΑΙΚΗΣ ΑΡΧΑΙΟΛΟΓΙΑΣ
ΒΙΒΛΙΑ ΔΕΚΑ.

Dionysii Halicarnassei antiquitatum Romanarum Lib. X.

EX BIBLIOTHECA REGIA.



LVTETIAE
Ex officina Rob. Stephani, Typographi Regii, typis Regiis.
M. D. XLVI.

Ex priuilegio Regis.

شكل ٨٩ — ديونيسيوس الهاليكارناسى (النصف الثانى من القرن الأول ق. م) . أصل كتاب « التاريخ الرومانى القديم » (باريس—روبرت إتين ١٥٤٦—١٥٤٧) — الكتاب فى ورقات طولها ٣٠ سم ، وفى جزأين ضمن مجلد واحد غالباً ٥٤٠+٥٠٠ صفحة .

سترابون الأماسي :

رابع أولئك المؤرخين السابقين على ميلاد المسيح هو سترابون (النصف الثانى من القرن الأول ق.م) الذى كان أعظم مؤرخ بعد پوليبيوس . ويعرف عادة بكتابه فى الجغرافيا الذى يعد من أهم التراث القديم . وتعوزنا الوسائل الكافية للحكم عليه كمؤرخ ، لأن دراساته التاريخية (Historica hypomnèmata) مفقودة، وقد كتبها فى بداية عصر أغسطس وكانت تشمل ٤٧ كتاباً . وبعد تمهيد يسجل التاريخ القديم (الأجزاء الأربعة الأولى) ، يتابع الكتاب تاريخ پوليبيوس[٢٠] ، أى إن معظم الكتاب (من الجزء الخامس إلى السابع والأربعين) يبحث فى فترة قصيرة نسبياً ، من القضاء على قرطاجة سنة ١٤٦ إلى بدء عهد الإمارة سنة ٢٧ ق.م .

وضع كتاب «الجغرافيا» متأخراً وأشار فيه إلى كتابه فى التاريخ بهذه العبارات المتميزة : جملة القول أن كتابى هذا لا بد أن يكون مفيداً بوجه عام — مفيداً على السواء للحاكم والمحكومين من الجمهور الكبير — فائدة كتابى فى التاريخ . فى هذا وذاك لا أعنى « بالسياسى » الرجل العديم التعلم تماماً ، بل ذلك الذى حصل على العلوم المعتاد تدريسها للأحرار أو طلبة الفلسفة . لأن الذى لا يفكر فى الفضيلة والحكمة العملية ، أو يفكر فيما كتب عنهما ، لن يكون قادراً على تكوين رأى سليم ذما أو مدحاً ، بل لن يتمكن من الحكم على الوقائع التاريخية الجديرة بالتسجيل فى هذا الكتاب »[٢١] .

ومن الواضح أن الكتابين قصد بهما صاحبهما الجمهور نفسه ، نعنى المثقفين بوجه عام ، وبخاصة لأجل الحكام والقادة (tus en hyperochais)

وإذا كان لنا أن نحكم عليه من كتابه فى الجغرافيا ، فإن ضياع كتابه فى التاريخ خسارة عظيمة . ولم يكن سترابون خطيباً مثل ديودور وديونيسيوس ، ولا مستشاراً ملكياً مثل نيكولاوس ، بل رجلا فى منزلة پوليبيوس وعبقريته ، مشغوفاً بالعلم ، مستقلا فى الرأى .

جوبا الثانى :

وربما كان من الخير أن نختم هذا القطاع اليونانى بإشارة موجزة إلى مؤرخ يونانى وفد من نوميديا، ولكنه تعلم فى روما . ولما هزم أبوه جوبا الأول ملك نوميديا على يد الرومان سنة ٤٦ ، كان الابن طفلا فى الرابعة من العمر وحمل إلى روما احتفالا بانتصار قيصر. وتلقى الصبى التعليم اليونانى الرومانى الذى يتلقاه أشراف روما،وأصبح مواطناً رومانياً ، وخدم فى جيش أوكتافيوس وسمح له بين حين وآخر بالعودة إلى نوميديا ، ولم ينصبه الرومان سنة ٢٥ ملكاً على نوميديا لوطنه الأصلى ، بل على موريتانيا الواقعة غرب نوميديا[٢٢] .

وكانت كل كتاباته باليونانية وقد فقدت كلها . وكان قد اقتنى مجموعة من الآثار الفنية ، وبخاصة التماثيل ، عثر على بقايا بعضها فى جوليا قيصرية (شيرشيل ، وهى ميناء فى غرب الجزائر) .

المؤرخون اللاتين :

لعلك لاحظت أن هذا القسم لا يحمل عنوان اسم المؤرخين الرومان والسبب فى ذلك أن كل الذين تكلمنا عنهم فى القسم الأول كانوا رومانيين كرجال هذا القسم ، وكان معظمهم دارسين للتاريخ الرومانى . إلا أن أولئك كتبوا باليونانية . على حين كتب هؤلاء باللاتينية . فكانوا حقاً أول من كتب التاريخ اللاتينى . قد يولد المؤلفون اليونان فى أى مكان شرقاً أو غرباً ، ولو أن معظمهم عاش فى روما أو زار تلك المدينة العظيمة مرة أو مرات . وعلى العكس فإن المؤلفين اللاتين كانوا جميعاً من أبناء إيطاليا . وسنتحدث عن ستة منهم مقسمين إلى ثلاث طوائف ، الرواد : إنيوس وكاتو حاكم روما ، ثم قيصر وفارو ، وأخيراً ساللوست وليفى .

إنيوس :

لقب إنيوس Ennius (النصف الأول من القرن الثانى ق.م) يلقب بأبى الشعر الرومانى ، ويمكن أن يلقب كذلك بأبى التاريخ الرومانى . حقاً كتب

مؤرخان آخران فابيوس بكتور وكنكيوس أليمانتوس حوليات عن روما قبل إنيوس ، ولكنهما كتبا باليونانية ؛ وكلاهما توقف عن السرد عند الحرب البونية الثانية (٢١٨ — ٢٠١) .

كان إينوس من أبناء كالا بريا حيث تلقى تعليماً يونانياً، غير أنه تعلم اللاتينية فى الجيش الرومانى (إن لم يكن قبل ذلك) . وكان قائد الجيش الرومانى فى سردينيا سنة ٢٠٤ ، واستدعاه كاتو الرقيب من هناك إلى روما . وقد كتب حولياته (Annalium libri XVIII) شعراً باللاتينية .

بدأت القصيدة بأينياس* وامتدت إلى ما يقرب من سنة ١٨١ ق.م، أى إنها امتدت اثنى عشر عاماً من وفاته . والقصيدة أدنى أن تكون ملحمة من أن تكون تاريخاً علمياً . وأشعاره على العموم مهلهلة دارجة وإن تكن فخمة أحياناً . مارس الخدمة فى الحروب البونية الثانية تحت قيادة سكيبو الإفريقى ؛ والأجزاء الخمسة عشر الأولى تنتهى بهذه الفترة . ولقيت حولياته من النجاح ما حفزه أن يضيف الأجزاء الثلاثة التالية فى هيئة ملاحق سنوية ، مما قضى على وحدة المصنف بأسره ، وإن أرضى نزعة القراء الوطنية واجتذب اهتمامهم .

لقد خلفت « حوليات » إينوس موضوعاً كبيراً وأعدت جمهوراً ذواقة لأنياد ڤرجيل .

كاتو الرقيب :

أول مؤرخ رومانى كتب بالنثر اللاتينى هو كاتو (النصف الأول من القرن الثانى ق.م) ويعرف مؤلفه الأساسى فى التاريخ (وهو مفقود بعنوان « الأصول ») (Origines) قسمه إلى ثلاثة كتب ؛ اختص الأول منها بأصول حرب طروادة وإينياس (Aeneas) وتأسيس روما (٧٥٣) وعصر الملوك (إلى ٥١٠) . أما الكتابان الثانى والثالث فقد عرضا لأصول الجماعات

* أسير طروادى اتخذه ڤرجيل بطلا للإنياد ، تزوج ابنة ملك إيطالى وعد أصلا طروادياً للرومان .

الإيطالية الأخرى وإنشاء المدن الإيطالية[٢٣] . ثم أضاف بعد ذلك أربعة كتب تمضى بالقصة حتى عام وفاته (١٤٩) ، أو ربما كانت هذه الكتب الأربعة التى كتبها فى شيخوخته قد أضيفت إلى « الأصول » فى طبعة متأخرة . ويقال بوجه عام إن كتاب « الأصول » مقسم إلى سبعة كتب ، ولكن العنوان لا يلائم تماماً الكتب من الرابع إلى السابع . وتشمل تلك الكتب المحتويات الآتية :

الرابع : الحرب البونية الأولى والحرب الثانية حتى ٢١٦[٢٤]

الخامس : الحروب المقدونية وشئون رودس . ذلك أن رودس وبرجامه استدرجا روما إلى الدخول فى السياسة الشرقية سنة ٢٠١ . وكانت رودس حليفة روما ثم انفصلت عنها فى الحرب المقدونية الثالثة (١٧١–١٦٧) ، مما أدى إلى أزمة عنيفة سنة ١٦٧ انتهت بسقوط رودس سياسياً .

السادس: الحرب ضد أنطيوكس الثالث العظيم ملك سوريا (٢٢٣–١٨٧)

السابع : الحروب الإسبانية مع تأكيد خاص على محاكمة سرفيكيوس سولبيكيوس جالبا ، حاكم هسبانيا العليا (١٥١ – ١٥٠) ، الذى اتهم بأنه تسبب فى إبادة اللوزيتانيين برغم طلبهم السلم . وقد أيد كاتو سنة ١٤٩ اتهامه ومحاكمته ، ولكنه برىء .

ومن الواضح أن الكتب من الرابع إلى السابع شديدة الاختلاف عن الكتب من الأول إلى الثالث . وقد بدأ كاتو كتابه وفى ذهنه تفسير الأصول التى اعتمدت عليها قوة روما وعظمتها ، وتصور أن يكون ذلك على هيئة ضرب من التمهيد لتاريخ عام . ولم تكن عنايته منصرفة إلى بلاد إيطاليا فقط ، بل إلى الليجوريين ،[٢٥] والكلت ، والإسبان ، ولم يعن بماضى روما وحاضرها فقط ، بل بمستقبلها كذلك الذى كان لا يزال فى ضمير الغيب . وبمقدار ما نستطيع أن نحكم فى ضوء الشذرات الباقية لم يكن كاتو مهتماً بالحروب والسياسة فقط ، بل بالجغرافيا ، والطقس ، والزراعة ، والتعدين ، والشئون الاقتصادية وضروبها المختلفة .

كانت وجهة نظره الأساسية سياسية ، وهى تفسير قيام روما بواجباتها الإمبريالية ، وكيف لا تزال قائمة عليها . ولقد كان معداً أحسن الإعداد لهذا العمل بسبب طول خبرته كجندى وحاكم . فقد حارب وهو شاب فى الحرب البونية الثانية (٢١٨ — ٢٠١) ، وسعى جهده لإثارة الحرب الثالثة التى بدأت فى السنة التى توفى فيها . وكان صاحب الخراج فى صقلية سنة ٢٠٤ ، ثم عاد إلى الوطن عن طريق سردينيا مصطحباً معه إنيوس .[٢٦] وتولى الإشراف على أجران القمح لحساب الشعب سنة ١٩٩ ، وأصبح حاكم سردينيا ١٩٨ ، وقنصلا سنة ١٩٥ ، وعضواً بالشيوخ ، وهكذا ، ولم تنته خدماته العامة إلا بانتهاء حياته سنة ٨٥ ، فلا غرو أن يكون على معرفة شخصية بكل مظهر من مظاهر السياسة والإدارة فى روما . وكان إلى ذلك ديمقراطياً يزدرى ترف كبار الملاك وعبثهم ، مغرماً بامتداح الجمهور العادى ، والجند ، بل الفيل سوروس أكثر مما يمتدح القواد والحكام .

وفى الكتب من الخامس إلى السابع استفاد كاتو من تجاربه الشخصية فى وصف الحوادث ، وأضاف أحياناً خطبه التى ألقاها ، وهى خطب أصيلة ولكنها لا تمت إلى الموضوع بصلة . وكان كاتو متحيزاً ولكنه أمين ، ولم يكن أسلوبه خطابياً بل تقريريا . وكتابه فى التاريخ على الرغم من تحزبه إلى جانب واحد استقاه من مصادر جيدة ، ويعد ضياعه (فيما عدا بعض الشذرات) خسارة لا تعوض .

قيصر :

ظهر بعد قرن من وفاة كاتو مؤرخ آخر أعظم منه إلى حد بعيد ، فهو أعظم رجل ، وكاتب ، بل ومن كل وجه ، إنه أحد الأبطال البارزين فى سائر التاريخ القديم . كان قيصر (النصف الأول من القرن الأول ق.م) فى ابتداء أمره حاكماً وسياسياً ، ثم أصبح قائداً ، وبرزت عبقريته الحربية فى وقت متأخر نسبياً من حياته . فهو عندما بدأ معاركه فى بلاد الجال ، كان أكبر سناً من الإسكندر عند وفاته ، ويكاد يكون فى سن نابليون عند

هزيمته .[٢٧] وبوجه ما لم تبدأ حياته الأدبية إلا فى وقت متأخر عن ذلك رغماً عن أنه كان بالفطرة من رجال الأدب .

ولم يبق من كتاباته إلا « التعليقات »، وهى ذكريات عن معاركه الحربية ، وقد فتحت الباب لطراز أدبى جديد ، وستظل نماذج لهذا النوع .[٢٨] إن الرجال الذين تسنح لهم فرصة القيام بأعمال حربية عظيمة قليل ، وقليل من هذه القلة لهم القدرة الأدبية على تصويرها[٢٩] .

وتشتمل « التعليقات » على مصنفين منفصلين هما حرب الجال (De bello Gallico) ويقع فى سبعة كتب يؤرخ كل منها لحوادث سنة من سنوات ٥٨ — ٥٢ .[٣٠] ثم الحرب الأهلية (De bello civili) ٤٩ — ٤٥ ، فى ثلاثة كتب .

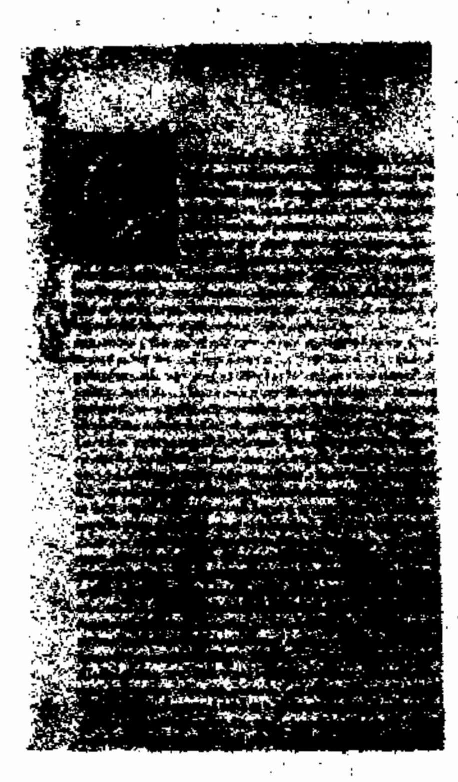
وتعد « التعليقات » مصدرنا الأساسى للحوادث المروية ، وهى تصفها وصفاً بارعاً ، لأن قيصر يشرح معاركه ببساطة ووضوح تامين . ولما كان قيصر كاتباً مطبوعاً ، كما كان قائداً مفطوراً ، فلا غرو أن تكون « التعليقات » احد روائع الأدب التاريخى .

ڤارو :

قتل قيصر وهو فى سن ٥٦ ، أما ڤارو (النصف الثانى من القرن الأول ق.م) فقد قدر له أن يعيش حتى بلغ ٨٩ عاماً ، وهكذا برغم أنه كان أكبر من قيصر بستة عشر عاماً فإنه عاش بعده سبعة عشر عاماً ؛ مما جعله يبدو وكأنه ينتمى لجيل متأخر . وبينما أصبح قيصر مؤلفاً بحكم الظروف (كان لا بد أن يبرر أعماله الماثلة) ، كان ڤارو مصنف كتب بوحى من نفسه .

وكتبه كلها — فيما عدا الزراعية — قصد بها أن تكون تاريخية ، فقد أراد أن يبين أصل المؤسسات ونموها ، وسيرة عظماء الرجال . وأكبر الظن أن مرتبته فى التاريخ كانت أقل من مرتبته كأديب مولع بالموضوعات التاريخية . ومن جهة أخرى كان قيصر أكثر من مؤرخ بالمعنى التقليدى ، فهو الممثل

الرئيسي وأفضل شاهد للحوادث التي يصفها . وليست كتبه تاريخاً بمقدار ما هي وثائق من الدرجة الأولى يستخدمها المؤرخون . أو كما يقول الفرنسيون « مذكرات تخدم التاريخ » (Mémoires pour servir à l'histoire) . وبعد فإن التباين بين الكتابين لا يمكن أن يكون أكبر مما نقول : كان قيصر على رأس سائر المؤرخين ، وتخلف فارو عنهم بمسافة طويلة .



شكل ٩٠ — قيصر (النصف الأول من القرن الأول ق . م) أصل كتاب « التعليقات » أعدها جيوفاني أندريا البوسي ، أسقف اليريا (فى كورسيكا) وكان ناشراً نشيطاً جداً النصوص اللاتينية القديمة Rome : Sweynheym and Pannartz, 12 . May 1469)

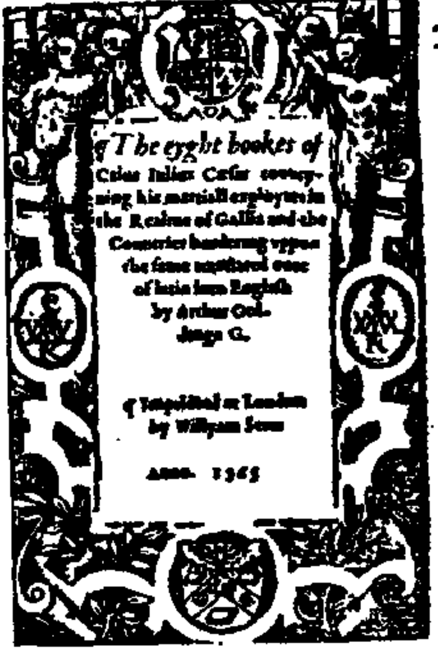
C. IVLII CAESARIS COMMEN TARIORVM DE BELLO GALLICO LIBER PRIMVS.

G ALLIA EST OMNIS DI
uisa in partes tres, quarũ unam
incolunt Belgæ, aliam Aquitani,
tertiam qui ipsorum lingua Celtæ,
nostra Galli appellantur. Hi o-
mnes lingua, institutis, legibus in-
ter se differunt. Gallos ab Aquitanis Garumna flu-
men, à Belgis Matrona, & Sequana diuidit. Horum o-
mnium fortissimi sunt Belgæ, propterea quod à cultu,
atq; humanitate prouinciæ lõgissime absunt, minimeq;
ad eos mercatores sæpe commeant, atq; ea, quæ ad effœ
minandos animos pertinẽt, important, proximiq; sunt
Germanis, qui trans Rhenum incolunt, quibus cum con-
tinenter bellum gerunt. Qua de caussa Heluetij quoq;
reliquos Gallos uirtute præcedunt, quod ferè quotidia-
nis prœlijs cum Germanis contendunt, cum aut suis fi-
nibus eos prohibent, aut ipsi in eorum finibus bellum
gerunt. Eorũ una pars, quam Gallos obtinere dictum
est, initium capit à flumine Rhodano, continetur Ga
rumna flumine, Oceano, finibus Belgarum, attingit
etiam à Sequanis, & Heluetijs flumen Rhenum, uer-
git ad septentriones. Belgæ ab extremis Galliæ finibus
oriuntur, pertinent ad inferiorem partẽ fluminis Rhe-
ni, spectant in septentriones, et orientem solem. Aquita
nia à Garumna flumine ad Pyrenæos montes, & eã

شكل ٩١ — قيصر . نشرة عجيبة جداً لكتاب «التعليقات» قام بها فرا جيوكوندو Fra Giocondo (16 cm. Aldus : Venice, 1513) وفيها حفر على الخشب . وهذه صورة الصفحة الأولى من «حرب الغالة» De bello gallico وفي مكان آخر (شكل ٧٣) جزء من القنطرة التي بناها قيصر على الراين .

وأعلى كتبه التاريخية شأناً رسالته عن الآثار القديمة الدنيوية والمقدسة فى ٤١ كتاباً Antiquitatum rerum humanarum et divinarum libri XLI كتبه سنة ٤٧ . وكثير من الشذرات الباقية تيسر لنا إعادة ترتيبه ، ذلك الترتيب الذى كان فى غاية الأصالة والتماثل . قسم الكتاب إلى جزأين رئيسيين : الآثار الدنيوية (٢٥ كتاباً) والآثار المقدسة (١٦ كتاباً) . وقسم الأول إلى أقسام فرعية هى (٦ + ٤) × ١ ، والثانى إلى (٣ × ٥) + ١ . ولنشرع فى فحص هذه الكتب فحصاً أقرب .

ينقسم كلامه عن الآثار الدنيوية إلى أربعة قطاعات يمكن تسميتها : الناس ، الأماكن ، الأزمنة ، الأشياء (وهى جواب عن الأسئلة : من ؟ أين ؟



The eyght bookes of
Caius Iulius Cesar

THE FIRST BOOKE
of Caius Iulius Cesars Commentaries of the warres in Gallia.

شكل ٩٢ — الطبعة الإنجليزية الأولى لقيصر ، ترجمة آرثر جولدنج (مجلد صغير سميك ، طول الورقة ١٢٫٥ سم ، لندن ، وليم سيريس ، ١٥٦٥) . والنشرة مهداة إلى سير وليم سيسيل السكرتير الأول لملكة اليزابيث . وهذه صورة صفحة العنوان ، والصفحة الأولى من الكتاب الأول لحرب الغال (النص اللاتينى فى شكل ٩١) .

متى ؟ ما ؟) وكل قطاع ينقسم قسمة فرعية إلى ستة كتب . والكتاب الأول مقدمة عامة للمصنف كله . والكتب من الثانى إلى السابع تبحث فى الرجال من أينياس ومن جاء بعده ، وهم الذين لعبا أدواراً فى التاريخ الرومانى . والكتب من الثامن إلى الثالث عشر تبحث فى الأماكن ، وهو عبارة عن نوع من الجغرافيا التاريخية لإيطاليا . والكتب من الرابع عشر إلى التاسع عشر تبحث فى التاريخ الرومانى . والكتب من العشرين إلى السادس والعشرين فى الأشياء والمؤسسات (توجد شذرات قليلة جدا من هذا القطاع الأخير) .

الجزء الثانى وهو الآثار المقدسة متماثل كذلك ولو أن النموذج مختلف : الكتاب الأول مقدمة يتبعه أربعة قطاعات تبحث فى الرجال والأماكن والأزمنة والأشياء (المقدسة) . فالكتب من الثانى إلى الرابع تتحدث عن ثلاثة أصناف من البشر المقدسين ، وهم : الكهنة ، والعرافون ، والرجال الخمسة عشر (quindecimviri)[٣١] وتعالج الكتب من الخامس إلى السابع ثلاثة أصناف من الأماكن المقدسة هى المذابح الخاصة ، والمعابد ، والهياكل الأخرى . وتعالج الكتب من الثامن إلى العاشر ثلاثة أنواع من الأوقات المقدسة هى الأعياد ، وأيام السيرك ، وأيام التمثيل . والكتب من الحادى عشر إلى الثالث عشر تبحث فى أنواع ثلاثة من الأشياء المقدسة وهى : التقديس ، والقرابين الخاصة والعامة . واختص قطاع خامس (الكتب من الرابع عشر إلى السادس عشر) ببحث ثلاثة أصناف من الآلهة ، وهى الآلهة اليقينية ، والآلهة غير اليقينية (الأجنبية) والآلهة الرئيسية أو المختارة .

وقد تكشف غرام ڤارو بالتصنيف أو التجميع المتماثل فى كتب أخرى ، أهمها : كتاب « السبعيات » (Hebdomades) ، ويمكن أن يتتبع هذا الغرام ليرد إلى أصول فيثاغورية وما وراءها من أصول شرقية ،[٣٢] وكتابه « الآثار » يكاد يكون قد بنى على نظام شبيه بمعبد يونانى . ولكنى أعتقد أن هذا البناء الأدبى إنما كان من ابتكاره هو . ومهما يكن فلست أعرف أى كتاب يونانى صنف بهذه الطريقة .

ومن الواضح كذلك أن مؤلف ڤارو « الآثار » كان زاخراً بالمعطيات التاريخية ، ومع ذلك كان بعيداً جداً من أن يكون كتاباً فى التاريخ على الطريقة التقليدية .

وله كتابان تاريخيان آخران أحدهما بعنوان De gente populi Romani أى « تاريخ الأسرة الرومانية » ، أو الجنس السيد ، والآخر De vita populi Romani أى تاريخ الشعب الرومانى ، والمفروض أنه يبحث فى التاريخ الاجتماعى للشعب الرومانى ويتضمن نوعاً من فلسفة التاريخ . وعندما كتب هذا الكتاب قبل تولية أغسطس أول إمبراطور ، تبين ڤارو أن تطور الشعب الرومانى كان أشبه بكائن حى ينتقل من الطفولة إلى الشباب ، ومن التضج إلى الشيخوخة . وهذا ضرب من التصور الدورى شبيه ، بطريقة متواضعة ، بالدورات التاريخية الأكثر تعقيداً عند أزوالد شبنجلر (١٨٨٠ — ١٩٣٦) وأرنولد توينبي (١٨٨٩ —)

ولعل من الأوفق أن نعد ڤارو رجلا مثقفاً ، بدلا من أن نسميه مؤرخاً والحق أنه كان أعظم باحث فى أمته . وكانت كتبه تستخدم طوال عهد الإمبراطورية الرومانية بما فى ذلك عصر تدهورها ، كما تستخدم اليوم القواميس أو دوائر المعارف . نعم إن وسائلنا أفضل بدرجة لا حد لها ، ولكن علينا أن نتذكر أن وسائل ڤارو ، وإن تكن بدائية وناقصة ، تعد الأولى من نوعها وكلما رجعت إلى دائرة معارف مثل "PW" ، أشكر مؤلفيها شكراً جزيلا دون أن أنسى من سبقوهم حتى زمن ڤارو ومن قبله من اليونان والرومان . إن شكرى يشملهم جميعاً ، والفضل للمتقدم .

بقيت كمة أخرى فى مدح ڤارو ، إذ من الغبن الشديد أن نعتبره مجرد جماع لما كتبه المتقدمون . فقد كان إلى حد ما فيلسوفاً أو على الأقل مفكراً حاول أن يفهم ويفسر أصل الظواهر الاجتماعية وتطورها . مثال ذلك محاولته تبرير شعائر الديانة الرومانية بصرف النظر عما فيها من ميثولوجيا أصبحت مما يصعب اعتقاده . وقد ميز ثلاثة أنواع من الدين . ديانة الشعراء ؛ وديانة الدولة

وديانة الفلاسفة ، وكان هو نفسه يؤثر النوع الأخير . وعلى الرغم من أن جوهر معلوماته كان بالضرورة من أصل يونانى ، إلا أنه حاول أن يضيف إليها من المعلومات الرومانية بمقدار ما يستطيع ، وأن يفسر الأمور اليونانية بلغة رومانية وبالعكس . كان هدفه الأساسى النهوض بالمؤسسات الرومانية أو تسويغها ، وكان مقتنعاً أن الدين هو السبب الرئيسى فى الطهر والقوة والوحدة . ومن أجل ذلك كتب « الآثار » ، وقد اعترف شيشرون بقيمته ، وصور ذلك فى عبارة سامية فقال :

« كنا هائمين على وجوهنا كأغراب يزورون مدينتنا ذاتها ، حتى قادتنا كتبك — إن صح هذا القول — إلى قلب الوطن ، ويسرت لنا أخيراً أن نتبين من نكون وأين نوجد . فقد كشفت لنا عن عمر مدينتنا ، وأحداث تاريخها وقوانين دياناتها وهيئة كهنتها ، ومؤسساتها المدنية والحربية ، ومواضع أحيائها وأسوارها . وكشفت لنا عن مصطلحات المؤسسات الدينية والمدنية ، وأصنافها ، وأساسها الأخلاقى والعقلى . وألقيت أضواء ساطعة على شعرائنا ، وبوجه عام على الأدب اللاتينى واللغة اللاتينية . وألفت شعراً بديعاً بأساليب متعددة وفى جميع البحور ، ولخصت من الفلسفة فى فروعها المتعددة ما يكفى أن يحرك همة طالب البحث ، وإن لم يكف لاستكمال تعليمه[٣٣] » .

سالوست :

أصغر مؤرخى الجمهورية وهو جايوس ساللوستيوس كريسپوس (النصف الثانى من القرن الأول ق . م) . ولد بعد ڤارو بثلاثين عاماً ، سنة ٨٦ ، بأميترنوم[٣٤] (Amiternum) وهو من أصل شعبى ، وأصبح عضواً بالشيوخ ، ولكنه طرد من المجلس سنة ٥٠ بسبب الخلود (؟) . عينه قيصر سنة ٤٩ وزيراً للمالية ، وحصل على ثروة كافية يسرت له شراء ضيعة لطيفة وتنظيم بساتين جميلة . كتب مؤلفاته الأساسية حول سنة ٤٣ — ٣٩ ، وتوفى سنة ٣٤ ق . م .

ويشوب حياته كثير من الغموض ، فهو سياسى ، ومدافع عن حزب

الشعب ، وكان عرضة لاتهامات مرجعها وشايات فى الغالب . لم يجر مع الأوهام ، وكان أقرب إلى التشاؤم ، واتخذ من ثوكيديديس وكاتو نماذج له .

لم يحاول كما فعل كاتو وڤارو أن يؤرخ لميدان واسع ، بل على العكس آثر مايمكن أن يسمى دراسات مفصلة لفترة محدودة . وأكبر كتبه ، فى التاريخ (Historiae) ، ويقع فى خمسة كتب ، ويشمل فترة تبلغ اثنى عشر عاماً (٧٨ — ٦٦) . وكتاباه الآخران أكثر تحديداً . فكتاب الحرب الكاتيلينية (De bello Catilinae) يصف مؤامرة كاتيلينا أثناء قنصلية شيشرون سنة ٦٣ ، ويمكن تسميته « نشرة سياسية » . وكتاب الحرب اليوجورتية (De bello Jugurthino) يصف فيه حروب روما (١١٢—١٠٥) ضد يوجورتا ملك نوميديا .

وقد حاول محاكاة ثوكيديديس فى حياده ، ولكنه كان شديد الانغماس فى السياسة فلم يسلم من التحيز . وكان أكثر نجاحاً فى محاكاة أسلوب ثوكيديديس. إن كتاباته تحليل مشرق للحوادث السياسية . وهى أول النماذج من هذا القبيل فى عالم الأدب .

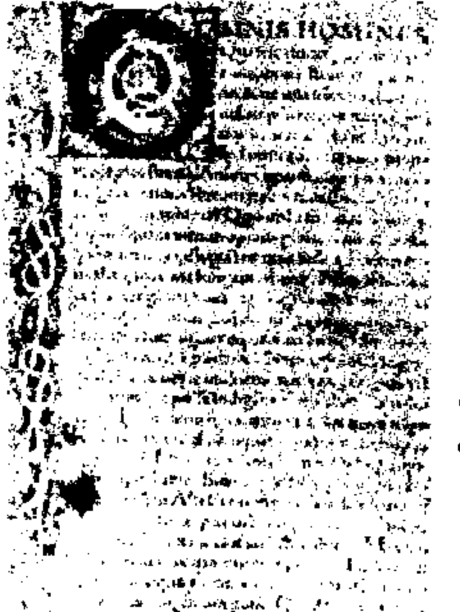
ليڤى :

ليس ثمة إلا مؤرخ واحد أثناء العصر الأغسطى ، غير أنه كان أشهر كل المؤرخين اللاتين ، ذلك هو تيتوس ليفيوس[٣٥] (النصف الثانى من القرن الأول ق.م) الذى ولد سنة ٥٩ فى باتڤيوم (بادوا) أهم مدن شمال إيطاليا فى ذلك الحين[٣٦] كان ينتمى إلى أسرة شريفة ، واشتهر لامتيازه فى الخطابة وتأليف محاورات فلسفية . مما هيأ له مكاناً فى بلاط أغسطس الذى كان فى حاجة إلى مؤرخ ، وسرعان ما قدرت مواهبه . والأرجح أنه رحل إلى بلاد أخرى ، وإن كنا لا ندرى أين ولا متى . أنفق معظم حياته فى روما وفى مدينته التى نشأ فيها حيث توفى سنة ١٧ ب.م[٣٧].

لم يؤلف إلا كتاباً واحداً ، ولكنه كتاب ضخم انقطع لتأليفه طوال حياته الناضجة . وهوعبارة عن تاريخ كامل لروما منذ البداية ab urbe condita

libri (أى منذ تأسيسها) حتى زمانه . أتم الجزء الأول سنة ٢٨ حين كان فى الواحدة والثلاثين ، وظل يتابع تأليفه حتى آخر حياته التى امتدت إلى الخامسة والسبعين .

لا يقل ما اشتمل عليه الكتاب كله عن ١٤٢ جزءاً .[٣٨] ويظهر أنه استمر باقيا كامل الأجزاء حتى آخر القرن الرابع الميلادى . وفقد معظمه أثناء العصور المظلمة السابقة على مولد العصر الوسيط ، ولم يصلنا إلا ٣٥ جزءاً من الأول إلى العاشر (من اينياس حتى سنة ٢٣١) ، ومن ٢١ إلى ٣٠ (الحرب البونية الثانية ٢١٨ —٢٠١) ومن٣١ إلى ٣٥ (فتوحات روما الأخرى حتى١٦٧) يضاف إلى ذلك عدد من الشذرات أو الملخصات القديمة .



شكل ٩٣ — ساللوستيوس (النصف الثانى من القرن الأول ق. م) . أصل كتاب حرب كاتيلينا وحرب يوجورتا . فنسيا : فنديلينوس دى سبيرا ١٤٧٠ .

استهدف ليڤى من عمله البناء وخدمة الأمة والدفاع عن الوطن . ولما كان تحت رعاية أغسطس ، فقد كان المؤرخ الرسمى للإمبراطورية . حقاً لم يحمل مثل هذا اللقب ، ولكن مركزه كان شبيهاً بمركز كتاب التاريخ الذين ألحقوا بين حين وآخر ببلاط الملوك فى أوربا . وكانت الأوراق الرسمية فى متناول يده بما فيها مذكرات أغسطس مما جعله على علم ما أمكن بوجهة نظر الحكومة . كان فى استطاعته أن يستخدم ، بل لقد استخدم بالفعل الكتب التى صدرت من قبل لا فى اللاتينية[٤٠] فقط ، بل فى اليونانية (وبوجه خاص پوليبيوس وپوسيدونيوس) . ونحن نعرف ذلك من الموازنة بين النصوص ، لأنه لم يكن يذكر عادة مصادره . ولم يتول أى منصب ، ولم تكن له معرفة فنية بالإدارة ، أو فن الحرب ، أو حتى كتابة التاريخ . ولم يكن يهتم كثيراً بالوثائق والنقوش . كان رجلا حسن الطوية أميناً ، وكانت نظرته هى النظرة التقليدية لطبقته وبيئته .

ومما يجدر ذكره أنه على الرغم من تحيزه لأغسطس ، فإن عصر روما الذهبى فى نظره هو عصر كاتو أو الحلقة السبيونية ، لا عصره هو ، وفى ذلك يتفق مع فارو . فقد بلغت مساوئ الحرب الوطنية وما ترتب عليها من كوارث من الخطر ما جعل ليڤى يولى ظهره لها ويلتمس الراحة فى رؤية أوقات الشجاعة فى الزمن القديم (هكذا يحدثنا فى مقدمته) .

كانت مهمته شبيهة بمهمة ڤرجيل[٤١] ، ولكن بطريقة مختلفة — الدفاع عن شرف روما وعظمتها . وهى مهمة إلى حد كبير أدبية . فلم يكن واجبه أن يحكى الرواية الرسمية للحوادث فقط ، بل أن يرويها بأفصح لسان ، الطقوس والخطابة الذى يستخدمه أفضل القوم .

هذا التصور للتاريخ كان بعيداً عن ذهن هيرودوت أو ثوكيديديس ، أو حتى پوليبيوس ، ومع ذلك فقد اعتبر تاريخ ليڤى أبرز عمل من نوعه مادامت الصدارة الرومانية باقية ، والمثل الأعلى للنزعة الإنسانية فى عصر النهضة قائماً .
ظل التراث الليڤى مستمراً كالتراث الڤرجيلى ، لأن كلا المؤلفين سارا معاً

فى الطريق إلى الخلود، ولكن كتاب ليفى كان أكثر تعرضاً للضياع بسبب ضخامة حجمه . وكان من الممكن الحصول على نسخة خطية كاملة فى القرن الرابع . وصفحات مخطوطة ڤيرونا من الجزئين الثالث والرابع ترجع إلى ذلك التاريخ. وقد اكتشفت بردية من القرن الثالث فى أوكسرنخس سنة ١٩٠٣ ، وتحتوى على اقتباسات من الأجزاء ٤٨ ـــ ٥٥ . لقد فقد جزء كبير من النص فى أثناء فترة الاضطراب الواقعة بين التاريخ القديم والوسيط .

شكل ٩٤ – تيتوس ليفيوس (النصف الثانى من القرن الأول ق . م) أصل كتاب « تاريخ العقود الرومانية » Historiae Romanae decades (Rome : Sweynheym and Pannartz, 1469). نشر النص جيوفانى أندريا دى بوسى أسقف ألريا (فى كورسيكا) الإهداء إلى البابا بولس الثانى (١٤٦٤ – ١٤٧١) . وكان هذا البابا راعياً الباحثين ومن المرجح أنه كان المسئول عن إدخال الطباعة فى روما .

بلغ الكتاب من الضخامة أنه قسم أولا إلى عقود ، وكل عقد إلى « تقاليد » وهذا يجعل دراسة المخطوط أعقد . وإلى جانب مخطوط ڤيرونا الذى يرجع إلى القرن الرابع يوجد عدد من المخطوطات من القرن التاسع إلى الثالث عشر .

نشر الأصل جيوڤانى أندريا أسقف ألريا Aleria[٤٢] ، وقام بطبعه سوينهايم وبنارتز (روما ١٤٦٩) (انظر شكل ٩٤) . وتوجد على الأقل عشر طبعات قبل سنة ١٥٠١. ومن الطبعات المتأخرة تلك التى قام بها أسولانوس

(٥ مجلدات : فنسيا ، ألدوس، ١٥١٨ — ١٥٣٣) . وأول طبعة « حديثة » هى طبعة فردريش جرونوفيوس (٣ مجلدات ، ليدن ، الزفير ١٦٧٨ — أمستردام الزفير ١٦٧٨) . ثم الطبعات النقدية ليوحنا نقولاى مادفج ويوحنا لويس أوسنج (كوبنهاجن ١٨٦٥) ووليم فيسنبورن (٩ مجلدات ، برلين ، ١٨٦٧ — ١٨٧٩) وراجعها موريتيوس موللر (٦ مجلدات ليبزج ، تيبنر ١٩١٠—١٩١١) . وقد أعيد نشر هذه الطبعات النقدية أكثر من مرة . وهنالك طبعات أخرى كثيرة لكل المؤلفات الباقية ، وطبعات متعددة لعقود أوكتب أو مختارات على حدتها . وأقدم ترجمة إنجليزية هى تلك التى قام بها فيلمون هولاند (لندن ١٦٠٠) انظر شكل ٩٥ .

والطبعة اللاتينية مع الترجمة الإنجليزية ميسرة جداً ، أعدها بنيامين أوليفر فوستر (١٣ مجلداً ، مكتبة لوب الكلاسيكية ، ١٩١٩ — ١٩٥١) .



شكل ٩٥ — أول ترجمة إنجليزية لكتاب ليڤ قام بها فيلمون هولاند (لندن، طبع آدم اسيلب ، ١٦٠٠) . وتشمل هذه الطبعة ترجمة تلخيص عن ليڤ ومؤرخين رومانيين آخرين ، قام به ل . فلورس فى النصف الأول من القرن الثانى . وكان ذلك التلخيص كتاباً مدرسياً شائعاً فى القرن السابع عشر . والكتاب المطبوع ضخم ذو أوراق سميكة (٣٢ سم، ١٤٠٣ صفحة+ فهرست) الإهداء إلى وأرفع وأقوى ملكة . إليزابيث...» ويشغل نص ليڤ ١٢٢٣ صفحة مطبوعة ، يليها ترجمة فلورس (من صفحة ١٢٢٤ إلى ١٢٦٤) ، ثم تاريخ متقن من زمن رومولوس إلى سنة ٩ ق . م (من صفحة ١٢٦٥ إلى ١٣٤٥) ، ثم رسم روما القديمة (من صفحة ١٣٤٦ إلى ١٤٠٣) ثم فهرست متقن، ومعجم . وكان الهدف من الكتاب أن يكون نوعاً من دائرة المعارف لتاريخ روما قبل المسيحية .

تعليقات

(١) هذا الفصل تكملة للقصة التي رويت في الفصل الثاني عشر ، عن معرفة الماضي في القرن الثالث ق . م .

(٢) اعتبر الأركاديون على مر الزمن أحسن من يمثل فضائل الرعاة ، وقد سجل ڤرجيل هذه الشهرة .
انظر Arcades Amabo أي كلاهما أركاديان . وكلاهما ماهر في موسيقى الرعاة) وذلك في Eclogae, VII, 4 لڤرجيل .

(٣) فيلوبويمين (٢٥٣ — ١٨٣) أدرك الحاجة إلى القوة للدفاع عن استقلال أركاديا ، وابتدع وسائل الدفاع عنها ، وكان قائداً ممتازاً ، وأصبح سنة ٢٠٨ رئيس الحلف الآخي . سجنه الميسينيون سنة ١٨٣ ، وأعدموه .

(٤) وقعت منها أربع حروب : ٢١٥ — ٢٠٥ ، ٢٠٠ — ١٩٦ ، ١٧١ — ١٦٨ ، ١٤٩ — ١٤٨ . وفي سنة ١٤٨ أصبحت مقدونيا إقليماً رومانياً . وفي سنة ١٤٦ مزق القنصل لوسيوس موميوس أوصال الحلف الآخي ، ودمر كورنثة تماماً ونقل ثروتها إلى روما .

(٥) پندا Pyndu ملاصقة جداً الشاطئ الشمالي لخليج ثرما (بين مقدونيا وشبه جزيرة خلقيديقية) .

(٦) هذا هو أفريكانوس الثاني من أسرة سيكيپيو العظيمة . أما الأول ، سكيپيو أفريكانوس الكبير (٢٣٦ — ١٨٤) فهو الذي هزم هانيبال في موقعة زاما سنة ٢٠٢ . وكانت الألقاب من مثل أفريكانوس أسباتيكوس ، أخايكوس ، مكدونيكوس ، تمنح لقادة روما تمجيداً لانتصاراتهم . قارن ذلك بالألقاب التي منحها نابليون ، مثل دوق أوسترلتز أو أكمول ، وقارنه أيضاً بالألقاب الإنجليزية ، مثل « نيلسون النيل » : « وألنبي ميجدو » و « متنجمري العلمين » .

(٧) كان للجماعة زعيان : سكيپيو أيمليانوس وجايوس لوكسيليوس ، وقد مجد شيشرون صداقتهما في كتابه عن « الصداقة » . وعلى الرغم من أن صنعتهما كانت الحرب فقد انفردا بثقافة عالية وسعة علم .

(٨) هل يعنى ذلك ميجالوپوليس ، أو أركاديا ، أو اليونان .

Polybios, *Historiai*, trans. Evelyn S. Shuckburgh (2 Vols., London, 1889). (٩) vol. 2, p. 540.

(١٠) ٢٦٤ ق . م= أوليمپياد ١,١٢٩ ، ١٦٨ ق . م= أوليمپياد ١,١٥٣ ، ١٤٦ ق . م = أوليمپياد ٣,١٥٨ . وقد استخدم پوليبيوس الأوليباديات لأنها كانت أفضل طريقة للتأريخ فى زمانه . ولم يكن من الميسور استخدام التاريخ من إنشاء روما . وكان فارو (النصف الثانى من القرن الأول ق . م) أول من أرخ بإنشاء روما سنة ٧٥٣ ق . م . وطريقة الرومان فى إعطاء كل سنة اسم القنصلين الموجودين فى الحكم فى غاية الثقل ، وغير علمية ، لأنه من المستحيل تقدير الفترات على نحو ما هو معروف بين سنتى ٢٦٤ ، ١٦٨ ، وهو بأسلوب پوليبيوس بين الأوليباد ١,١٢٩ ، الأوليباد ١,١٥٣ .

(١١) لفظة eimarmene أو peprōmenē تدل على الشيء المقسوم بالقدر ، من حيث إن القدر تمثله الإلهة مويرا ، أو الإلهة الحظ Tyche (Fortuna)

(١٢) إن المفاهيم الخاصة بالطبيعة الدورية للتاريخ ، والرجعة الأزلية ، وإعادة الخلق لم تكن فى أصلها رواقية ، بل مفاهيم شرقية اصطنعها بصورة أو بأخرى الفيثاغوريون، وثوكيديدس ، وأفلاطون ، وأرسطو ، وأخيراً الرواقيون .

(١٣) بمقدار ما يخص الرومان فلم تكن طروادة تجلب اهتمامهم إلا بعد أن نشر ڤرجيل الإنياد .

(١٤) لابد أن اسم أپولودورس كان شائعاً إلى حد كبير فى أثينا .

(١٥) نشرة السير جيمس أداة طيبة لطلاب الميثولوجيا القديمة ، حيث أضاف مقارنات اتنوجرافية استقاها من مصادر شتى (عن أصل النار ، تجديد الشباب ، عربة الشمس ، وغير ذلك) ووضعها فى ملحق خاص فى المجلد الثانى من ص ٣٠٩ إلى ٤٥٥ .

(١٦) يذكرنا هذا باللقب العربى « أرسطو الزمان » الذى يمنح لأفراد لا يستحقونه ، ومثل « مديرو الجامعات » .

(١٧) أجريون (وتسمى حاليًّا أجيرا Agira) من أقدم المستعمرات اليونانية فى وسط صقلية .

(١٨) هذا أقدم استعمال (أو من أقدم الاستعمالات) للفظة «مكتبة» (bibliotēcē)

لا لتدل على صندوق أو دار الكتب ، بل على مجرد مجموعة من الكتابات تنشر معاً فى سلسلة واحدة . وقد تعرضت لفظة Library لنفس التطور الاشتقاقى . قارن مثلا بين "Harvard College Library" وبين Loeb Classical Library

(١٩) نعيد ما سبق ذكره من أن حروب مثريداتيس مع روما وقعت فى ٨٨ — ٨٤ ، ٨٣ — ٨١ ، ٧٤ — ٦٤ ، عندما هزم مثريداتيس نهائياً على يد پومپى وهرب إلى القرم ، حيث انتحر سنة ٦٣ . وحكم تجرا نيس أرمينا من ٩٦ إلى ٥٦ ، وتزوج كليوپاترة ابنة مثريداتيس . ومنذ سنة ٨٣ لم يصبح سيد أرمينا فقط بل مملكة السلوكيين من الفرات إلى البحر .

(٢٠) سماه « ملحق پوليبيوس » Ta meta Polybion (أى ما بعد پوليبيوس) .

(٢١) الجغرافيا ١ ، ١ ، ٢٢ ترجمة هوراس ليونارد جونس (نشرة لوب) المجلد الأول ص ٤٧ .

(٢٢) تقابل نوميديا إلى حد ما غرب تونس وشرق الجزائر ، وموريتانيا غرب الجزائر ومراكش .

(٢٣) الإلحاح على « الأصول » من سمات الهلنستية . وكان المؤرخون الهلنستيون يحبون الحديث عن تأسيس (ctiseis) المدن .

(٢٤) أى إلى موقعة كاناى (فى أپوليا جنوب شرق إيطاليا) حيث هزم الرومان تماماً على يد هانيبال سنة ٢١٦ . الحق لم يشهد الرومان أسوأ من هذه الهزيمة العسكرية .

(٢٥) استقر الليجوريون حول خليج جنوا إلى حدود الألب البحرية فى الغرب وكسيدان غال (أماليا) فى الشرق . وكانت ليجوريا وكسيدان غال جنوب نهر البو ، الولاية الأولى تحت البو الأعلى غرباً ، والولاية الثانية تحت البو الأوسط والأدنى شرقاً .

(٢٦) ولد انيوس ٢٣٩ فلم يكن أكبر من كاتو الذى ولد ٢٣٤ إلا بسنوات قليلة . وكاتو هو الذى ذهب به إلى روما من سردينيا سنة ٢٠٤ . وتوفى انيوس سنة ١٦٩ أى قبل كاتو بعشرين عاماً (١٤٩) . وسبقه كؤرخ . ولقد انتهت حوليات انيوس سنة ١٨١ ، وبدأ كاتو « الأصول » عند وفاة أنيوس تقريباً ، وأتم كتاب الأصول فى السنة التى توفى فيها أى ١٤٩ .

(٢٧) كانت سنه ٤٣ سنة ، والإسكندر ٣٣ عند وفاته ، ونابليون ٤٤ فى موقعة ليبزج و ٤٦ عندما وصل جزيرة القديسة هيلانة . أما قيصر فقد بدأ أعماله الحربية فى سن كان الإسكندر ونابليون قد فارقا الدنيا .

(٢٨) لم يكن قيصر أول قائد يدون مذكراته الحربية ؛ إذ سبقه إلى ذلك بطلميوس سوتر (توفى ٢٨٣) الذى كتب باليونانية ، وكتابه مفقود .

(٢٩) لخص بلوتارك أعمال قيصر الحربية فى جملة واحدة حيث قال Caesar, XV : مع أن قيصر لم يتم فى حروبه عشر سنوات كاملة إلا أنه فتح أكثر من ٨٠٠ مدينة ، وأخضع ٣٠٠ أمة ، وحارب معارك منظمة فى أوقات مختلفة مع ثلاثة ملايين من الرجال ، ذبح منهم مليوناً فى حرب بالسلاح الأبيض وأسر مليوناً آخرين . ولم أحاول التحقق من صحة إحصاءات بلوتارك .

(٣٠) أضيف إليها كتاب ثامن يمضى بالرواية حتى سنة ٥٠ ق . م . ، كتبه أوليوس هرتيوس أحد ضباط قيصر . وربما كان هرتيوس هو نفسه مؤلف «حرب الإسكندرية» (Bellum Alexandrinum) ، يكمل به كتاب «الحرب الأهلية» ، وهو كتاب لا يؤرخ فقط لمعارك قيصر فى الإسكندرية ، بل لحوادث أخرى إلى انتصاره على فارناكس ملك بونتوس سنة ٤٧ عند زيلا (جنوب بونتوس) . وكان ذلك النصر من السهولة بحيث أخبر قيصر مجلس الشيوخ بالعبارة المشهورة "Veni, vidi, vici" أى «حضرت ، فرأيت ، وانتصرت» ولقد أثيرت مناقشات كثيرة حول أمانة قيصر وهرتيوس . انظر Michel Rambaud "L' art de la déformation historique dans les Commentaires de César" (فن التشويه التاريخى فى تعليقات قيصر)

Annales de l' Universités de Lyon, Lettres (vol. 23, 410 pp., Paris; Belles Lettres, 1953)

(٣١) الخمسة عشر رجلا امتداد لجماعة أقدم هم decemviri sacris faciundis أو Sacrorum (أى العشرة الموكلون بالأمور المقدسة) . كانوا يعملون أحياناً كهنة لأبولو ، ويقومون على خدمة الكتب السيبلية ، والاحتفال بالألعاب الأپولونية ، والألعاب المدنية . . وفى مقابل الكهنة والعرافون المسئولون عن حسن تنفيذ الشعائر الرومانية ، فإن هؤلاء الخمسة عشر كانوا يشرفون على شعائر من أصل يونانى .

(٣٢) وفى هذا التجميع انظر كتابى Introduction ، وفهارس المجلدات ١ ، ٢ ، ٣ تحت ألفاظ العدد ١ ، العدد ٢ ، ... العدد ٤٠ . وكذلك المجلد الأول الفهرست تحت لفظة العدد . ولست تجد شعباً بلغ به الهوس بالعدد مثل شعب الصين — انظر مثلا مجلة ايزيس ٢٢ ، ٢٧٠ ، ١٩٣٤ — ومع هذا يكاد يكون الأمر عاماً .

(٣٣) شيشرون ، أكاديميكا ، ١ ، ٣ ، دونه سنة ٤٥ ق ، م . وقد كتب شيشرون

خطاباً إلى فارو (Ad familiares, IX, 8) يهدى إليه الطبعة الثانية من الأكاديميكا .

(٣٤) أميترنوم على مسافة ٦٠ ميلا تقريباً شمال شرق روما فى إقليم سابن ، وقيل إنها مهد الشعب السابانى .

(٣٥) من الغريب أنه يسمى بالفرنسية دائماً تيت ليف Tite Live ويفهرس تحت حرف التاء T : رغماً عن أن تيتوس أحد الأسماء الأول الثمانية عشر للرومان ، (ويختصر — ت) .

(٣٦) تقع باتفيوم شمال شرق إيطاليا ، فليست فى ترانسبادين غال مثل مديولانوم (ميلانو) بل فى أرض فنيتى .

(٣٧) لعله رجع إلى باتفيوم عقب موت أغسطس (١٤ ب . م) ، لأن المقربين من إمبراطور قلما يرحب بهم الإمبراطور الذى يليه . وقد بلغ الثانية والسبعين من العمر عام ١٤ ب . م ، ولعله رغب فى الراحة .

(٣٨) أكبر الظن أنه خطط مصنفه فى ١٥٠ جزءاً ، ليبلَغ بالتاريخ وفاة أغسطس سنة ١٤ . وهذه لاشك خاتمة بديعة ، ولكنه لم يعمر ليحقق غايته . وينتهى كتابه فعلا بموت نيرو كلاوديوس دروسوس سنة ٩ ق . م .

(٣٩) فى سالف الزمان (فى القرن الرابع مثلا) كان الكتاب مقسماً إلى عقود ، والباقى بين أيدينا الأول ، والثالث ، والرابع ، ونصف الخامس . وأثناء عصر النهضة وما بعدها جرت العادة أن يتحدث الناس عن العقود المفقودة من كتاب ليڤى لا عن الكتب المفقودة . وبذلت محاولة لإعادة الكتاب إلى أصله ، أشهرها ما قام به يوحنا فرنسهايم فى أوبسالا . وقد حاول إعادة ستة عقود مفقودة (ستراسبرج ١٦٥٤) .

(٤٠) يعرف القراء من قبل أن أبرز هؤلاء المؤلفين (كاتو ، قيصر ، شيشرون ، فارو) ولكن كان هناك كثيرون غيرهم (فقدت كتبهم الآن) وهم من الكثرة بحيث احتلر ليفى فى مقدمته لإضافة مؤلف آخر إلى القائمة الطويلة .

(٤١) ألفت تواريخ وطنية كثيرة بنفس الروح لتمجيد فرنسا أو إنجلترا أو سويسرا . وهذا الضرب من الحماسة أوضح فى الكتب المؤلفة لتمجيد المسيحية أو الإسلام أو أى دين آخر . إن النجاح الوطنى أو الدينى لا يفسر على أنه شىء عارض بل على أنه ثمرة العناية الإلهية ، فالأمة (أو الدين) تعظم على كل ما عداها بسبب الإرادة الإلهية .

(٤٢) تقع ألريا على الشاطئ الشرقى فى كورسيكا .

الفصل الخامس والعشرون

الأدب[1]

فى العالمين اليونانى والرومانى ، كما فى أيامنا هذه، يوجد فرق واضح بين المؤلفات الأدبية والكتب الفنية التى تستهدف التعليم أكثر مما تستهدف الإمتاع . وفى اللغة اليونانية ، لم يكن المرء مضطراً إلى أن يتحدث عن الأدب وإنما كان يتكلم ببساطة عن الحروف (ta grammata) . ويسمى المشتغل بها فيلولوجيا (philologos) . وإن علمها سمى معلم البيان (logodidoskalos) وفى اللغة اللاتينية سمى الأدب حروفاً litterae ، وسميت دراسته إنسانيات (humanitas) ، أو الفنون الأصلية ، أو أفضل الفنون ، أو الفنون النبيلة ، أو الفنون الحرة ، أو دراسة الحروف (studia litterarum) وهلم جراً. ونحن نقابل فى لغتنا بعض هذه التعبيرات عندما نتحدث عن الإنسانيات والفنون الحرة . وقد خفف أحياناً من هذه الفروق فى كل من العالمين اليونانى والرومانى وجود شعر تعليمى كقصائد أراتوس ونيكاندروس . ومثل هذا النوع من الشعر عادة ضعيف. ولكن كتاب لوكريتيوس ، عن « طبيعة الأشياء » و « زراعيات » فرجيل هى الاستثناء الشهير .

يدور تاريخ الآداب اليونانية والرومانية طبعاً حول الشعراء وكتاب النثر الجميل . أما العلماء أمثال هيبارخوس وفيتروفيوس فيتركون جانباً أو يعالجون بقدر . ونحن مضطرون ـ فى هذا الكتاب ، إلى أن نفعل العكس ، لأن معظم أبطالنا من كبار العلماء . ومن المخجل أن ندع الفنانين جانباً. وسنقدم فى هذا الفصل وفى الفصل السابع والعشرين أشهرهم . ليتذكر القارئ أمجاد هذا العصر الفنية والأدبية . ولما كانت اللغة هى وسيلة التعبير الأدبى أصبح لزاماً علينا أن نقسم موضوعنا إلى قسمين رئيسيين : اليونانى والرومانى.

ويسمح هذا التقسيم بإلقاء نظرة على تناقض مذهل : فبينما تأخذ الآداب اليونانية فى الانحطاط ، ينشأ الأدب اللاتينى وينمو بقوة الشباب .

الآداب اليونانية

إذا قارنا بين شعراء القرن الثالث ، وعلى الأخص ثيوكريتوس ، وكان فناناً عظيماً ، وبين أولئك الذين عاشوا فى القرنين الثانى والأول قبل الميلاد بدا صغر الأخيرين . وإنى لا أستطيع أن أفكر فى أى شاعر ازدهر قبل نهاية القرن الثانى ، ولا أجد من المستطاع أن أذكر أكثر من عدد قليل – ميلياجروس وفيلوديموس وأرخياس وبارثينيوس – وجميعهم على نحو مميز من أتباع مدرسة الإسكندرية فى أسوأ أشكالها .

ميليا جروس الجدرى :

كان أعظمهم وهو من بلدة جدر[٢١] . (حوالى سنة ١٤٠ – ٧٠ ق.م) ومن أب يونانى . وجدر مركز صغير للثقافة اليونانية وهى مسقط رأس مينيبوس . وقد بدأ ميليا جروس تعليمه فى جدر وخضع لأثر مينيبوس ، ثم رحل بعد ذلك إلى صور ، أقرب العواصم إليه . دبج قصائد غزلية كثيرة اتصف بعضها بالرشاقة ، وكتب رسالته عن الحور Charites = Gracèo ، استخدم فيها إلى حد ما أسلوب مينيبوس ، وهو مزيج من النثر والشعر ، من السخرية والحكمة ، وطرأت له فكرة جمع أشعاره وأشعار كل الشعراء السابقين فى جميع العصور وعددهم يقرب من الأربعين . وسميت هذه المجموعة بالتاج Stephanos وكانت حرفياً مختارات (أنثولوجيا) وقد قارن فى المقدمة كل قصيدة بزهرة ، فكأن الكل باقة كاملة . ولم تكن هذه المجموعة الأولى من نوعها فى العالم القديم ، ولكنها كانت أغنى من سابقاتها ، ولفتت النظر كثيراً ، وكانت النموذج الذى اقتدى فى المجموعات المتأخرة ، ولا سيا المجموعتين الشهيرتين اللتين قام

على جمعهما قسطنطين كيفالوس (ازدهر ٩١٧) وما كسيموس پلانوديس (فى عام ١٣٠١)[٣] . وهما فى الواقع عمل عظيم .

فيلوديموس :

من جدر أيضاً. وكان شاعراً من أتباع الفيلسوف أبيقور ، ومعاصراً لشيشرون . وقد أدمجت قصائده (حوالى ثلاثين) فيما بعد فى مجموعة «التاج» فى طبعتها الثانية ، التى أشرف عليها فيليبوس السالونيكى (حوالى ٤٠ بعد الميلاد) .

أرخياس الأنطاكى :

كتب قصيدة فى حروب ميثريداتيس ، ومن أهم أسباب شهرته أنه كان عاملا لشيشرون. وقد أدمجت أشعاره أيضاً فى مجموعة «التاج» فى طبعتها الثانية .

بارثينيوس النيقى :

أسر فى حروب مثريداتيس ، ونقل إلى روما ولكنه سرعان ما أعتق لعلمه . وقد استقبلته الأوساط الأدبية أحسن استقبال وأصبح من أصدقاء كورنيليوس جاللوس (حوالى ٦٦ — ٢٦ ق.م) وڤرجيل . ويقال إنه هو الذى علم ڤرجيل اللغة اليونانية . وقد ضاع كل شعره (الإيليجى والميثولوجى) ولم تصلنا إلا مجموعة من قصص الحب كتبت نثراً Peri eroticon pathematon وقد كتبت لتعليم كورنيليوس جاللوس ، وأهديت له .

وزعم بعضهم أن بارثينيوس عاش حتى نهاية عصر أغسطس ، وهذا غير ممكن إلا إن كان قد عمر فوق المائة ، لأن حروب ميثريداتيس لم تنته حتى سنة ٦٤ ق.م ، وعاش أغسطس حتى سنة ١٤ بعد الميلاد ؛ وتضيف ذكرى بارثينيوس قوة إلى زمن تيبريوس الذى رغب فى محاكاة أشعاره .

وفيما عدا ميليا جروس الذى خلدته الأنثولوجيا اليونانية لا يذكر جميع

الآخرين إلا لارتباطهم بتاريخ روما ، فقد اتصل فيلوديموس وأرخياس بشيشرون وبارثينيوس بكورنيليوس جاللوس وفرجيل .

صغار كتاب النثر :

لم يتميز النثر اليونانى بأكثر مما تميز به الشعر ، أعنى إذا تركنا جانباً أولئك المؤلفين الذين كانو أساساً فلاسفة أو من رجال العلم ،مثل باناييتيوس أو هيبارخوس أو پوليبيوس أو پوسيدونيوس أو استرابون وقد سبق أن أثنينا عليهم. ونظرتنا إلى من هم أقل مرتبة ممن يمكن إلحاقهم بهذه المدرسة الفلسفية أو بتلك، فإنهم كانوا بالأحرى نحاة ومعلمي بلاغة . وسنقدم بإيجاز عدداً قليلا منهم . وهناك أولا رجلان يسمى كل منهما أپوللونيوس من بلدة ألاباندا[٤]. وكانا يعلمان الخطابة فى رودس ولقب أكبرهما بمالاكوس (الرقيق) ، ومن تلاميذه كوئيتوس موكيوس سكافيولا الأوجور Augur (حوالى ١٢١) ماركس أنطونيوس الخطيب (٩٨) . أما الأصغر فقد حمل لقب مولون[٥] Molon وذاع صيته محامياً فى دور القضاء ، ورئيساً لإحدى مدارس الخطابة . وفى عام ٨١ ، عندما كان سللا دكتاتوراً، جاء أپوللونيوس مولون إلى روما سفيراً من قبل الروديين. واستمع إليه شيشرون فى ذلك الوقت ، وفى رودس بعد ذلك (حوالى ٧٨) . وكان قيصر أيضاً ممن استمعوا إليه . وقد وضع مولون خطباً ورسائل فى الخطابة وفى التاريخ فى الغالب . وقد ذاعت شهرة مدرسة رودس لأن منهاجها كان وسطاً بين سخاء الأسلوب الآسيوى وصرامة الأسلوب الأتيكى فى روما . واستلهم مولون رشاقة هيبريديس الفنية[٦] .

ولا بد لنا أن نذكر اثنين من أتباع أبيقور : أحدهما فايدروس (١٤٠ — ٧٠)[٧]، رئيس المدرسة الأبيقورية فى روما، وكان شيشرون من بين تلاميذه ، وثانيهما فيلوديموس ، الذى سبقت الإشارة إليه بين الشعراء . وزادت شهرة فيلوديموس الجدرى زيادة كبيرة عندما عثر على بعض كتبه فى ملفات بردية اكتشفت فى هيركولانيوم . وقد عاونه أحد كتب فايدروس على إلمام شيشرون وهو يكتب عن طبيعة الآلهة De natura deorum

ويعد فيلون اللاريسى من بين مدرسى شيشرون وكان فيلون عضواً فى الأكاديمية . وعندما انحازت مدينة أثينا إلى جانب ميثريداتيس ضد روما ، حاصرها سللا واستولى عليها (٨٧ — ٨٦) . فى هذا الوقت أو قبله بقليل رحل فيلون إلى روما ، وفيها افتتح مدرسة لتعليم الفلسفة والريطوريقا (فن الخطابة) وقد ذكره شيشرون مراراً كثيره فى كتابه الأكاديميات (Academica) وكتابه عن طبيعة الآلهة .

وقد ذاعت شهرة ممثلين لمدرسة المشائين على نهج آخر ، وهما أپيليكون التيوسى وأندرونيكوس الرودسى . وكان ابيليكون ثرياً مغرماً بجمع الكتب استطاع أن يحصل على مكتبة أرسطو ، وعندما نهب سللا أثينا ، اشترى أو استولى على هذه الكنوز التى لا تقدر بثمن وحملها معه إلى روما . وقد رتب هذه المخطوطات تيرانيون وظهرت الطبعة الأولى تحت إشراف أندرونيكوس[٨] وقد توفى أپيليكون قبيل أن يستولى سللا على هذه المخطوطات بزمن قصير ، أما أندرونيكوس فقد كان لا يزال على قيد الحياة فى عام ٥٨ ق.م .

وكان يمثل مدرسة الشك فى روما فى زمن شيشرون ، أينيسيديموس الذى جمع دراسات بيرون فى ثمانية كتب Byrvoneicoi logoi . وقد جاء اينيسيديموس من بلدة كنوسوس من أعمال جزيرة كريت . والظاهر أنه كان فيلسوفاً حظى ببعض الاستقلال فى الرأى حاول أن يمزج بين الشك وبين مبادئ الأكاديمية . وقد ضاعت كل مؤلفاته . ولكن سيكستوس أمپيركوس (النصف الثانى من القرن الثانى) كان مديناً بالكثير له .

وقد استقر أبوللودوروس البرجامى فى مدينة روما بعد ذلك بقليل . واختاره يوليوس قيصر ليكون معلماً (مدرساً للريطوريقا) لأوكتافيوس فى صباه . وكان أبوللودوروس أولا وقبل كل شىء معلماً لا كاتباً ، وقد أثر فى الرومان خاصة بشروحه لأجمل النثر الأتيكى . واضطلع بعمل مماثل كايكيليوس كالاكتينوس[٩] وديونيسيوس الهليكارناسى ، وهما من مدرسى الأسلوب الأتيكى فى عصر أغسطس .

وقد كان جميع أولئك معلمين للريطوريقا وفلاسفة ، كانوا بالضرورة فلاسفة . لأن كل معلم للريطوريقا كات يتسم بلون فلسفى وكان من أتباع مدرسة محددة . وكانت كل مدرسة من المدارس الفلسفية الرئيسية ممثلة فى روما : الأكاديمية والليقيوم والرواق . ومذهب الشك كان من الممكن أيضاً سماع صوته وهو يرد كل مذهب آخر إلى الصواب . وكان هؤلاء الباحثون اليونانيون يعيشون جميعاً فى روما ، أو كانوا يتصلون بقيادة الرومان فى الخارج . وكان هؤلاء لا يلوذون بكنف أمراء من اليونان بل كانوا يستظلون بظل الرومان ، أمثال سكيبيو إيميليانوس وشيشرون وقيصر ومايكيناس وأغسطس . وأعظم ميزة لم هو أنهم حملوا اللغة اليونانية والفكر اليونانى إلى الطبقة العليا من الرومان .

وبدلا من جعل عنوان هذا البند : الآداب اليونانية ، كان من الممكن أن يكون أكثر وضوحاً أن يحمل العنوان : « نمو الأدب اليونانى فى روما » .

الأدب اللاتينى :

عند ما يتذكر المرء أن أول سنة فى أول دورة أوليمپية تقابل ٧٧٦ ق.م وأن تأسيس روما أتى عام ٧٥٣ ق.م(وهذان التاريخان خرافيان لا يستندان إلا على مجرد الاتفاق ، ولكنهما قد يستعملان كتاريخين مقربين) ، فليس بمستطيع أن يغالب المدهش لتأخر ظهور الأدب اللاتينى ولا سيما إذا تذكرنا أن الأدب اليونانى بدا متوجاً بالنصر بهوميروس (فى القرن التاسع ، إن لم يكن قبل ذلك) . ومما يثير الدهش أكثر أن يقال إن كوينتوس انيوس (النصف الأول من القرن الثانى قبل الميلاد) « باعث الشعر الرومانى » توفى فى سنة متأخرة عام ١٦٩ ق. م. ، سبعة قرون تقريباً بعد هوميروس . فهذه فجوة كبيرة حقًّا بين ثقافتين كان ينبغى أن تسيرا متوازيتين إلى حد ما . والحق أن الشعر اليونانى جاء أولا ولكن لم يكن لدى الرومان وقت للتفكير قبل دعم أسس مستقبلهم السياسى . ويشبهون إلى حد ما رجال الأعمال الذين يظنون

أنه سيكون لهم وقت كاف للتعليم بعد اقتناء المليون الأول ، وإذا ما حصلوا عليه أضحى الوقت متأخراً جداً .

ليفيوس أندرونيكوس ونايفيوس

ومع هذا لا محل للمبالغة بالقول كان انيوس أول شعراء الرومان العظام وكان يساوى فرجيل فى عظمته . ولكن كان هناك شعراء رومان طوال الجيل الذى سبقه . وأول اسم يستحق الذكر من بينهم رجل يونانى يسمى أندرونيكوس أسر فى تارنت سنة ٢٧٢ وأحضر إلى روما ، واختاره سيده ، ليفيوس ، ليكون مربياً لأبنائه . ثم أعتقه ومنحه اسمه كما جرت العادة. ومنذ ذاك دعى باسم ليفيوس أندرونيكوس . لم تذكره الأجيال التالية إلا بهذا الاسم اللاتينى وحده . افتتح مدرسته وعلق على الشعراء اليونانيين وقام بترجمة أوديسا هوميروس شعراً لاتينيًّا .كما ترجم قصصاً تراجيدية يونانية وروايات كوميدية يونانية واقتفى أثره بعد ذلك كثيرون .

وهناك شاعر آخر أقدم قليلا من أنيوس هو نايفيوس (حوالى ٢٧٠ –٢٠١) وهو الذى أنشأ القصص الوطنية (Fabula praetexta) ، وهى طراز جديد من القصص التراجيدية يعالج موضوعات رومانية (طفولة روموليس وهزيمة الجال سنة ٢٢٢ والحرب البونية الأولى ، ٢٦٤ – ٢٤١) . كان رومانيًّا حقًّا ولكنه تجرأ على انتقاد السلطات فألقى به فى السجن ومات فى المنفى حوالى ٢٠١ ببلدة أوتيكا ، التى لا تبعد كثيراً عن قرطاجة . ومن المحال إصدار حكم على قصصه ، إذ لم يتبق منها إلا شذرات .

إنيوس :

أول شاعر عظيم كان بلاريب إنيوس (٢٣٩ – ١٦٩) وهو من أصل يونانى ، مثل ليفيوس أندرونيكوس . ولد فى بلدة روديای Rudiae من أعمال كالابريا Calabria سنة ٢٣٩ : استطاع بسرعة أن يتكلم اللاتينية كما كان يتكلم اليونانية . وأصبح قائداً لمائة centurion فى الجيش الرومانى :

وأحضره كاتو إلى روما (وقد كان يعلمه اليونانية) . وازدهر فى روما . وحظى بصداقة سكيبيو إيميليانوس وآخرين ، ومات فى سن السبعين . وترجم قصصاً يونانية لا سيا قصص يوربيديس ، إلى اللاتينية ، ونظم حوليات روما شعراً لاتينيًّا من زمن إينياس إلى عصره ، وهذا أول تاريخ لروما باللغة اللاتينية . وكتب قصيدتين فلسفيتين : إحداهما بعنوان إبيخارموس Epicharmos اختصر فيها نظريات فيثاغورس ، والأخرى بعنوان يوهيمروس Euhèmerus وهى تعليل منطقى للأقاصيص الدينية[١٠] كان الإنموذج الذى احتذاه لوكيليوس ولوكريتيوس وفرجيل .

Q. ENNII
POETAE
VETVSTISSIMI
QVAE SVPERSVNT
FRAGMENTA
AB
HIERONYMO COLVMNA
CONOVISITA DISPOSITA
ET EXPLICATA
AD
IOANNEM FILIVM.




SVPERIORVM PERMISSV.
NEAPOLI,
Ex Typographia Horatij Salviani.
CIƆ. IƆ. XC.

شكل ٩٦ — إنيوس (النصف الأول من القرن الثانى ق . م .) . أول طبعة منفصلة من بقاياه وقف عليها جيرولامو كولونا (نابلى ١٥٩٠) وكانت بقايا إنيوس قد طبعت قبل ذلك فى Fragmenta veterum poetarum latinorum التى جمعها روبرت وهنرى ايتين Etienne (جنيف : هنرى إستين ، ١٥٦٤) .

بلاوتوس وترنتيوس : تمهد مسرحيات إينوس لكاتبين معاصرين له وممتازين فى القصص الرومانى ، وأعنى بهما بلاوتوس وترنتيوس . ولد بلاوتوس فى سارسينا من أعمال أومبريا حوالى ٢٥١ ، وتوفى سنة ١٨٤ . ألف كوميديات ، اقتبسها من « الكوميديا الحديثة » اليونانية ، ولا سيا من مسرحيات ميناندر . ونقل

هذه المسرحيات ، وإن تصرف كثيراً فى معالجتها بأسلوب فكه أصيل . وقد عرف كيف يقتبس قصة يونانية قديمة، ويوثق بينها وبين حاجات النظارة من الرومان ، وأحرز شهرة واسعة .

ترنتيوس (حوالى ١٩٥ — ١٥٩) :

ولد بعد بلاوتوس بنصف قرن تقريباً وكان أكثر تكلفاً وأقل إمتاعاً ؛ إذ تنقصه — على حد تعبير قيصر — القوة الكوميدية Viscomica . نقل أغلب مسرحياته من الكوميديا الحديثة ولا سيما من ميناندر كما صنع بلاوتوس. ولكن بجرأة أعظم . فمن ناحيته لم يرد أن ينقل مسرحية واحدة ، بل استمد إلهامه فى كل مسرحية من علة مسرحيات يونانية . لم يكن ترنتيوس إيطالى المولد ، مثل بلاوتوس ، وإنما ولد فى قرطاجة[١١] من أصل ليبى ، ثم نقل عبداً إلى روما . . وأحسن سيده تربيته ، وعندما تبين نبوغه ، منحه كل تشجيع ممكن . وإذا كان أقل من بلاوتوس شجاعة ، فإنه يفوقه فى التحضر . كان ترنتيوس رقيقاً إنسانياً . ولنذكر جميعاً على الأقل هذا البيت من شعره : إنى إنسان ، ولا أظن أن شيئاً ما يخص بنى الإنسان غريب عنى .

لم تكن كوميدياته شعبية ولكنها صادفت نجاحاً لدى المربين والمثقفين[١٢] وقد بعثت روحه الهادئة فى المسرحيات الإنجليزية التى وضعها وليم كونجريف (١٦٧٠ — ١٧٢٩) ، والمسرحيات الإيطالية التى ألفها كارلو جولدونى (١٧٠٧ — ١٧٩٣) .

كاتو الرقيب : قدمنا فى الفصل الرابع والعشرين عرضاً مستفيضاً لمذكرات كاتو التى وضعها عن الزراعة ، حوالى ١٦٠ . وهى فى الواقع ليست من الأدب وإن كانت لا تهمل . وكان رومانياً خالصاً ، يكره الإسراف والفساد الذى تأصل فى الطبقات العليا . وكأنه كان يزداد بزيادة الثقافة والتحضر ، وأعلى ثقافة ما استقيت من المصادر اليونانية . وظن كاتو أن أفضل دواء هو تمجيد الحياة الريفية والفضائل السهلة التى ترتبط بها . وليس معنى هذا أنه

لم يكن مثقفاً ، بل بالعكس نال قسطاً وافراً من التعليم في شبابه ، وكان في استطاعته أن يقرأ اليونانية ، ودرس كغيره ثوكيديديس وديموسثنيس ، وكان معجباً باليونانيين في عصرهم الذهبي ، دون أن يطمئن إلى معاصريه منهم . ولعله لم يكن مخطئاً في ذلك . أدرك الجانب الحسن من الثقافة اليونانية ، كما أحاط بجانبها السيء ، وعندما زار كارنياديس البرقاوي في روما (١٥٦ — ١٥٥) سفيراً مبعوثاً من أثينا للدفاع عن مصالحها ، رغب كاتو في أن يرحل عن المدينة بأسرع ما يكون « ليحيق بنا الدمار إن أعطانا اليونانيون آدابهم ، وبخاصة إن أرسلوا إلينا أطباءهم » . كان كاتو يحب الحياة البسيطة ، ويزدري ترف الطبقة الارستقراطية المتزايدة . وزعم أن التماثيل التي أحضرت من سيراكوز سنة ٢١١ أفسدت الأخلاق الرومانية .

كانت خطبه العامة تعد بعناية، وكتب تاريخ روما . وهو أول كتاب من نوعه في النثر اللاتيني . ومن سوء الحظ أن كتابه عن الزراعة (De agricultura) هو التراث الأساسي الذي خلفه ، وهو من الناحية الأدبية ركيك إلى أقصى درجة . يعد كاتو مؤسس النثر اللاتيني بمؤلفاته الأخرى . فقد أحاط بما يريد أن يقول . ثم قاله بقوة ووضوح، وفي بعض الحالات الخاصة اقترب من القمة . ولعدم عنايته بالعلوم وسوء فهمه لها لم يستطع أن يقدر أفضل أجزاء الثقافة اليونانية وأبقاها . . وكانت العلوم في نظره تافهة، فيما عدا الزراعة وتدبير المنزل والفقه . أو بمعنى آخر ، لم يكن يستطيع أن يهدى العلم في أوجه، وإنما رآه في صورته البدائية .

زادت شهرته الشعبية في العصور الحديثة بشكل غير طبيعي للخلط بينه وبين رجلين آخرين ، فخلط أولا بينه وبين حفيده كاتو الأوتيكي (Cato of Utica) (٩٥ — ٤٦) الذي انتحر في أوتيكا ، بعد أن هزمه قيصر مفضلا الموت على الخضوع لقيصر. فكاتو الأوتيكي من أعظم أبطال الجمهورية الرومانية، وإذا ذكر اسم كاتو انصرف ذهن كثير من الناس إليه . وثانياً ظن الناس أنه واضع المقطوعات الأخلاقية Moral distichs التي كانت

منتشرة فى مدارس العصور الوسطى انتشار إيسوب وأفيانوس روميولوس[١٣] وعندما لاحظ تشوسر (فى قصة الطحان) «كان يعلم أن ليس ثمة كاتو لذكائه القاسى، وكاتو هذا هو مؤلف المقطوعات الأخلاقية. وقد بدأ الخطأ فى زمن متقدم جداً[١٤]. واستمر حتى القرن التاسع عشر على الأقل. فالقطعة التى تحمل عنوان: عن الأخلاق إلى ابنه Demoribus ad filium أو مقطوعة من الأخلاق disticha de moribus أو أقوال كاتو السائرة Dicta Catonis، لاقت قبولا عاماً وضخماً فى اللغة اللاتينية وفى كثير من اللهجات فى نظر أكثر الناس، إن لم يكن فى نظرهم جميعاً، غير كاتو الأكبر المؤلف. وقد شيد مجده على أساس هذه المقطوعات. ومن المحتمل أنها كانت أول (وآخر) كتاب باللغة اللاتينية درسه فرانكلين؛ فقام هو نفسه بإخراج طبعة منه باللغة الإنجليزية[١٥] فكاتو الزائف هذا كان أحد معلمى (رتشارد المسكين).

لقد قمنا الآن باستعراض أول قرن من تاريخ الأدب اللاتينى (٢٥٠ — ١٥٠) . إنه لم يخلق هوميروس أو هزيود، وإنما خرج ستة من الكتاب الجديرين بالثناء: ليفيوس أندرونيكوس، ونايفيوس، وأنفيوس، وبلاتوس، وترنتيوس وكاتو الرقيب. وليست هذه بداية سيئة، وإن جاءت متأخرة.

سكيبيو أيميليانوس وجايوس لوكيليوس. من أهم خصائص الأدب اللاتينى أنه يقال له تقاليدى أفضله ما ترجم عن اليونانية. ومن بين الستة السابقين ثلاثة من أصل يونانى أو حظوا بتعلم الآداب اليونانية فى صباهم. فلم يكن فى استطاعة ليفيوس أندرونيكوس أو إينوس أو ترنتيوس أو حتى كاتو، الذى صب اللعنــة على الخطر اليونانى، ألا يستعملوا ألفاظاً يونانية.

وجاءت بعد القرن الأول الذى شهد نشأة الأدب والنثر اللاتينى فترة كود، يمكن أن يطلق عليها عصر إيميليانوس سكيبيو (١٨٥ — ١٢٩) وندوته.

عندما بذرت أصول العصر الذهبى . كان فترة اصطباغ عميق بالحضارة الهلنستية فكان من بين أصدقاء سكيپيو مؤلفون يونانيون مثل بانايتيوس وپوليبيوس ، ورفاق أيضاً مثل ترنتيوس ولوكيليوس . وفى أثناء رياسة سكيپيو نقلت مكتبة الملك بيرسيوس(١٦) إلى روما(١٦٨) . وقد دفع هذا الحادث إلى زيادة الاهتمام بالأدب اليونانى .

شكل ٩٧ — بلاوتوس (حوالى ٢٥٤ — ١٨٤) . الطبعة الأولى لمسرحياته التى نشرها جورجيوس ميرولا ويدعى أيضاً جورجيو ميرلانى

شكل ٩٨ — ترنتيوس (حوالى ١٩٠ — ١٥٩) . الطبعة الأولى لمسرحياته (فوليو ، شتراسبورج ، يوهان منتلين قبل سنة ١٤٧٠) (بإذن من مكتبة هنتنجتون ، سان مارينو ، كاليفورنيا) .

ولد جايوس لوكيليوس (حوالى ١٨٠ – ١٠٢) ، فى سويسا أورونكا Suessa Aurunca [١٧] من أعمال لاتيوم . وجاء إلى روما بعد سنة ١٦٠ . وكان شاعراً على جانب كبير من الثراء . ترك ما يقرب من ثلاثين كتاباً بقى لنا منها ألف وثلثمائة بيت . كان إلى حد ما هاوياً . وقد نظم هجائيات (مختلطات) لموضوعات كثيرة فى أيامه . وكان فى بعض الأحيان يهدف إلى السخرية ولكن بروح هادئة . وعلى ذلك كان رائداً سبق هوراس وبيرسيوس (٣٤ – ٦٢) وجوفينال (ازدهر ١٠٠ – ١٣٠) . وفى أواخر حياته اعتزل فى نابلى وفيها وافته منيته حوالى سنة ١٠٢ .

والقرن الأول قبل الميلاد ، كان حقاً العصر الذهبى للآداب اللاتينية وكان رجال الأدب العظماء أكثر من مجرد رجال أدب ، وقد سبق أن قدمناهم للقراء أمثال لوكريتيوس ويوليوس قيصر وشيشرون وفارو وفرجيل ، ولنعود إليهم هنا ، بقدر ما تقضى الحاجة لإتمام الصورة التى نقوم برسمها .

كاتوللوس . لا حاجة بنا إلى إضافات جديدة عن لوكريتيوس ؛ لأن كتابه الوحيد ، عن طبيعة الأشياء ، سبقت مناقشته مناقشة تامة فى الفصل السابع عشر . ومعاصره كاتوللوس نقيض عظيم له . كانا قرينين تماماً ، فقد توفى لوكريتيوس سنة ٥٥ وعمره أربع وأربعون سنة ، أما كاتاللوس فقد توفى سنة ٤٤ وله من العمر ثلاثون سنة . وقد استمد لوكريتيوس إلهامه من النماذج اليونانية ، ولا سيما أبيقور ، أما كاتوللوس فقد حذا حذو النماذج الهلنستية ، أى الأدب اليونانى الشرقى الذى انتشر فى مصر وفى البلاد الآسيوية بعد سقوط الإسكندرية. وقد استخدم نايفيوس وإينوس الأدب اليونانى لمصلحة وطنه وتعليم ابنه ، أما كاتاللوس فلم يفكر فى هذا المثل الأعلى . لقد كان يهتم بالشعر الإسكندرى أو شعره هو . لا لشىء إلا الرشاقة الأدبية . وكان جل همه يدور حول نفسه ، وأهم الحوادث فى تاريخ حياته وفاة أخيه المفاجئة سنة ٥٩ ، وخيانة خليلته ليسبيا بعد ذلك بسنوات قلائل . وقد دبج عدداً كبيراً من القصائد ، غنائية ورثائية ، وهجائية ؛ وقد وصلنا منها مائة وثلاث عشرة ؛ وزخرف صناعته

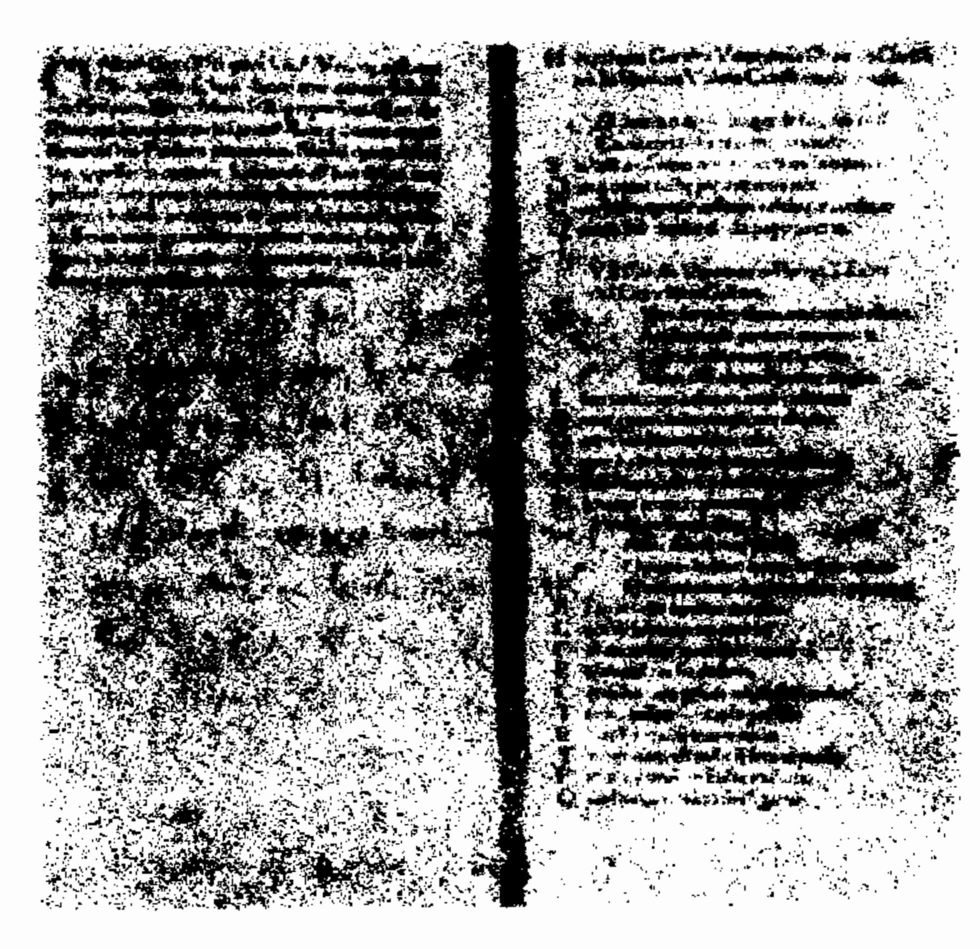
يخفف من وطأته إخلاص نسبي ولمحات قليلة من شعور عميق .

ولد جايوس فاليريوس كاتوللوس (حوالى ٨٤ — ٥٤) فى فيرونا ، فهو إذن إيطالى من أهل الشمال ، بعد نهر البو ، كصديقه كورنيليوس نيبوس ، ومثل فرجيل وتيتوس ليفيوس وبلينى الأكبر وبلينى الأصغر . وقد أحب كاتوللوس وطنه الأصلى ، ولا سيما بحيرة جاروا Lacus Benacus . وقد جاء إلى روما حوالى سنة ٦٢ ، وقضى بقية حياته فيها ما عدا رحلات قصيرة قام بها .

وقد توافر له من المال ما يسر حاجته ، فجاء فنه «فناً للفن» L'Art pour L'Art دون تقيد بأى أفكار سياسية أو اجتماعية من أى نوع . وهو فى هذا يشبه كثيراً شعراء الإسكندرية الذين حذا حذوهم ، وقاسمهم فى تكلفهم وكتب مثلهم للسعداء القليلين ، وهذا مزعج لأن السعداء القلائل لم يكونوا بالضرورة أفضل الناس ، بل كانوا فى بعض الأحيان حقراء جداً ، وكان أفضل من المثل السكندرية التى حاكاها ، لأنه كان أبسط وأقل إيهاماً وتلميحاً . وجمهوره الرومانى على العموم أكثر رجولة وأقل سفسطة من الجمهور السكندرى أو الأسيوى ، ولم يكن كاتوللوس هو الشاعر الوحيد الذى سار وراء هذا الطراز فى روما فى منتصف القرن الأول قبل الميلاد بل كان هناك آخرون كثيرون نظروا إلى أنفسهم على أنهم الكتاب الجدد ، أو دعنا نقل العصبة الجديدة neoteroi ، وقد وصلت إلينا أمثلة كثيرة من الأدب السكندرى فى روما أسوأ بكثير مما ترك لنا كاتوللوس ، مثال ذلك القصائد التى كانت تنسب سابقاً إلى شباب فرجيل ، والأرجح أنها ليست له[١٨] .

كان من الضرورى التحدث عن كاتوللوس لأنه كان (قبل أوفيد) أحسن ممثل للأدب السكندرى فى روما ، وهو طور خطير من أطوار الثقافة الرومانية برر مخاوف كاتو واحتقاره ، وإن كان ينبغى أن يحسب حسابه . على أن كاتو من جهة أخرى كان جديراً بالذكر لما خلف من أثر ، فكل شاعر رومانى جاء بعده ، حتى أعاظم الشعراء مثل فرجيل وهوراس ، كان مديناً له بعض الدين وبصرف النظر عن تجديداته العريضة أدخل كاتوللوس فى الشعر اللاتينى

عنصراً جديداً، مزيجاً من الرثاء والتصنع لا يمكن أن يمحى بعد ذلك ، بل لقد انتشر لا فى اللاتينية فحسب ولكن فى اللغة الإيطالية التى كتب بها بترارك ، واللغة الفرنسية التى استعملها رونسار .



شكل ٩٩ — الطبعة الأولى لكاتولس وتيبولوس وبروبيرتيوس وستاتيوس Carmina Catulli quibus accessere = Tibulli et Propertii carmina et Vindelinus de Spira Statii Sylvae (البندقية ١١٧٢) . وقد ازدهر كاتولوس — وتيبولوس وبروبيرتيوس فى القرن الأول قبل الميلاد . ولكن ستاتيوس (٥٠ — ٩٦) عاش فى القرن التالى ولهذا لن نتعرض له فى هذا المجلد .

شيشرون : ولنعرض الآن لرجلين من أعظم الرجال : يوليوس قيصر

(١٠٢ — ٤٤) ، وشيشرون (١٠٦ — ٤٣)، تعاصروا وعُمِّروا بقدر واحد تقريباً وسيطرا على الأدب اللاتيني فى نواح مختلفة كان يوليوس قيصر أولا وقبل كل شىء رجل سياسة وحرب وحتى لو لم يصل إلينا شيء من مؤلفاته لوصل مجده إلى عنان السماء . أما شيشرون فبالعكس أقحم نفسه فى السياسة وإن كان أولا وقبل كل شىء ، كاتباً ابتدع أحسن نثر فى اللغة اللاتينية . ومن حسن حظه أن وصل إلينا كثير مؤلفاته ، ولولاها لكان من المشكوك فيه أن يبقى اسمه .

تحدثنا عن مؤلفات شيشرون الفلسفية فى الفصل السابع عشر ، وهو بعد لوكريتيوس ، أهم من نقل الفلسفة اليونانية إلى جمهور الرومان ، إلا أن تلك المؤلفات لم تك إلا جزءًا يسيراً من نشاطه الأدبى ، ونستطيع أن نغض عن جهوده السياسية وإن كان قد وضع أكثر من مائة خطبة وصلنا منها ثمان وخمسون. وكتب رسائل فى الريطوريقا والنظريات السياسية والقانون. وأهم شىء فى تراثه الأدبى رسائله التى تتألف من ألف خطاب تقريباً بعث بها إلى مئات من الناس من كل طبقة ومن كل نوع . وتكاد هذه الرسائل تكون فريدة فى الأدب الكلاسيكى ، فهى أقدم ما وصل إلينا وأكثره عدداً[١٩] وصل إلينا تسعمائة وواحد وثلاثون خطاباً ، تسعة أعشارها خطها بنفسه ،أما الباقى فموجه إليه . والظاهر أنه أعد بعضها للنشر، وأنها نشرت فعلا بعد مقتله بزمن قصير (فى الفترة ٤٣ — ٣١ تقريباً) بأمر من أوكتافيان ، أو على الأقل بعد استئذانه . وقد أشرف على نشرها اثنان من أصدقائه المخلصين، أتيكوس وتيرو[٢٠] . وهى تحتوى كثيراً من الأسرار الدينية وهى أفضل مصدر لسيرة شيشرون ، وتلقى ضوءاً على بعض أبطال المهزلة الإنسانية فى تلك الأيام : بومبى وبوليوس قيصر و بروتوس وأتيكوس وأنطونيوس وأوكتافيان . فهى مرآة للمجتمع الرومانى بين سنتى ٦٨ و ٤٣ . وليس ثمة فترة فى التاريخ القديم ألقى عليها مثل هذا الضوء ، لأن تلك الرسائل تطلعنا على ما يحدث وراء الستار . وطال نقاش الباحثين حول صدق شيشرون[٢١] فقد لا يستقيم الزعم بأنه قال دائماً ما يعتقده أو أنه لم يخف قط بعض آرائه ،ولكنى أميل إلى

تصديقه منى إلى تكذيبه . وعلى كل حال ترينا هذه الرسائل الغنية رجلا أشبه ما يكون برجال السياسة من حكام أعضاء مجلس الشيوخ والمحامين الذين عرفناهم فى ضوء كتاباته الأخرى وآراء معاصريه . وقد كان ذكياً جداً ومن الأحرار (يسار الوسط) . لا حزبياً متعصباً ، ولما كان فى المعمعة استطاع أن يلم بكل شىء . ولقد عرف أهواء الناس وإن لم يشارك فيها ، كان رواقياً فى أخلاقه أكثر منه رجل سياسة . ونحن نعرف أنه كان مملوءاً بالغرور وأن هذا الغرور تلألأ مراراً وتكراراً فى رسائله . ولما كان ذكاؤه مشوباً بكرم نفسى ، فقد كانت انفعالاته سريعة التغير وكذلك قراراته ، هل كان هذا عدم إخلاص لنفسه ؟ كان محباً للفنون والأدب ، وكان إنساناً حقاً، ولكنه لم يكن إنساناً متكاملا وذلك لجهله بالعلوم .

ولسوء الحظ لا يعرف كثير من الطلبة شيشرون إلا عن طريق خطبه . وهى تعتبر أفضل نماذج فى بابها . ولكن لا يمكن فهمها إلا بمعرفة جيدة للحوادث التى أدت إليها . ومعلمو اللغة اللاتينية (لا أقول طلبتها) قلما يؤهلون تأهيلا كافيا لإعادة الحياة إلى تلك الخطب . وربما كانت الفيليبيات[٢٢] التى ألقاها شيشرون فى السنتين الأخيرتين من حياته ضد ماركس أنطونيوس أحسن خطبه السياسية . استعمل الدكتاتورون* السلم طعماً لاقتناص الشعب واستعباده ، ولكن كان لشيشرون من الشجاعة ما يمكنه من أن يحتج : « لماذا لا أريد السلم ؟ لأنه شنار وخطر ومحال ... إنى لا أرفض السلم ، ولكنى أخشى الحرب تحت ستار السلام[٢٣]» وهو يتساءل المرة بعد المرة : « هل العبودية سلم ؟ » . وقد ثأر ماركس أنطونيوس لنفسه ، فأرسل إليه من قتله فى فورمياى فى السابع من شهر ديسمبر سنة ٤٣[٢٤] .

توجد على الأقل ثلاثة أنواع مختلفة من الأساليب فى مؤلفات شيشرون : أولها الأسلوب الواضح والبسيط نسبياً الذى نراه فى كتبه ، وثانيهما ذاك الأسلوب المتشابك المملوء بالانفعال فى الخطب السياسية وفى مرافعاته ، وإنه

---

* جمع دكتاتور .

لغريب أن يظن المرء أن مثل هذه الجمل الطويلة التى تبعث اليأس فى قلوب الطلبة كانت ضرورية لإقناع أعضاء مجلس الشيوخ والقضاة والمحلفين وهى لا تؤثر فى أحد الآن فى الولايات المتحدة على الأقل ، وأثرها بالأحرى ضد الخطيب نفسه ، وهناك أسلوب ثالث هو أسلوب الرسائل وهو أفضلها وأبسطها ، ولاسيما فى تلك الرسائل التى كان ينبغى أن تكتب بسرعة . وهذا الأسلوب يرينا الرجل وجميع نقائصه ، بل يطلعنا أيضاً على إنسانيته وفضائله الأخرى ، فهو رشيق غير متكلف وملىء بالصور . ويستطيع المرء أن يتخيل حماسة العلماء عندما اكتشفت تلك الرسائل فى القرن الرابع عشر ، وكانت من قبل مفقودة ، وظهر عدد لاحصر له من طبعاتها منذ سنة ١٤٦٧ (٢٥)

[illegible]

.FINIS.

[illegible]

MARCI.T.C.EPISTOLAE AD ATTICVM BRVTVM:
Ex Quintum Fratrem cum ipsius Attici uita feliciter Expliciunt.

.M.CCCC.LXX.

شكل ١٠٠ — شيشرون (النصف الأول من القرن الأول) Epistolae ad Atticum Brutum Quintum fratrem cum Attici فوليو ، ٣٠ سم ١٨٢ ورقة ، البندقية : نيكولاس جينسون ، ١٤٧٠) .

وهذه الرسائل اكتشفها بترارك (النصف الأول من القرن الرابع عشر) فى فيرونا سنة ١٣٤٥ وقام بنسخها Coluccio Salutati (النصف الثانى من القرن الرابع عشر) . وهذه أول (أو ثانى) طبعة للرسائل . وقد بعث شيشرون بهذه الرسائل إلى أتيكوس وإلى بروتوس قاتل الدكتاتور وإلى أخيه كوينتوس . ونشرها نيكولاس جينسون الفرنسى فى سنته الأولى بالبندقية . ونحن ننشر هنا آخر صفحة . ونشرت طبعة أخرى من الرسائل نفسها فى نفس السنة ١٤٧٠ قبل ٣٠ أغسطس . ثم طبعها فى روما Sweynheym و Pannartz . فهل سبقت طبعة جينسون وتاريخها هو بكل بساطة ١٤٧٠ = M. CCCCLXX ؟

أتم شيشرون خلق اللغة اللاتينية . وقد ساد الظن زمناً أنه من المحال إدخال تحسين على أسلوب شيشرون ، أو إضافة ألفاظ جيدة إلى ثبت مفرداته .

وقد أتى مثل هذا الادعاء المفرط برد فعل أحسن ما يوضحه كتاب (Erasmus) المسمى Cicernoanus (Basel Fraoben, 1528) . فمن الواضح أنه ما من كاتب ، مهما علت مكانته ، يستطيع يوماً أن يوقف تقدم لغة . لأنه إن فعل ، لم يوقف نموها فحسب ، بل يقضي على حياتها .



شكل ١٠١ — شيشرون (النصف الأول من القرن الأول ق. م.) رسائل إلى أصدقائه Ad familiares (روما : Sweynheym و Pannartz ١٤٦٧) (بإذن من مكتبة جون ريلاند ، مانشستر) . وعندما علم Coluccio Salutati (النصف الثاني من القرن الرابع عشر) في سنة ١٣٨٩ أن مخطوط ڤيرونا ومخطوط (Vercelli) اللذين يحتويان على رسائل شيشرون كانا في ميلان ، طلب نسخ مخطوط Vercelli واكتشف أنه يحتوي على رسائل شيشرون إلى أصدقائه . وفي سنة ١٣٩٢ تسلم نسخة من مخطوط ڤيرونا (الذي اكتشفه بترارك. ومخطوط Vercelli الأصل والنسختان اللتان عملتا لسالوتاتي موجودتان الآن في المكتبة اللورانتية في فلورنسة . وكان سالوتاتي أول رجل في العصر الحديث عرف ضخامة رسائل شيشرون .

قيصر :

لم يحترف قيصر الكتابة كما فعل شيشرون، ولكنه لم يجد صعوبة في التأليف ، لأنه تلقى تعليماً جيداً جداً . وكان يجيد حقاً لغتين[٣٦] . كان رقيق الشعور ، ميالا إلى الأسلوب الأتيكي ، ومحباً للأدب .

كان أسلوبه سهلا لا التواء فيه، ولما كانت مؤلفاته تروي أعماله الحربية . فهي تحكي قصة حياته . كان أولا وقبل كل شيء رجل عمل وقائداً يجب عليه

أن يقتنص الفرص العابرة ، وأن يفيد منها أعظم فائدة ، وقد أسبغ هذا على أسلوبه سلاسة وقوة . وهذا هو السبب فى أننا نلحظ صفات مشابهة فى كتابات رجال آخرين من الطراز نفسه ، مثل فردريك الأكبر ونابليون .

فلم يكن قيصر واحداً من كبار كتاب روما فى عصره فحسب ، بل كان فريداً فى الأدب اللاتينى ، وقد خلفت تعليقاته Commentaries نوعاً جديداً من الأدب .

م. ت. ڤارو :

تحدثنا عن حياة ماركوس ترنتيوس ڤارّو عندما تكلمنا عن رسالته فى « الزراعة » ، ولكنه يحتل مكاناً رفيعاً فى الأدب بما وضع من مؤلفات أخرى مفقودة . ولد ڤارو قبل مولد لوكريتيوس وقيصر وشيشرون ، وعاش ما يقرب من تسعين عاماً فعاصرهم وعمَّر بعدهم سنين طويلة ، ولذلك يتراءى للمرء أنه ينتسب إلى جيل متأخر . وقد عاش حتى أدرك أوائل عصر أغسطس ، ففى السادس عشر من شهر ينايرسنة ٢٧ ق.م . منح مجلس الشيوخ أوكتاڤيانوس لقب « أغسطس » ، وفى هذه السنة مات ڤارّو .

لم يكن من أساطين الأدب كما كان شيشرون ، ولا حتى قيصر ، ولكنه كان يلم بعلوم متنوعة وخصباً لدرجة لا تصدق . وقد روى أولوس جيليوس[٢٧] (النصف الثانى من القرن الثانى) فى شىء من المبالغة فى الغالب أن ڤارّو عندما بدأ السنة الرابعة والثمانين من عمره كان قد وضع ٤٩٠ كتاباً[٢٨] ، وأنه استمر يكتب أو يملى ما يقرب من ست سنوات أخر ، ومهما تكن نتيجة هذه الجهود ، فلم يهرب من ظلام النسيان غير سبعة فقط من مؤلفاته . ولم يصل إلينا غير اثنين من هذه المؤلفات السبعة : أحدها رسالته الزراعية التى نوقشت فى الفصل الواحد والعشرين ، وثانيها بقية من كتابه عن اللغة اللاتينية سنناقشه فى الفصل التالى .

أما الكتب الخمسة الأخرى فسنعرض لها الآن بحسب ترتيبها الزمنى فتتضح أهميتها إن نوقشت فى ضوء القرن الثانى فى العالم اليونانى الرومانى .

١ — (الهجائيات المينيبية) Satrarum Menippearum libricl . هذه، ليست هجائيات بالمعنى المتعارف لهذه الكلمة، ولكنها مقالات نثرية مزجت بالشعر ، على نحو النموذج الذى تركه الفيلسوف الكلبى ،مينيبوس[٢٩] . وهى مقالات فكاهية أكثر منها هجائية مريرة ، على الرغم من أن أحد أهدافها على ما يظهر ، كان التشهير بالترف وغيره من النقائص الاجتماعية . وقد كتبت بين عامى ٨١ و٦٧ .

٢ — (الآثار الإنسانية والمقدسة)

Antiquitatum rerum humanarum et divinarum libri XLI.

كان هذا تاريخاً للآثار غير الدينية (٣٥ كتاباً) والآثار المقدسة (١٦ كتاباً) . وقد وضع فى سنة ٤٧ . وبحث فى الفصل الرابع والعشرين.

٣ — Logistoricon libri LXXVI ، [٣٠]محاورات كتبت بعد سنة ٤٥ فى موضوعات كثيرة . وإذا أصدرنا حكمنا قياساً على ما وصل منها إلينا ، فإننا نقرر أنه كان لكل محاورة عنوان مزدوج ، مثل «كاتوس ، عن تنشئة الأولاد » ، «ماريوس ، عن الحظ » ، «أتيكوس ، عن الأعداد ، (pius) عن السلام[٣١] » .

٤ — (هيبدوماد أوالصور) Hebdomades vel de imaginibus libri XV

وقد كتب سنة ٣٢ . والكلمة الثانية من العنوان ، وأعنى بها الصور ، توضح هدفه الرئيسى : فهى مجموعة من سبعمائة صورة لمشاهير اليونان والرومان ، وهى فى الغالب لمحات قصيرة لكثرة عددها . ويقول پلينى[٣٢] : إن النص كان مزيناً بسبعمائة صورة . وهذا ممكن ولكنه عجيب ! ومن الممكن أن أحد المخطوطات كان مزخرفاً على ذلك النهج (؟) وكلمة هيبدوماد التى ذكرت فى العنوان أولا تعيد إلى ذاكرتنا أهمية العدد سبعة أو الدورة السبعية[٣٣] .

٥ — Disciplinarum libri IX . أشرنا آنفاً إلى مناهج Disciplinae ڤارو ، وقد كان نوعاً من الموسوعات أو المجموعات التى تشتمل على الدراسات

الملائمة للسيد الكامل ، كل الفنون الحرة ، لتمييزها من المعلومات العملية مثل الزراعة والطب وإدارة الأعمال .

تعالج كتبه الأخرى التاريخ والقانون والجغرافيا والموسيقى والطب وكثيراً غيرها كان علامة تواقاً إلى جعل المعارف اليونانية فى متناول إخوته من الرومان الذين كانوا فى حاجة إليها ، وكان يتحرق شوقاً إلى توضيح ماضى الرومان الدينى وغير ذلك . مثال ذلك أنه استمر فى الدراسات التى بدأها أستاذه ستيلو [٣٤] لمسرحيات بلاوتوس الكوميدية . لم يتمكن من بحث أى شيء بحثاً عميقاً ، لأن الحقل الذى بدأ فى حرثه كان كبيراً جداً ، ولكنه أشبع حاجة حقيقية ماسة : لقد فسر الآثار اليونانية والرومانية للجماهير المتزايدة من المواطنين اللذين لم يكن فى استطاعتهم أن ينهلوا من المورد الأصلى . ولقد أدى على مستوى أقل مما كان شيشرون يؤديه على مستوى أعلى ، وجهود كلا الرجلين متساوية فى نفعها .

عرف فضل ڤارو بين معاصريه ، وفى مقدمتهم شيشرون ، وعرف بعد ذلك على درجة أكثر عند رجال أمثال القديس أغسطين (النصف الأول من القرن الخامس) وكان يرقب نور الحضارة القديمة وهو يخبو . وبعد ذلك بزمن طويل ، وفى وقت دانتى ، كان يعتبر أحد كبار العلماء ، فى زمرة شيشرون وڤرجيل . وقد يذهلنا ذلك ، ولكن يجب ألا ننسى أنهم عرفوا عن علمه أكثر مما نعرف .

لم يناقش ڤارو فى الفصل السابع عشر (الفلسفة) ، لأنه لم يكن فيلسوفاً بالمعنى الاصطلاحى الدقيق ، بل هو لا يسمو حتى إلى مرتبة شيشرون ولوكريتيوس ، وإن كان مفكراً جاداً ، شديد الاهتمام بمشكلات الحياة الأساسية .

مثال ذلك : يشير القديس أغسطين [٣٥] إلى أن ڤارو بحث فى الخير الأسمى [٣٦] Summum bonum ويبين أن هناك مائتين وثمانية وثمانين رأياً فى هذا الموضوع . وقد حلل هذه الآراء ، ووجد أن الفرق بينها كثيراً ما

يكون ظاهريًا . وردها من ١٨٨ إلى اثنى عشر ، ثم إلى ستة ، وأخيراً (مثله فى ذلك مثل شيشرون) إلى ثلاثة . فالخير الأسمى إما أن يكون خيراً للجسد ، وإما أن يكون خيراً للروح وإما أن يكون لكليهما . ووقع اختياره فى النهاية على الفرض الأخير . وأجازت الأكاديمية هذا الرأى ورفضه الرواقيون .

ساللوست :

عرضنا لكل من ساللوست وليڤى فى الفصل الرابع والعشرين . ولكن ينبغى هنا أن نبرز خصائصهما الأدبية ، ولعله السبب الرئيسى فيما بلغا من شهرة وما خلفا من أثر . كان كل منهما متمكناً من النثر اللاتينى ومبدعاً فى خلق قدر من أجود الأمثلة فى عصره الذهبى . كانا متعاصرين مثل الآباء والأبناء ، فعندما توفى ساللوست سنة ٣٤ ، كان عمره اثنين وخمسين عاماً وعمر ليڤى ٢٥ سنة . غير أن الاختلاف فى الزمن أعظم بكثير فى الواقع مما يمكن أن يستنبط من عدد السنين .

كان ساللوست أقرب إلى قيصر وشيشرون ، فى حين كتب ليڤى معظم مؤلفاته فى عصر أغسطس . ولم يمت إلا سنة ١٧ ق.م فى عهد تيبريوس .

وقد حذا فى أسلوبه ووجهة نظره التاريخية حذو ثوكيديديس ، وحاول أن يحاكى حياد المؤرخ اليونانى . أما أسلوبه فوجز واضح ودرامى . وأهم ما يميزه قدرته على تصوير الشخصيات مباشرة . أو بواسطة خطب يفترض أن الشخص ألقاها ، وهى توضح أهواءه ونقائصه ، أعنى شخصيته . ولقد اشتد ولوعه بالإيجاز والتعبير فى قوة حتى أضحت بعض جمله هجائية . مثال ذلك أنه يقول : « إضاعة ثروة الآخرين يسمى (الآن) جوداً ، وفى التهور الإجرامى شجاعة » . أو « الصداقة بين الأخيار تآمر بين الأشرار[٣٧] » وهذان المثالان يبينان أيضاً ميله إلى المقابلة بين الألفاظ والأفكار ونزعته السيكلوجية . فقد عنى الجد وأصابه شىء من خيبة الأمل فوجد عزاءها فى الصراحة والمرارة الأدبية .

ليڤى :

كان پوليبيوس وشيشرون أهم نموذجين حذا حذوهما . وهو من الناحية الفنية أعلى بكثير من الأول ، وإن كان أقل علماً ، ونظرته إلى التاريخ خطابية ، أما هدفه العام فهو تبرير ما نالت روما من مجد . إن « عقوده » (Decades) لا تقل عن الإنيادة من الناحية القومية ، ولكن بينما استخدم ڤرجيل الشعر ، كتب ليڤى نثراً ، ونثره أبلغ نثر شيشرونى يمكن الوصول إليه ، وكان مخلصاً إخلاص المواطن الصالح ، وإن كان هذا لا يكفى لباحث محقق فقد كان الرومان ، كما وصفهم ، أحسن بكثير مما فطروا عليه ، كان يرغب فى تثقيف قرائه وتحسين أخلاقهم . فاستخدم التاريخ كمرآة تريهم أنفسهم كأحسن ما كانوا ، وفى وسعهم أن يستعيدوا مجدهم إن كانوا جديرين بأجدادهم .

وأمثال هذه الوسائل لا تلائم اليوم أذواقنا ألبتة . وقد فقد ليڤى كثيراً من مكانته . والحق أن الباحثين المحدثين قلما يستطيعون احتماله . ولكنه أعطى الرومان فى عصر أغسطس ما كانوا فى حاجة إليه . فنال تاريخه من القبول مثل ما نالت الإنيادة . وعندما أراد قوم فى العصور المتأخرة إحياء مجد روما وكرامة الرومان ذهبوا إلى ليڤى الذى أعجبوا به إعجابهم بشيشرون وڤرجيل . وقد امتدحه دانتى[٣٨] وعلماء عصر النهضة الذين كان مزاجهم يستطيع أن يقدر نظرته الخطابية للتاريخ وخصائصه الأدبية . وليس لدينا هذا المزاج ، وليس فى وسعنا أن نستعيده مرة أخرى .

شعراء الرومان فى عصر أغسطس

مايكيناس :

بينما ترك لنا ليڤى أحسن صورة لعصر أغسطس فى النثر اللاتينى فإن بهاء هذا العصر الأدبى إنما يتمثل حقاً فى شعره . وقبل أن نقدم على تحليل

معروضاته الشعرية ، يحسن أن نقف ولو دقيقة واحدة عند رجل لم يكن شاعراً ، ولكنه كان صديق الشعراء ، ولم يكن كاتباً خلاقاً ، ولكنه كان راعى الأدب فى زمن أغسطس ، كان عظيماً فى إخلاصه للفنون والآداب ، حتى إن اسمه أصبح علماً يطلق على خلفائه . فعندما نرغب فى تقديم أعظم تكريم لمن يرعى العلوم الإنسانية ، فإننا نسميه مايكيناس[٣٩] .

فمن هو مايكيناس الأول ؟ أول ما يثير الدهش أن يعلم المرء أن جايوس مايكيناس لم يكن سليل الطبقة الأرستقراطية الرومانية ، وإنما كان من أصل إتروسكى ، وقد يساعدنا هذا على تذكر أن أبناء الجمهورية الرومانية الأشداء تعلموا على أيدى الإتروسكيين قبل أن تتفتح أمامهم ذخائر اليونانيين . كان والد مايكيناس وجده مواطنين رومانيين ، وكانا ينتسبان إلى طبقة الفرسان . ونحن نعرف بالتحديد اليوم الذى ولد فيه وهو الثالث عشر من أبريل،[٤٠] لاندرى السنة بالدقة (لعلها حوالى ٦٨) . وقد تلقى أحسن تعليم فى اللغة اليونانية واللاتينية ، وألف قطعاً نثراً وشعراً . وقد تعرف إلى أوكتافيوس الأبوللونى (من أعمال إلليريا) قبل موت قيصر ، ولم يعرف أنه صديق[٤١] له إلا سنة ٤٠ وتمت صداقتهما منذ ذاك التاريخ ، واستخدمه أوكتافيانوس مستشاراً ونائباً دبلوماسياً ، واستعمله الإمبراطور كاتم سره الأمين. وكما كان أجريبا يد أغسطس اليمنى فى شئون الحرب والأشغال العامة . كان مايكيناس مستشاره الأول فى الآداب الشعبية والإنسانيات ، ولم تكن هذه وظيفة بالمعنى المتعارف ؛ ولكنها كانت ذات أهمية ضخمة ، وقد قام بأعبائها على أحسن وجه . كان مايكيناس صديقاً لهوراس ولفرجيل ولپرو پيرتيوس ، وكان يرعاهم باسم الإمبراطور واسمه خاصة ، وقد توفى فى سنة ٨ ق.م ، موصياً بكل ضياعه الشاسعة إلى أغسطس .

من المحتمل أن مايكيناس كان من أتباع أبيقور ؛ كان ماداتاً جواداً . وكانت رعايته المستنيرة للآداب ، أساساً ، صورة من الرعاية الإمبراطورية .

وأية رعاية أخرى لم تكن لتمتد طوال سيادة أغسطس . وجدير بنا أن نعترف بأن أغسطس أتيح له رجل صالح لتنمية مجد حكمه الأدبى .

فرجيل : (٧٠ – ١٩) :

ظهر أعظم شاعرين فى روما القديمة . فرجيل وهوراس ، كما ظهر مشجعاهما ، أغسطس ومايكيناس ، إلى عالم النور خلال سنوات قليلة جدا (٧٠ – ٦٣) . وكان أغسطس أصغرهم ، وربما كان فرجيل أكبرهم ، وقد سبق أن تحدثنا عنه بمناسبة « الزراعيات » ، ولكن يجب أن نعود إليه ، وأن نحفل به فى عنايته على قدر ما يسمح به إطار كتابنا ، هذا لأن شخصيته من أعظم الشخصيات التاريخية فى الغرب كله . فهو ينتسب إلى مجموعة صغيرة جداً من الشعراء العالميين ، هاهو ذا يقف بين هوميروس ودانتى ، فليس هناك شعراء آخرون يتساوون معهم ، على الرغم من أن البرتغاليين قد يذكرون اسم كامويس Camoes والانجليز والبروتستانت ميلتون .

والعلاقة بين فرجيل وهوميروس متينة جداً ؛ لأن الأول حاكى الثانى . فهذا مثل جديد ، بل هو أعظم مثل يبهر الألباب ، لاعتماد العبقرية الرومانية على العبقرية اليونانية . وكما شرح لوكريتيوس وشيشرون الفلسفة باللغة اللاتينية ، فكذلك أبدع فرجيل ملحمة لاتينية حاذى فيها النماذج اليونانية ، أعنى الإلياذة والأوديسا . ولعل العلاقة بينهما كانت أعمق وأوثق . وأعجب القدماء بهوميروس أيما إعجاب وعرفوا أشعاره معرفة جيدة ، حتى إن الباحثين من الرومان ذهبوا إلى ذلك الاعتقاد الخرافى ، وهو أن روما أسسها سلالة الملوك من الطرواديين ، فكانت الإلياذة أول تطور تام لهذه الخرافة ، وبالتالى كانت الإلياذة مقدمة ، لا للتاريخ اليونانى فحسب ، بل وللتاريخ الرومانى أيضاً .

ولد فرجيل (Publius Virgilios Maro) فى منتصف شهر أكتوبر (١٥ من أكتوبر) سنة ٧٠ ، فى قرية بالقرب من مانتوا من أعمال فينيسيا Venetia

شمال نهر البو . وكان أبوه مزارعاً صغيراً كسب عيشه من تربية النحل وتوافر لديه مال يكفي لإرسال ابنه — الذى لاحت عليه أمارات الذكاء — فى سن الثانية عشرة إلى مدرسة جيدة فى كريمونا . ونجد فرجيل هناك وهو يحتفل بعيد ميلاده الخامس عشر (١٥ من أكتوبر ٥٥) بارتداء « التوجا toga virilis» (عباءة الرومان) المعدة للرجال ، أعنى أنه أصبح يعتبر رجلا وهو فى الخامسة عشرة ، أقل بقليل من السن المعتاد . وقد ذهب فى السنة ذاتها إلى ميلان لفترة قصيرة ، ثم إلى روما لإتمام دراسته ، وخاصة الريطوريقا ، ومن المحتمل أنه درس علم الفلك والطب ، وبعد ذلك بقليل أصبح تلميذاً لسيرو الأبيقورى . وبدأ اهتمامه بالشعر مبكراً جداً تحت تأثير شعراء الإسكندرية وكاتوللوس الذى حاكاهم ، ولوكريتيوس بوجه خاص . ومن المحتمل أنه كان فى روما قبل الفترة الممتدة من ٥٣ إلى ٤٦ وأثناءها وبعدها . ونستطيع أن نتخيل الاضطراب والارتباك الذى يصيب شاباً مرهف الحس ، معتل الصحة كالغريق فى المدينة العظيمة ، مواجهاً لآلام الحرب الأهلية والفساد السياسى ، وفى وسعنا أن نتخيل أيضاً حنينه إلى الأرض الحلوة مسقط رأسه ، وقد عاد إلى ما نتوا حوالى سنة ٤٤ أو ٤٣ . ومن سوء الحظ أنه بعد قليل (سنة ٤٢) صودر ذاك الجزء من إيطاليا (وفيه مزرعة أبيه) ليوزع على قدماء المحاربين فى الحرب الأهلية . فعاد فرجيل إلى روما لينال بعضاً من التعويض .

وبعد أن وضع أوكتافيانوس حدا لهذا الاضطراب ، كان فرجيل على استعداد أن يبجله ؛ وقد حظى برضا مايكيناس بسرعة واستمتع بصداقة هوراس . أما مزرعته فلم تعد إليه ، ومنح بدلا منها فيلاً فى نولا[٤٢] . كان هذا حادثاً فاصلا ؛ فقد أحب فرجيل كامبانيا وخليج نابلى أكثر من مسقط رأسه ، وليس ثمة شاهد على أنه عاد قط إلى مانتوا . لقد كتب الرعويات Bucolica على ما يظهر ، بين سنتى ٤٢ و ٣٧ ، وكان ذلك فى روما . ولكن الزراعيات نظمت فى نولا بين سنتى ٣٦ و ٢٩ ، أما الإنيادة فقد دبجت فى نولا وكوماى Cumae

وإذن فإن أهم ما أبدع من ثمار حياته كان فى كامبانيا . وياله من قطر يحيا فيه شاعر ، قطر يزخر بالجمال الطبيعى والذكريات المجيدة . وقد أعطى القارئ فكرة عن هذا فى الفصل الخاص بحقول فليجرا Phlegra ومن شاء أن يرى : فرجيل على حقيقته، فليبحث عنه هناك فى الأرض التى اكتملت فيها عبقريته ؛ فى مسقط رأسه .

الإنيادة[٤٣] :

هى قصة أينياس أحد أمراء البيت المالك فى طروادة ، وتطوافه بعد الاستيلاء على مدينة آبائه وأجداده . طاف هو ورفقاؤه سبع سنوات من الإقليم الذى تقع فيه طروادة إلى تراقية وكريت وإبيروس وتارنت وصقلية وقرطاجة ، ثم عاد ثانية إلى صقلية فكوماى ، وهناك استشار سيبيل Sibyl ولا تيوم وتزوج لا ڤينيا ابنة الملك . وهذه أسطورة عن أصول روما السحيقة ، كأساطير نايڤيوس وإنيوس ، وإن زاد فيها ڤرجيل كثيراً من علمه وحماسته . وكان هدفه أن يكتب الملحمة القومية لوطنه ، كما كان يرمى إلى منافسة اليونان . لقد حاكى فى كتابتها الإلياذة والأوديسيا ، واستعار كثيراً من شعر اليونان الآخرين ، كما استعار من شعراء روما الذين ذكروا منذ برهة .

وتقسم الإنيادة إلى اثنى عشر كتاباً ، كلها من طول واحد تقريباً[٤٤] ولو حاولنا تلخيصها لكان ذلك أمراً شاقاً . وإذا نظرنا إليها على أنها قصة إخبارية ، بدت محيرة ومخيبة للأمل . لتفككها وتبعثرها ، تنتقل بالقارئ هنا وهناك فيضل الطريق ، وبدلا من أن يسير وراء الشاعر فى تيه الحوادث التى لا حصر لها ، يفضل أن نشير إلى خصائص العمل كله .

بعد كثير من المتاعب وصلت الدولة الرومانية إلى ذروتها وأصبح الوقت ملائماً لتعليل ذلك وتبريره . فلم تتم عظمة روما مصادفة ، وإنما جاءت نصراً محتوماً لتطور ترعاه الآلهة . وفكرة ڤرجيل الغريبة أن يفهم تطور المجد الرومانى كما فهمه بطله أينياس كنبوءة الذى عاش قروناً عديدة قبل ذلك . فجد

روما ومجد الإمبراطور أغسطس ضما معاً فى تصور واحد .

وكثير من الإنيادة يبدو فى نظر القارئ الحديث وعليه مسحة كبيرة من الصنعة ، وينبغى أن يضع نفسه فى موضع الإنيادة الأول ، أغسطس وأصدقاؤه . فمعرفتنا بالتاريخ القديم والميثولوجيا والأساطير قليلة جداً حتى إننا لا نستطيع أن نتابع الشاعر دون الاستعانة بعدد كبير من الهوامش ، والقراءة ، مع كل تلك الوقفات ليست ممتعة . أما المثقفون الرومانيون فكانوا يستمتعون بسرور مزدوج ، أولا لأن ذلك يطلعهم على الذكريات اليونانية ، وثانياً لأنه يتيح لهم الكشف عن مصائر الرومان ، وتحقيق رغبات الرومان وطموحهم .

وبعد كل هذا ينبغى أن نعترف بأن ميثولوجيا ڤرجيل جافة ، وآلهته والإلاهاته نماذج تقليدية ولا حياة فيهم ، أو هم يسلكون مسلك سادة الرومان ويتحدثون مثلهم ، وقليل من دبت فيهم الحياة فعلا وأصبحوا حاكين . وإنى لأتذكر ديدو(**) التى كانت متحركة حقاً ، فهى ، إلى حد ما ، أينياس نفسه « أينياس الورع » .

وننتظر من شعر الملاحم أن يكون بسيطاً لا تكلف فيه . ولكن الإنيادة مليئة بالتكلف . ويكاد يكون من المحال أن تقرأ من أولها إلى آخرها ، وتحتوى مع هذا على كثير من الحوادث المؤثرة وعدد كبير جداً من الأبيات الرائعة . ولطالما بقيت اللغة اللاتينية لغة حية ، كان المثقفون يحفظون كثيراً من هذه الأبيات عن ظهر قلب ويستطيعون الاستشهاد بها دون ما حاجة إلى مرجع . كان كل إنسان يعرفها كما يعرف الإنجليز أبياتاً من شكسبير دون أن يستطيعوا فى كثير من الأحوال أن يردوها إلى موضعها من مسرحياته . ولم تكن هناك حاجة إلى ذلك ، كانت تلك الأبيات جميلة فى ذاتها ، وكان من البهجة الكبرى أن يستهديها الإنسان نفسه ، أو أن يتعرفها توًّا فى أقوال أصدقائه وكتاباتهم .

وقد قصد درس كثير من الإنيادة ، كما يدرس لوكريتيوس . مثال ذلك :

يبدأ الكتاب السادس بوصول أينياس إلى بلدة كوماى ، ثم يتبادل الرأى مع سيبيل ويرجو أن يسمح له بزيارة الدار السفلى : فهذا الجزء يتحول إلى رسالة فى فلسفة الأخرويات ، يشرح نظرية الثواب والعقاب بعد الموت ونظرية الفيثاغوريين فى التناسخ ، ورأى الرواقيين فى روح العالم . ويحوى هذا الكتاب كذلك أحسن عرض لعظمة روما الحالية والمستقبلة . ولا بد أن كل مواطن أنشد بفخر وسرور الأبيات التالية :

"Tu regere imperio populos; Romane, memento;
hac tibi erunt artes, pacique imponere morem,
parcere subjectis, et debellare superbos".

وأبيات كهذه رفعت ڤرجيل فوق كل شاعر آخر فى العصر الرومانى ، لقد أحيت الإمبراطورية ، ولكنها خلدته .

وقد لوحظ أن الإنيادة تختلف اختلافاً جوهرياً عن الملاحم اليونانية فى أنها مليئة بالورع الدينى والجد الأخلاقى ، تهتم بتطورات أينياس والحروب الأهلية ، وتهتم فوق هذا وفى عمق بالحجج والحرب المقدسة . وفى نظر ڤرجيل كانت الديانة الرومانية جزءاً أساسيا من الإمبراطورية الرومانية، ولا تستطيع هذه الإمبراطورية أن تقوم بدونها . وعلى الرومانى أن يكون ورعاً كأينياس، قوياً مثل أغسطس[٤٧] .

من أحسن المعالم طرافة فى الإنيادة حب الشاعر للطبيعة (فبعض أبياتها يمكن أن يقارن بأبيات من الزراعيات والرعويات) وحبه للإنسان ، أعنى حنانه ورقته . لم يكن ورعاً فقط ، وهذا حسن ، بل كان رحيماً أيضاً من سويداء قلبه ، وهذا نادر . وأمثال هذه الصفات ذات قيمة كبرى فى السنين القاسية ، والعصر الذى عاش فيه ڤرجيل لم يكن عصراً ذهبياً ، بل عصر دم ودموع ، عصر قسوة ووحشية[٤٨] . ولا يستطيع المرء أن يوفى ڤرجيل حقه من الثناء لأنه نشر مثلا علمياً أفضل مما عرف فى زمانه ، كان أعظم ناشر للحضارة فى زمانه ومكانه ، واستمر كذلك طوال العصور .

استغرق فرجيل فى وضع أعظم مؤلفاته إحدى عشرة سنة (٣٠ — ١٩) بدأ فى تأليفها فى كاستانيا، أو من الجائز أثناء زياراته المؤقتة لصقلية . وبقى كثير منها دون التمام . وكفنان ماهر ، كان غير راض عن كثير من الأبيات وكان يرغب فى أن يستبدلها بأحسن منها . ولم يرض عن الكتاب الثالث خاصة وهو الذى يصف رحلة أينياس ، وشاء أن يزور اليونان وآسيا ليتمكن من إضافة تفاصيل وألوان إلى الصورة الأساسية . فسافر سنة ١٩ وفى نيته أن يخصص ثلاث سنوات لهذه الرحلة ، ولكنه مرض فى ميجارا واستطاع بصعوبة أن يصل إلى أثينا ، وحين ذلك كان أغسطس ينوى العودة إلى بلاده بعد أن أمضى إجازة عامين فى بلاد اليونان ، وأدرك أن الشاعر لم يكن فى حال تسمح له بالاستمرار فى رحلته وأقنعه بالعودة معه . وبعد رحلة شاقة نزلا فى برنديزى ، وكان فرجيل إذ ذاك مريضاً جداً ، ضاق صدره فأمر بإبادة مؤلفه ، وقد توفى فى برنديزى قبل أن ينفذ هذا الأمر فى الحادى والعشرين من شهر سبتمبر سنة ١٩ق.م .

ودفن طبقاً لرغبته فى قبر يبعد عن نابلى قدر ميلين على الطريق إلى بوزوولى ، وقد ذهبنا مع القارئ إلى مكانه فى فصل سابق .

وقد أهمل أغسطس أثناء حكمه تنفيذ رغبته فى إبادة الإنيادة ، بل على العكس أمر صديقين من أصدقاء فرجيل هما لوكيوس ڤاريوس روفوس وبلوتيوس توكا أن يراجعاها ويقوما على نشرها ، ولم يضيفا شيئاً إليها واقتصرت مراجعتهما على تصحيحات طفيفة .

ولما كانت شهرة فرجيل قد استقرت قبل وفاته ، ولما كان الإمبراطور نفسه عده شاعر روما الذى سما على كل الشعراء الآخرين ، فقد قامت رواية شعره على أسس متينة منذ البداية .

فألقيت محاضرات عامة عن عمله بعد وفاته بوقت قصير ، ألقاها كوينتوس كايكيليوس إيبروتا Epirota ،[٤٩] رئيس مدرسة روما منذ سنة ٢٦ ق.م. كانت أمثال هذه المحاضرات وقفاً على هوميروس أو على مؤلفين يونانيين آخرين وكان

إيبروتا أول من اهتم بشاعر رومانى .

هناك سببان للاحتفاء بڤرچيل : أولهما وأحسنهما أنه كان شاعراً عظيماً وشاعراً قومياً ، وثانيهما علمه ، وعلمه فى الإنيادة من ذلك الطراز الذى يجتذب فى قوة نقد النحاة والشراح . فشرحها أيليوس دوناتوس (النصف الأول من القرن الرابع) ودوناتوس هذا من كبار النحاة المشهورين ، واسمه دونات Donat أو دونيت Donet أصبح يفيد النحوى . ووضعت لها شروح أخرى . وقد جمع كل تلك التعليقات سيرڤيوس الذى ازدهر فى القرنين الرابع والخامس . واستخدمت مجموعة سيرڤيوس فى الأغراض المدرسية ، وهذا يوضح جانباً آخر من شهرة ڤرچيل ، فقد أصبح منذ زمن مبكر كلاسيكياً ، بمعنى أن مؤلفاته استخدمت فى فصول الدراسة وتثقف بها بعض الأطفال ، وعانى منها كثير غيرهم .

وقد اعتبر ڤرچيل مبشراً بالمسيح ، لما عرف به من رقة وورع ، ولتنظيمه الرعوية المسيانية No. IV, 40 B.C. ، وكذا ذاع شعره فى الدوائر المسيحية . وقرئت مؤلفاته ، فى حين كان رجال الكنيسة يعلنون سخطهم على بعض المؤلفين الوثنيين ولا يستحبون قراءة مؤلفاتهم . ولهذا لم تنقطع رواية شعره ألبتة فى الغرب اللاتينى ، ومن الأمثلة الأولى على ما ناله من تكريم استخدام دانتى له رائداً فى الجحيم وجهنم .

كانت شهرته فى القرون الوسطى من الذيوع بحيث تحولت إلى أساطير وخرافات . فأصبح شخصية أسطورية : رجلا أوتى حكمة أعلى من البشر ، أصبح ساحراً ، أو محضر أرواح[٥٥] . واستخدم الجهال من المعجبين به شعره ليجمعوا منه مختارات Centos ، قصائد كلها أبيات من ڤرچيل أو أنصاف أبيات نسقت على نهج يجعلها تؤدى معنى لا يمت إلى ڤرچيل بصلة . وفى النهاية استخدم أناس كثيرون أشعاره . ولا سيما الإنيادة — لاستطلاع الغيب من أول كلمة أو من البيت العاشر فى صحيفة تؤخذ اعتباطاً . وهذه العرافة تسمى نبوءات ڤرچيل Srtes Voirgilianac . وقد لجأ الناس إلى مثل هذا

فى الإنجيل Sortes Sanctorum والقرآن ، وأشعار حافظ *(النصف الثانى من القرن الرابع عشر)[٥١] .

ومخطوطات فرجيل أفضل شاهد على أن رواية شعره استمرت من العصر القديم دون انقطاع . فليس هناك مؤلف لا تينى آخر وصلنا من مؤلفاته هذا العدد الكبير من المخطوطات ؛ ويرجع سبع منها على الأقل إلى الفترة التى تمتد بين القرن الثانى والسادس ، وكلها كتبت بحروف كبيرة دون ترك فاصل بين كل كلمة وأخرى ، على لوحات من الجلد فى صورة مجلدات codices وهناك عدد كبير من المخطوطات كتبت بالحروف الصغيرة فى عصر الكارولينجيين (القرن التاسع) ، وفى ذلك التاريخ كان نص فرجيل قداستقر تماماً .

والأمر الثانى الذى لا بد من بحثه هو الطبعات الأولى ، لا لأن الزراعيات كتاب علمى فحسب وواحد من أهم المؤلفات فى عصره ، بل لأن فرجيل أحد الشخصيات المبرزة فى ثقافتنا . وأقامت الطبعات الأولى الرواية على أساس لا يفنى[٥٢] .

وقد جمع سوينهيم وبانارتز أعمال فرجيل كلها (Opera)فى طبعة أولى روما ١٤٦٩ (شكل ١٠٢) . وجاء بعدها طبعتان أخريان فى فترة لا تزيد على السنة ، (ستراسبورج ١٤٦٩-١٤٧٠ البندقية ١٤٠) . وبلغت الطبعات فى القرن الخامس عشر ٩١ طبعة ، وفى القرن السادس عشر ١٨٤ ، وفى القرن السابع عشر ٨٢ ، والطبعات التى أعدها Nicklaas Heinsius (أمستردام ١٦٦٤ و ١٦٧١ و ١٦٧٦) هى بداية الطبعات النقدية .

وظهرت أول طبعة من « الرعويات » و « الزراعيات » معاً فى باريس فى سنة ١٤٧٢ ، ومن الزراعيات وحدها فى ديفنتر حوالى سنة ١٤٨٦ .

وأقدم ترجمات طبعت هى كما يلى : الإنيادة ، إلى الإيطالية (Vicenza) ١٤٧٦) . والزراعيات (حوالى ١٤٩٠) ، الإنيادة إلى الفرنسية (ليون ١٤٨٣) وإلى الإنجليزية Book of Eneydos compyled by Vyrgyle (لندن ، وليام

* هو شمس الدين محمد حافظ الشاعر الغنائى الفارسى ، وكان مفيداً فى وصف مشاهد الحب . توفى عام ١٣٨٩م. الناشر

كاكستون، ١٤٩٠ (شكل ١٠٣، الإنيادة إلى اللغة الألمانية (ستراسبورج ١٥١٥) ، الزراعيات (Görlitz) (١٥٧١ — ١٥٧٢) ، الإنيادة إلى الإسبانية (أنتويرب ١٥٥٧) ، والزراعيات (سالامانكا ، ١٥٨٦) الإنيادة إلى اللغة البولندية (كراكاو ، ١٥٩٠) .

وهذه الإشارات القصيرة كافية للدلالة على أنه فى عام ١٦٠٠ كان من السهل أن يقتضى المرء نسخة مطبوعة من ڤرجيل، لا فى اللغة اللاتينية وحدها (٢٧٥ طبعة) . بل فى ست لغات أخرى .

هوراس : (٦٥ — ٨) :

لا تفوق شهرته كشاعر رومانى إلا شهرة ڤرجيل إلا أنه لم يكن محبوباً مثله ، ولم يقل أحد إنه كان ساحراً ، وكل من ألم باللغة اللاتينية إلماماً كافياً وفاه حقه من الإعجاب والتبجيل ، وحتى القرن الماضى ، كان يصدق ذلك على كل مثقف . أبدى مرة حيرته من مغزى الشهرة وفى نهاية رسائله ، خاطب أحد كتبه قائلا : ربما تترك أصابع العامة آثارها القذرة فيك ، أو تصبح طعاماً للعثة ، أو تنفى إلى أفريقية وإسبانيا . . . آه ، وربما أضمر القدر لك أمراً أشد فظاعة: قد تصبح أحد الكتب المدرسية التى يقرؤها المبتدئون فى ضواحى روما[٥٣] وقد نال هوراس هذا النوع من المجد . فهوراس أحد الكتاب الكلاسيكيين[٥٤] ، وقد أصبحت كتبه مختصرات مدرسية . وماذا نتوقع غير هذا ؟ أليس هذا هو الجزاء العام للعبقرية الأدبية فى كل مكان ؟

ولد كوينتوس ڤلاكوس هوراتيوس فى ڤينوسيا[٥٥] فى الثامن من ديسمبر سنة ٦٥ . وكان والده رقيقاً أولا ثم حرر وجمع مالا . وقد أرسل هوراس فى صغره إلى أحسن مدرسة فى روما ، ولاستكمال دراسته بعث به إلى أثينا ، وكان لا يزال بها سنة ٤٤ بعد مقتل قيصر بقليل ، وقد انتظم فى سلك جيش بروتوس فى رتبة نقيب للجنود tribunus militum (وبعبارة أخرى ماجور) .

وعندما هزم بروتوس وكاسيوس على يد أوكتاڤيان وأنطونيوس فى موقعة

فيلبي سنة ٤٢ ، عاد هوراس الصغير أدراجه (مهيض الجناح[٥٦] وأصابته عين الكارثة التى حلت بفرجيل ، وكان أبوه قد توفى أثناء ذلك ومزرعته قد صودرت[٥٧] فحصل على وظيفة كاتب Scriba quaestorius فى الحكومة وقرض الشعر وفاز بصداقة فرجيل وفاريوس[٥٨] ، ثم بصداقة ما يكنياس عن طريقهما . فسار وأوقف على الشعر وقتاً متزايداً ، وتسلم هدايا مختلفة ، منها مزرعته المحبوبة فى تيبور (تيفولى) بالحوض الأعلى لنهر أنيو على مقربة من روما . وبعد موت فرجيل ، أصبح الشاعر القومى المبرز. توفى فى السابع والعشرين من شهر نوفمبر سنة ٨ ق.م بعد موت حاميه ما يكيناس بشهور قلائل .

لا يمكن تحليل أعماله لأنها مجموعة من الأشعار نظمت فى فرص مختلفة وموضوعات متعددة . وكثير من تلك الأشعار يستحق وصفاً مستقلا ، ولكن من المحال التحدث عنها كلها . وقد استقى إلهامه من شعراء اليونان ومن لوكريتيوس وفرجيل . وبخاصة من الحوادث والشعور اليومى .

ونشرت أشعاره فى عدد من الكتب أو المجموعات . مجموعة الإيبود وتحتوى على ١٧ قصيدة نظمت بين سنتى ٤١ و٣١ ، والهجائيات فى كتابين وتحتوى على ١٨ قصيدة نظمت حوالى ٣٥- ٣٠ ، أربعة كتب من الأناشيد Carmina حوالى ١٠٣ قصيدة غنائية تتفاوت من ثمانية أبيات إلى ثمانين بيتاً . وفى إحدى هذه القصائد (٣ ، ٣٠) زعم (وهو محق فى زعمه) أنه قد شيد أثراً أطول عمراً من البرنز monumentum aere perennius . ثم جاءت الرسائل وهى خطابات شعرية ، يحوى الكتاب الأول منها ١٩ رسالة نظمت فى سنة ٢٥ ق.م ، ويحتوى الكتاب الثانى على خطابين طويلين ، الأول موجه إلى أغسطس حوالى سنة ١٣ فى الدفاع عن الشعر ، والثانى عن الأسلوب والتعليم حوالى سنة ١٨ . وقد بقيت قصيدتان مستقلتان لا بد من الإشارة إليهما ، نشيد الجيل Carmen saeculare وقد كتبه بأمر من أغسطس لألعاب الجيل سنة ١٧ لتنشده جوقة من البنين والبنات ، ورسالة فن الشعر Ars poetica التى نظمها فى أواخر حياته .

شكل ١٠٣ — ڤرچيل (النصف الثانى من القرن الأول قبل الميلاد) . أول طبعة من الإنيادة (فوليو ، لندن : وليام كاكستون ، ١٤٩٠) . هذا الكتاب نادر جداً ، استطاع سيمور دى ريتشى أن يتتبع تسع عشرة نسخة منه فحسب ، إحصاء لطبعات كاكستون ص ٩٨ — ١٠٠ . (أكسفورد، ١٩٠٩)،

شكل ١٠٢ — ڤرچيل (النصف الثانى من القرن الأول قبل الميلاد) الطبعة الأولى من مؤلفاته Opera (روما : Sweynheym ، Pannertz ١٤٦٩) . أول صفحة من رسالة الإهداء التى بعث بها الناشر ، الأسقف چيوڤانى أندريا دى بوسى إلى البابا بول الثانى .

وبعض هذه الأشعار غنائى محض ، وبعضها الآخر تعليمى يناقش التربية والتعليم والأخلاق العامة والخاصة والأسلوب ، وكانت وجهة نظره فى بادئ الأمر أبيقورية ولكنها امتلأت على نهج متزايد بالمذهب الرواقى ، كانت وجهة نظر الأحبار الهادئين فى زمانه وبعد زمانه ، مادامت لم تصححها المسيحية أو تحل محلها . لقد حمل عبء الدفاع عن الأخلاق وقواعد السلوك القويمة

دون ادعاء للبطولة ، ودن حماسة تزيد على الحماسة المؤدية لأى شىء . كان ڤرجيل إلى حد ما شاعراً علمياً ، وأحد المتخصصين الرومان فى الزراعة ، أما فى شعر هوراس فليس هناك شىء يمت إلى العلم ، ولكنه يعد بين مربى العالم القديم العظام . وفى أحسن أشعاره كانت لغته وعروضه تقتربان من الكمال وكثير من قصائده جواهر صغيرة بقيت متفردة ، لا فى الأدب اللاتينى فحسب ولكن فيما سواه من الآداب كذلك .

تيبوللوس وپروپيرتيوس :

يمكننا الآن أن نتحدث بإيجاز عن ثلاثة آخرين من شعراء العصر الأوغسطينى ، كانوا جميعاً أصغر من ڤرجيل وهوراس ، وهم تيبوللوس وپروپيرتيوس وأوڤيد . وقد ولدوا حوالى سنة ٥٤ و ٥١ و ٤٣ على الترتيب .

وقد توفى الأول والثانى قبل هوراس سنة ١٨ و ١٦[٥٩] ، وتوفى الثالث – وهو أوڤيد – بعد موت أغسطس ، وكان قد عاش حتى سنة ١٧ بعد الميلاد. ويعتبر الشعراء الثلاثة من الشعراء الممتازين ولكنهم لا يقارنون فيما يمس العظمة بڤرجيل أو هوراس .

كتب ألبيوس تيبوللوس عدداً من المقطوعات فى الشوق والرثاء والغزل ، وكانت أبياته واضحة رشيقة ، وكثيراً ما كانت موسيقية . وقد قسم علماء النهضة أشعاره إلى أربعة كتب ، ونسبة الكتابين الأول والثانى فقط إليه صحيحة . نشرت مقطوعات الكتاب الأول حوالى ٢٨ . وتوفى فى العام التالى لوفاة ڤرجيل .

لسنا ندرى من أين جاء تيبوللوس . ولكن سيكستوس پروپيرتيوس ولد فى أومبريا . وربما كانت أسيسى Assisi مسقط رأسه . نظم كتبه الأربعة فى الرثاء بين سنتى ٣٥ و ١٦ . وهى تعالج الحب بوجه عام ، وتعرض أحياناً للأساطير الرومانية . كان هناك جمهور يزداد كل يوم من الذين نالوا حظاً من الثقافة رجالا ونساء أحبوا المؤلفات الرشيقة والخفيفة من

ذاك الطراز الذى وضعه تيبوللوس وپروپيرتيوس ، لأن أرواحهم حرمت أمانيها وتحررت من الوهم ؛ أولا بمصاعب الحروب الأهلية ، وثانياً بحكومة أغسطس الجماعية .

QVINTI ORATII FLACCI EPI
STOLARVM LIBER PRIMVS

RIMA DICTE MIHI SVM
MA DICENDE CAMOENA
SPECTATVM SATIS ET DONA
TVM IAM RVDE QVAERIS
Mecenas iterum antiquo me includere ludo
Non eadem est etas: non mens. Veianius armis
Herculis ad postem fixis latet abditus agro:
Ne populum extrema toties exoret harena.
Est mihi purgatam crebro qui personet aurem
Solue senescentem mature sanus equum ne
Peccet ad extremum ridendus & ilia ducat
Nunc itaq & uersus & cetera ludrica pono
Quid uerū atq decēs curo & rogo: & omnis in hoc sū
Condo & compono que mox depromere possim
Ac ne forte roges: quo me duce quo lare tuter
Nullius addictus iurare in uerba magistri.
Quo me cunq rapit tempestas deferor hospes
Nunc agilis fio & mersor ciuilibus undis
Virtutis uerae custos rigidusq satelles.
Nunc in Aristippi furtim praecepta relabor
Et mihi res non me rebus subiungere conor
Vt non longa quibus mentitur amica dieq:
Longa uidetur opus debentibus: ut piger annus

شكل ١٠٤ — هوراس (٦٥ — ٨ ق . م .) الطبعة الأولى لأعمال «الأوبرا» (البندقية ، حوالى ١٤٧١ — ١٤٧٢) .

أوڤيد (٤٣ ق . م — ١٧ ب .م)

يلاحظ المرء فرقاً كبيراً بين ڤرچيل وپروپيرتيوس يقف عند نهايته أوڤيد آخر هؤلاء الشعراء . ظهرت فى شعره مرة ثانية وعلى أقبح شكل خصائص مدرسة الإسكندرية التى شذبتها عبقرية ڤرچيل وهوراس . وقد كتب أوڤيد أكثر من صديقيه تيبوللوس وپروپيرتيوس وكان أكثر شهرة منهما ، بل اقتربت شهرته من شهرة هوراس ، وربما طغت عليها فى الظروف السيئة .

ونحن نعرف حياته أحسن مما نعرف حياة تيبوللوس أو پروپيرتيوس . ولد عام ٤٣ فى بلدة خميلة هى سولمو Sulmo[٦٠] وكان ينتمى إلى طبقة

الفرسان ، وتلقى تعليمه فى روما وأثينا وزار آسيا الصغرى وصقلية (وكان هذا نوعاً من الرحلة الرومانية الكبرى) . لم يتزوج فرجيل أو هوراس أو تيبوللوس ولسنا ندرى هل پروپيرتيوس قد تزوج أم لا ؟ ولكن أوفيد تزوج ثلاث مرات . وكان على جانب كبير من الثراء . وقف وقته على الشعر والحياة الاجتماعية . ولاقى أول كتبه عن الحب نجاحاً زاد من شهرته وكل مؤلف من كتاباته العديدة زادت من شهرته بين الصفوة المحبة لكل جديد، وحوالى سنة ٨ بعد الميلاد ، كان فى الخمسين من عمره ، وكان يعتبر أمير الشعراء وشاعر القصر ، استحق غضب أغسطس لفساد أخلاقه وفى الغالب لأسباب سياسية . وكان فى جزيرة إلبا ، عندما علم بخبر الغضب عليه ونفيه إلى مكان بعيد موحش ، هو توميس Tomis[٦١] ، على الشاطئ الغربى للبحر الأسود . وهذه عقوبة قاسية بالنسبة لأى شخص آخر وفظيعة لمثل هذا الشاعر المحب لكل جديد ولمثل أوفيد المحب للحياة . كان سكان توميس من الجيتاى (قبيلة تراقية من أهل الدانوب) وأقلية يونانية ، وكانت اللغات التى يتكلمها السكان هى اليونانية وبخاصة الجيتية والسرماتية[٦٢] ونستطيع أن نتخيل نفى هذا الشاعر الشهير إلى مكان لايفهم فيه أحد اللاتينية . وكان الطقس قاسياً (حاراً جداً فى الصيف ، بارداً جداً فى الشتاء)، والحياة غير مطمئنة . ومع ذلك استطاع أوفيد أن يحظى بصداقة بعض الأهالى وأن يستمر فى عمله . وقد مكث تسعاً أو عشراً من السنين فى المنفى ومات هناك سنة ١٧ أو ١٨ .

ويكفينا هنا سرد موجز لكتبه الأساسية . وكل منها مجموعة من الأشعار :

١ — Amores ، شعر غزلى مقسم إلى خمسة كتب (١٦ ق.م .)

٢ — Heroides ، خطابات متخيلة كتبتها سيدات (أمثال سافو) إلى أحبائهن .

٣ — Amatoris أو Ars amandi فن الحب فى ثلاثة كتب (حوالى ١ بعد الميلاد) ، ومن الممكن أن نطلق على اسم فن الحب اسم فن الحب دون حب .

٤ — المسخ ، خمسة عشر كتاباً فى الأساطير metamorphoses .

٥ — التقاويم Fasti ، تقويم منظوم للأشهر الستة الأولى من السنة الرومانية وقد أتمه حوالى ٨ بعد الميلاد وراجعه فى منفاه .

٦ — Tristia رسائل الأحزان إلى أصدقائه دفاعاً عن نفسه والتماساً لتخفيف الحكم .

٧ — Epistulae ex Ponto رسائل من البحر الأسود ، شبيهة إلى حد ما برسائل الأحزان ، وقد كتب إحداها متأخرة سنة ١٦ بعد الميلاد .

٨ — Halieutica عن أسماك البحر الأسود .

وإلى جانب الميثولوجيا (ضرب من الأدب الشعبى المنمق ، استمد إلهامه من أدب الإسكندرية كمصدر أساسى ، فقد كان على معرفة تامة بكل شاعر لا تينى (وكثير منهم أصدقاء له ، وكانت كتاباته ماجنة ، عابثة ، مرحة ، فيها علم وبهجة ، وكان شعره سلساً سهلا ، ومن المحتمل أنه أبهج أفئدة أناس كثيرين كانوا يشبهونه فى السفسطة والسطحية ، وهذا ما امتاز به عصر أغسطس ، أو بعبارة أدق امتاز به الجانب السيئ من الطبقات العليا التى أطلقت العنان لشهواتها وجمعت بين الترف والإيمان بالخرافات . وكان من الملائم أن يجمع المرء ثروة ، ولكن حتى الأغنياء لم يكونوا طلقاء أحراراً إلا فى إشباع رغباتهم المادية وانطلاقهم الجنسى ، أو — فى أحسن الحالات — خيالهم الشاعرى . كان فرض الشعر فى نظر فرجيل وهوراس رسالة مقدسة ، أما عند أوفيد فلم تكن أكثر من استرخاء أو متعة لذيذة .

كان أكثر أشعاره ذيوعاً الغراميات وأشعار أخرى من هذا القبيل ، وكان كتاب المسخ أكبرها ضرراً ، وأشدها طموحاً ، وهو يحوى مجموعة ضخمة من المغامرات الخرافية التى تتضمن مسخاً [٦٣] ولهذا الكتاب شهرة واسعة ولا سيما فى عصر النهضة [٦٤] ، عندما كان كثيرون من الباحثين يتحرقون شوقاً إلى القصص الرومانتيكية الميثولوجية والهراء الذى لا معنى له .

هناك أساطير فى كل الكتب اللاتينية طبعاً ، ولكن أوفيد قدم شيئاً جديداً ، نوعاً من الموسوعة الميثولوجية يمكن تتبع أثرها فى كثير من المؤلفات فى القرون الوسطى ، ومن أمثلة ذلك Roman de La Rose التى وضعها چان دى مونج (النصف الثانى من القرن الثالث عشر) ، وقد ترجمها تشوسر. وقد قام مكسيموس بلانوديس (النصف الثانى من القرن الثالث عشر) ، بترجمة كتاب « المسخ » إلى اللغة اليونانية .

The. xv. Bookes
of P. Ouidius Naſo; entytuled
Metamorphoſis, tranſlated oute of
Latin into Engliſh meeter, by Ar-
thur Gōlding Gentleman,
A worke very pleaſaunt
and delectable.

With ſkill, heede, and iudgement, this worke muſt be read,
For elſe to the Reader it ſtandes in ſmall ſtead.



15 67

Imprynted at London, by
Willyam Seres.

شكل ١٠٥ — أوفيد (٤٣ ق. م. — ١٨ ب. م.) أول طبعة من كتاب المسخ فى اللغة الإنجليزية ، ترجمة آرثر جولدنج (لندن ، Willyam Seres ١٥٦٧).

وهذا يعنى أن كتاب « المسخ » أحيا الوثنية أو بعبارة أصح استبقى الخيالات الوثنية فى العصور المسيحية . ومن أغرب ثمار الأدب فى العصور الوسطى Ovide Moralisé وهو قصيدة طويلة جداً نظمها Chrétien Legouais of [٦٥] Saint More لشرح كتاب المسخ باصطلاحات مسيحية ، وقد كان هذا

أعظم جهد وآخره بذل لصبغ الأدب الوثنى بصبغة مسيحية .

كان كتاب المسخ أحد الكتب الحببة إلى قلوب الشعراء والعلماء فى عصر النهضة . وقد كانت مصدر إلهام مؤلفات كثيرة ، أمثال كتاب Orlando innamorato (١٤٨٧) ، الذى وضعه Maria Boiardo وكتاب Orlando furioso (١٥١٦) ، الذى ألفه Lodovico Ariosto . وكان هذا المؤلف للفنانين كما كان للشعراء كنزاً مملوءاً بالحكايات المقدسة ، ليفتحوه كلما شعروا بحاجة إلى تنشيط ذاكرتهم . وكانت أدمغتهم ، مع أنهم مسيحيون ، ملأى بالميثولوجيا الوثنية وكثيراً ما مزجوا بين الرموز الوثنية والمسيحية . وقد ساعد كتاب المسخ على نشر اللامعقولية وعدم التفكير المنطق ولهذا عاون على تعطيل تقدم العلم طوال عصر النهضة .

وإنه لمن الحزن أن نرى العصر الذهبى للأدب اللاتينى يختم بهذه الألعاب النارية الميثولوجية [٦٦]

تعليقات

(١) هذا تكملة لما بدئ فى الفصل الثالث عشر .

(٢) جدر بلدة فى فلسطين فى الجنوب الشرقى من بحيرة طبرية . ويعرف قارئو العهد الجديد شيئاً عن أهلها الجدريين Gadarenoi (إنجيل مرقص ، ٥ ، ١ ، إنجيل لوقا ، ٨ ، ٢٦ ، ٣٧) .

(٣) للحصول على تفاصيل أكثر عن هاتين المجموعتين البيزنطيتين ، وأعنى بهما Anthologia Palatina و Anthologia Plandca.

انظر Introduction, T. 2., p. 974

(٤) ألا باندا فى كاريا . أيمكننا القول بأن هذين الرجلين كانا رجلا واحداً عرف باسم مالا كوس Malacos فى شبابه ، ومولون Molon فى هرمه ؟

(٥) لست أفهم معنى لتلقيبه بمولون (Molon اسم فاعل للماضى البسيط من الفعل blosko يحضر أو يذهب) . وقد سماه سيشرون مولون أو مولو وقد سمى أيضاً أبولونيوس الرودسى ، ولكن من الأفضل عدم استخدام هذا الاسم لتجنب الخلط بينه وبين رجل أعظم هو أبولونيوس الرودسى (القرن الثالث قبل المسيح) ، الذى نظم « رحلة السفينة أرجونوتيكا Argonautica» .

(٦) هيبريديس (حوالى ٤٠٠ — ٣٢٢) أحد « الخطباء العشرة فى أتيكا » الذين أحصتهم قائمة الإسكندرية (المجلد الأول ، ص ٢٥٨) .

(٧) فايدروس كاتب الأساطير (حوالى ١٥ ق . م . إلى ٥٠ بعد الميلاد) نفس الاسم ولكن ينبغى فى حالته أن يتمسك بشكله الرومانى وقد ازدهر فى وقت أكثر تأخراً من فايدروس الفليسوف ولكنه عاش فى روما كذلك لقد جاء فايدروس الروانى إلى روما من مقدونية وكان مولى من موالى أغسطس والحق أن مجموعة من القصص الخرافية كان عنوانها قصصاً إيسوبية لفايدروس مولى أغسطس Phaedri Aug. Liberti Fabulae Aesopiae.

(٨) ارجع إلى تفاصيل أكثر فى الجزء الثالث .

(٩) سمى كالاكتينوس من calé acté بصقلية . (وكلمة acté هى التسمية القديمه لأتيكا وكلمة calé تعنى الجميلة) .

(١٠) كان بطلا هاتين القصيدتين فيلسوفين حقيقيين ، فإبيخارموس من جزيرة كوس (القرن الخامس ق . م .) ويوهيميروس من بلدة مسينا (النصف الثانى من القرن الرابع ق. م.) وقد حاكى لوكريتيوس مثال إنيوس بعد ذلك بقرن، عندما أهدى كتابه عن طبيعة الأشياء إلى مجد أبيقور .

(١١) كانت الثقافة اليونانية سائدة فى شمال إفريقية ، ولا سيا فى قرطاجة ؛ ولهذا من المحتمل أن يكون ترنتيوس قد تعلم اليونانية فى طفولته وصباه .

(١٢) رينيه بيشون فى كتابه «تاريخ الآداب اللاتينية» (باريس ١٨٩٨)، ص ٨ تجرأ على أن يقارنه بماريڤو Marivaux (١٦٨٨ — ١٧٦٣) . وهذا مديح سام حقا .

(١٣) أيسوب Aisopos هو المؤلف الخرافى لبعض القصص الخرافية اليونانية التى تحمل اسمه . وطبقاً لما ورد فى هيرودت (٢ ، ١٣٤) كان أيسوب عبداً فى ساموس أثناء حكم أحمس الثانى (ملك مصر ، ٥٦٩ — ٥٢٥) (المجلد الأول ، ١ ، ص ٣٧٦) . أڤيانوس . كان كاتباً من كتاب القصص الخرافية فى العصور الوسطى وقد كتب باللغة اللاتينية . أما «روملوس» فلم يكن إنساناً وإنما كان عنواناً لترجمة لقصص فايدروس بالنثر اللاتينى . ولعامة الناس كانت أسماء أيسوب وأڤيانوس وروملوس ألفاظاً من نوع واحد ؛ أعنى عناوين كتب مدرسية .

(١٤) على الأقل بعض هذه المقطوعات كانت منتشرة فى القرن الثانى بعد المسيح وكانت المجموعة لدى ڤينديكيانوس الإفريقى Vindicianus (النصف الثانى من القرن الرابع) The Disticha of Cato Wayland Johnson Chase . كتاب شهير من الكتب المدرسية فى القرون الوسطى (٤٣ صفحة ، ماديسون . وسكونسين ١٩٢٢) النص اللاتينى وترجمة إنجليزية . يحتوى هذا النص على ١٤٤ مقطوعة وقد أضيف إليها ٥٦ بيتاً قصيراً جدا فى العصور الوسطى. وقد نسب النص إلى كاتو الرقيب فى القرن الرابع . وبعد ذلك بقليل نسب النص إلى رجل يدعى «ديونيسيوس كاتو» وقد زاد ذلك من تضاعف الخطأ .

(١٥) Cato's Moral distichl Englished in Couplets

(فيلادلفيا ، طبع ونشر ، ١٧٣٥) . والمترجم هو جيمس لوجان (١٦٧٤ — ١٧٥١) . وهذا الكتيب المتواضع أول كتاب كلاسيكى فى اللغة اللاتينية ترجم وطبع فى المستعمرات

البريطانية فى شمال أمريكا . وكان فرانكلين يعرف أن كاتو الرقيب ليس واضعه . ونشر مرة أخرى بالتصوير الشمسى وقدم له كارل ڤان دورن (لوس انجليس) . نادى الكتاب فى كاليفورنيا ، ١٩٣٩) .

(١٦) بيرسيوس آخر ملك حكم مقدونية (١٧٩ – ١٦٨) . هزم فى پيدنا على يد أيميليوس پولس (سكيپيو) ، والد أيميليانوس . وأخذ أسيراً فى ساموترا كى وأحضر إلى روما ليزين نصر پولس . مات سنة ١٦٦ .

(١٧) وتسمى الآن ' Sessa aurunca وتقع على بعد ٣٣ ميلا شمالى غرب نابلى .

(١٨) للوقوف على الكتب والمراجع انظر Oxford Classical Dictionary تحت كلمة Appendix Vergiliana . وإحدى هذه القصائد ، وهى قصيدة كوليكس Culex (والكلمة تعنى بعوضة) تملأ مجلداً ضخماً ألفه شارل بليزنت Cherles Plésent, Le Culex Etude sur l'Alexanderinisme Latin (٥١٤ صفحة ، باريس ١٩١٠) .

(١٩) حاكى سينيكا (النصف الثانى من القرن الأول) هذه الرسائل فيما نشر من رسائل أخلاقية إلى لوكيليوس Epistulae morales ad Lucilium ، وپلينى الأصغر (٦١ – ١١٤) وماركوس كورنيليوس فرونتو (حوالى ١٠٠ – ٦٦) صديق ماركوس أوريليوس . ولكن رسائل شيشرون أكبر بكثير .

(٢٠) تيتوس پومپونيوس أتيكوس (١٠٩ – ٣٢) . حمل لقب الأتيكى لأنه عاش طويلا جدا فى أثينا بحيث يعد حقا أتيكيا . وهو من الطبقة العليا وكان من رجال الأعمال الأثرياء ، باشا ، حذراً ، متسامحاً . أحد أتباع أبيقور سهل الطبع ومن أخلص من راسلهم شيشرون حتى النهاية .

ماركوس توليوس تيرو (النصف الأول من القرن الأول) كان مولى شيشرون وكاتم سره ، ابتدع نوعاً من الاختزال notae Tironianae . كتب تاريخ حياة شيشرون وكتباً أخرى قليلة ، وأعظم أياديه أنه عاون على حفظ كتب سيده ورسائله ونشرها .

(٢١) عن رسائل شيشرون : انظر Gaston Boissier, Cicéron et ses Amis (باريس ، ١٨٦٥) ترجم إلى اللغة الإنجليزية فى سنة ١٨٩٧ وقد أعيد طبعه مراراً .

Jerome Carcopino, Les Secrets de la correspondence de Cicéron

(مجلدان : باريس : Artisan du livre ، ١٩٤٧ ، الترجمة الإنجليزية ، لندن Routeledge

١٩٥١) . دافع بواسييه عن شيشرون وآمن بإخلاصه ، أما كاركوبينو فهو لا يثق له به ثقة تامة .

(٢٢) أخذ العنوان من تلك الخطب التي ألقاها ديموستين ضد فيليب ملك مقدونية دفاعاً عن حرية اليونان . والقياس صحيح ، كان شيشرون يدافع عن حرية الرومان ضد ماركوس أنطونيوس . وكثيراً ما يستخدم لفظ الفيليبيات (Philippic Philippica في اللغة الإنجليزية) في ذاك المعنى العام : أى دفاع عن الحرية ضد دكتاتوريين أو ضد من قد يصبحون دكتاتوريين .

(٢٣) Cur igitur pacem nolo? qui turpis est, quia periculosa quia esse non potest .. nec ego pacem molo, sed pacis nomine bellum involutum reformido. (Philippica 7, III, 9; VI, 19).

(٢٤) أعطينا بعض التفاصيل البشعة في مقالنا : The Death and Burial of Vesalius and, incidentally, of Cicero (Isis, 45, 131 — 137, 1954).

(٢٥) طبعت رسائل شيشرون إلى أصدقائه Epistolae ad familiares على يد Sweynheym و Pannarty (روما ١٤٦٧) . وقد ظهر بعد هذه المجموعة رسائل أخرى ومجموعات أخرى متنوعة Epistolae ad Brutum (روما ، ١٤٧٠ ، البندقية ، ١٤٧٠) Epistolae ad Atticum (البندقية : ألدوس ، ١٥١٣) Opera epistolica (باريس ، ١٥٣١) ، Epistlae ad Octarium (باريس ، ١٥٣٩) ، Epistolae ad Quintum fratrem (ليون ، ١٥٤٣) ، وغيرها . يمكن أن نحكم على الاتجاه الشديد إلى مؤلفات شيشرون في عصر النهضة من أن ١٨٥ طبعة لها أحصتها Margaret BinghamS tillwell في مقالها Incunabula in American Libraries, New York, Bibliographical Soriety, 1940)

(٢٦) هناك قيمة فكرية دائمة في معرفة لغة أجنبية ، غير أنها في بعض الأحيان تبدو ضرورة اجتماعية . وكان لزاماً أن يعرف الروماني في ذاك الوقت اللغتين اللاتينية واليونانية ، على نحو ما كان الفرنسي يعرف في عصر النهضة الفرنسية واللاتينية ، والألماني في القرن الثامن عشر الألمانية والفرنسية ، والكندي في القرن العشرين الفرنسية والإنجليزية .

(٢٧) Noctes Atticae, 1227, 10 أوقف الفصل كله على ذكر فضائل العدد سبعة والتحدث عن كتاب ڤارو De Hebdomadibus . وقد لاحظ ڤارو في ذلك الكتاب

أنه ألفه عندما بدأ الدورة السبعية الثانية عشرة من عمره (٨٤) وأنه كتب سبع مرات فى كل مرة ٧٠ كتاباً (٤٩٠) انظر حاشية ٢٨ وحاشية ٣٣ .

(٢٨) أحصى علماء العصر القديم والعصور الوسطى أسفاراً لا مؤلفات كما نفعل . فهم قد يقولون إن جالينوس كتب ٢٦٢ كتاباً ، فى حين نقول بالأحرى إنه كتب ١٢٢ رسالة . ومجموعات فارو السبعة التى ناقشتها من بين عدد كبير من المؤلفات الأخرى التى تبلغ ٣١٩ كتاباً . فالعدد ٤٩٠ على ذلك ليس بمزعج كما يتراءى لأول وهلة .

(٢٩) انظر سيرة مينيبوس والهجائيات المينيبية Satire Menippée فى الفصل الثالث عشر . وهذا الطراز وهو مزيج من النثر والشعر قد اعترف به كوينتليان (النصف الثانى من القرن الأول فى كتابه مبادئ الخطابة Institutiones oratoriae (١٠ ، ١ ، ٩٥) ، ولم يحاكه فارو وحده ، بل حاكاه أيضاً كتاب بيترونيوس Satyricon (عهد نيرون ، الإمبراطور ٥٤ — ٦٨) ، وسينيكا (النصف الثانى من القرن الأول) مارتيانس كابلا (النصف الثانى من القرن الخامس) .

(٣٠) هذا العنوان مأخوذ من اللغة اليونانية . فكلمة logistoricon هى المضاف إليه فى الجمع لكلمة logistoricos ومعناها « ماهر فى العد ، منطقى » . ولو كان المؤلف يونانيا ، لما أعطى مثل هذا العنوان للكتاب نفسه .

(٣١) لقد استخدمت البقايا التى نشرها باللاتينية والإيطالية ايتورى بوليسانى ، I logistorici varroniani (123 pp. ; Padua, 1937) (Historia naturalis, XXXV, 2)

(٣٢) يشير بلينى إلى تجديد فارو على أنه benignissimum inventum وقد قبل فى معرفته الجدل إن الصور كانت تنقل من مخطوط إلى آخر بطريقة الاستنسيل . ومن الطبيعى أن ذلك كان ممكناً وربما أن المصريين استعملوا فيما سبق استنسيل لكتابة حروف هيروغليفية كبيرة على الآثار . وعلى أى حال فقد أدرك فارو قيمة الصور فى تكملة الوصف الأدبى وهذا عجيب جدا .

(٣٣) أغرم الفيثاغوريون بالتحليلات السبعية التى ربما كانت من أصل شرقى (المجلد الأول ، ص ٢١٤ ، ٢١٥ ، ٤٩١) . وهناك أمثلة فى التوراة والإنجيل . وأما الديانة المسيحية فتزخر بها : المراسيم السبعة ، والسبع المهلكات ، وسبع جوقات من الملائكة ، وسبعة أحزان ، وسبعة أفراح مريم ، وسبع ساعات كنسية . ويمكن العثور على أمثلة أكثر فى ميادين أخرى .

(٣٤) فى الفصل التالى معلومات أكثر عنه .

(٣٥) لم أستطع أن أعثر على هذا الخبر الذى نقله القديس أغسطين . وإنما أخذته عن Gaston Boissier : Etude sur .. Varron (Paris, 1861), p. 117.

(٣٦) تلك فى الحقيقة مشكلة بالغة التعقيد ، فقد وضعها شيشرون هكذا : « إن من ينكر وجود الخير الأسمى فإنه ينكر الفلسفة جملة » .

(٣٧) الأصل اللاتينى أوجز وأعظم أثراً

"Bona aliena largiri liberalitas malarum rerum audacia Inter (Catilina 521, 11, fortitudo vocatur bonos amicitia, inter malos factio est (Jugurtha, 31, 15).

(٣٨) "Come Livio Scrive che non erra" (Inferno, XXVII, 12)

(٣٩) هذا التكريم فى الحقيقة دولى . فراعى الآداب العظيم يسمى mécéne فى اللغة الفرنسية و mecenate فى اللغة الإيطالية و mecenas فى اللغة الإسبانية و maicénes فى اللغة اليونانية .

(٤٠) هوراس ، Odd Iv. II . ولد ما يكيناس فى وسط Ides أبريل .

(٤١) كان أوكتافيوس وريث قيصر ، سنة ٤٤ ، وقد اعترف له بهذه الصفة تحت اسم جايوس يوليوس قيصر أوكتافيانوس . وفى سنة ٢٧ ، منحه مجلس الشيوخ لقب أغسطس ، وأرانى مضطرا إلى تكرير ذلك ، لأن القراء قد يغيب عن ذهنهم أن أوكتافيوس وأوكتافيانوس وأغسطس هم عين الشخص ولكن فى تواريخ مختلفة (٦٣ ، ٤٤ ، ٢٧) .

(٤٢) كانت نولا من أقدم البلدان فى إقليم كامبانيا ، تقع فى الداخل ولكنها لاتبعد كثيراً عن نابلى . توفى فيها أغسطس سنة ١٤ ميلادية .

(٤٣) Aeneid هو العنوان الإنجليزى الذى استعمل مدة طويلة جدا حتى أصبح جزءاً من اللغة الإنجليزية . أما الشكل اللاتينى الأصيل فهو Aeneis واسم البطل هو Aenes (Aineias فى اللغة اليونانية) .

(٤٤) تحتوى على ٩٨٩٣ بيتاً ، فهى أقصر من الإلياذة ، بل ومن الأوديسيا . ولتوضيح فكرة عن طول تلك الملاحم والملاحم الأخرى ، انظر الجزء الأول . أما متوسط طول الكتاب الواحد فثمانمائة وأربعة وعشرون بيتاً . ويحتوى أقصر الكتب وهو الكتاب الرابع على ٧٠٥ من الأبيات ، والكتاب الأخير هو أطولها جميعاً وطوله ٩٥٠ بيتاً .

(٤٥) كانت ديدو بنتاً أسطورية لملك صور ، أسست قرطاجة وأصبحت ملكة

لها ، ووقعت فى غرام أينياس الذى اضطر بعد مدة أن يهجرها إطاعة لأمر إلهى فألقت بنفسها فى النار .

(٤٦) « تذكر ، أيها الرومانى ، أن نصيبك المقدور هو أن تحكم الأمم بسلطانك ستكون هذه هى فنونك ، أن تفرض قواعد السلام ، وأن تعفو عن المستسلمين وأن تخضع المتكبرين .

(٤٧) كانت هذه الفترة المستمدة من وجهة النظر الإمبراطورية الحقة مزيجاً طبيعيا فإما أن تصبح الإمبراطورية وثنية وإما أن تفنى . وهناك أفكار مشابهة عزاها بعض الكتاب المسيحيين فى عصر الإسلام الذهبى وكتاب الروس (أمثال دوستوفسكى) فيما يمس الإمبراطورية الأرثوذكسية وكتاب الإنجليز الذين ربطوا بين الإمبراطورية وكنيسة إنجلترا .

(٤٨) يكفى فقط أن تمر بأذهاننا وحشية وفظاعة ألعاب السيرك والسادية البشعة التى تتجلى فى عيون النظارة .

(٤٩) الاسم إبيروتا Epeirotés يدل على أن كايكيليوس من أصل يونانى ، وقد أعتقه أتيكوس صديق شيشرون قبل سنة ٣٢ . كان لأتيكوس ضياع شاسعة فى إبيروس وقد ورث ثروة أخرى من عمه كوينتوس كايكيليوس . هل هذا هو سبب التسمية ؟

(٥٠) أفاض فى شرح ذلك بتفصيل كبير دومينيكو كومباريتى Vergilio nel Medio Evo (مجلدان ، ليجهورن ، ١٨٧٢ ، طبعة منقحة ، فلورنسة ، ١٨٩٦) ، ترجمة إنجليزية من قلم F. M. Benecke (لندن ، ١٩٠٨) . (كمبردج، ١٩٣٤) (إيزيس، ٢٢ ، ٢٦٥ — ٢٦٧ (١٩٣٤ ، ١٩٣٥) .

(٥١) « المقدمة » جـ ٣ ص ١٤٥٧ .

(٥٢) Giuliano Mambelli, Gli annali delle edizione virgilianae (٣٩٢ صفحة ، فلورنسة Olschki ١٩٥٤) ؛ Gli studi virgiliani nel secolo XX (مجلدان ؛ فلورنسة : سانسونى ، ١٩٤٠) .

(٥٣) Epistoles, I, 20, written C. 20 B.C.

(٥٤) أصبحت مؤلفات هوراس كتباً مدرسية كلاسيكية قرناً بعد وفاته ، إن لم

يكن قبل ذلك . وكان ثناء أغسطس عليه هو مبدأ تمجيده .

(٥٥) ڤينوسيا (ڤينوسا الحديثة) من أعمال أپوليا ، بالقرب من جبل ڤولتور Vultur . وهى فى جنوب إيطاليا من أبعد ما يكون إلى الداخل فهى بلدة صغيرة بعيدة جدا عن أن يرتادها السائحون .

(٥٦) "decisis humilem pennis"

(٥٧) النكبة التى حلت بهوراس وفرچيل حدثت فى نفس السنة ، سنة ٤٢ ، ولعين السبب : صودرت ضياعهما لتوزع على قدماء المحاربين فى الحرب الأهلية . لاحظ أن مزرعة ڤرچيل كانت فى أقصى الشمال بالقرب من مانتوا ، فى حين كانت مزرعة هوراس فى أقصى الجنوب.

(٥٨) ڤاريوس روفوس ، شاعر مراثى . كان أحد الناشرين لإنيادة ڤرچيل بعد موت ڤرچيل بمدة قصيرة .

(٥٩) وبدقة أكبر ، نعرف أن پروپيرتيوس كان لا يزال حيا عام ١٦ ق . م . ، ولكن من الممكن أنه عاش وقتاً قصيراً ، ومن الممكن أيضاً أنه عاش دون أن تسلط عليه الأضواء حتى بعد وفاة هوراس .

(٦٠) سولمو (سولمونا Sulmona الحديثة) فى أبروتزى ومولتزى ، وهى تبعد تسعين ميلا إلى شرق روما .

(٦١) توميس فى مويسيا السفلى ، إلى جنوب دلتا الدانوب ، وتسمى الآن Constanza فى الجنوب الشرقى من رومانيا ، أهم ميناء بحرى فى رومانيا . وقد نفى أوڤيد فى شهر نوڤمبر سنة ٨ بعد الميلاد ، ووصل إلى توميس فى ربيع أو صيف سنة ٩ .

(٦٢) السرماتية لغة سلاڤونية ، والجيتية نوع من اللغة القوطية أو التيوتونية . ويقال إن أوڤيد أجاد تعلم اللغة الجيتية إجادة مكنته من كتابة قصيدة فى هذه اللغة . وددت لو أنها حفظت .

(٦٣) تروى الكتب الخمسة عشر شعراً أكثر من مائة مثال للمسخ . وآخرها (١٥ ، ٨) قصة يوليوس قيصر الذى مسخ نجماً ، تلا ذلك ثناء على أغسطس . وقد انتهى تقريباً من نظمه قبل سنة ٨ بعد الميلاد وراجعه فى منفاه .

(٦٤) أول طبعة لأعمال أوفيد فى ثلاثة مجلدات، فوليو (روما : سوينهايم وبانرتز ، ١٤٧١) . أول طبعة لكتاب المسخ (ميلان ، ١٤٧٥) ، ومن الممكن أن هذه الطبعة سبقتها طبعة أخرى دون ذكر المكان أو التاريخ . ثم ظهرت طبعة أخرى فى لوفان حوالى ١٤٧٥ .

(٦٥) يبلغ عدد أبياتها ٦٢٠٠٠ بيت . وكانت فيما مضى تنسب إلى الموسيقار فيليب دى ڤيترى (النصف الثانى من القرن الرابع عشر) .

(٦٦) لا يزال هناك اهتمام عجيب (وهو فى رأيى اهتمام ضال) بكتاب المسخ كما تدل الترجمات الكثيرة التى نشرت حديثاً . ويكفى أن نذكر ثلاث ترجمات إنجليزية من قلم F. J. Miller (مكتبة لويب الكلاسيكية)، مجلدان، كمبردج : مطبعة جامعة هارفارد ، ١٩٥١ ، وقلم A. E. Watts مع صور من عمل باباو بيكاسو (بيركيلى ، مطبعة جامعة كاليفورنيا ، ١٩٥٤) وقلم Rolfe Humphries (بلومنجتون ، مطبعة جامعة انديانا ، ١٩٥٥) .

الفصل السادس والعشرون

فقه اللغة فى القرنين الأخيرين[1]

فقه اللغة اليونانية :

امتاز اليونانيون فى عصرهم الذهبى باستعمال لغة من أجمل اللغات بأقل شعور بقواعد النحو . ومن هذه الجهة كانوا على طرفى نقيض مع الهنود الذين شعروا شعوراً حاداً بالفروق الدقيقة فى النحو والصرف (لا سيما تلك الأمور التى تمس المورفولوجيا والفونولوجيا فى زمن متقدم جداً ، قروناً قبل الأمم الأخرى[2] وقد أشاع القلق فى هدوء اليونان وسعادتهم اللغوية علماء المنطق من أمثال پروتاجوراس الأبديرى (القرن الخامس قبل الميلاد) والفلاسفة ، أمثال أرسطو وزينون الكتيونى (النصف الثانى من القرن الرابع قبل الميلاد) ، ولكن قواعد اللغة لم تبدأ فى اتخاذ شكل معين حتى القرن الثالث . وقد بينا فى الفصل الثالث عشر جهود نحاة الإسكندرية فى القرن الثالث . ومن الواضح أنه لم يكن من اليسير درس النصوص القديمة ، كما فعل زينودوتوس وكاليماخوس وإراتوسثيس دون حل صعوبات معجمية « قاموسية » أو نحوية . وفى النقد الأدبى نفسه مشكلات نحوية . ومن جهة أخرى فإن تحليل الجمل المنطقى الذى بدأه زينون تطور على أيدى الرواقيين الآخرين ، أمثال كريسيپوس السولوى (النصف الثانى من القرن الثالث قبل الميلاد) وديوجنيس البابلى (النصف الأول من القرن الثانى قبل الميلاد) ، وقاد منطق الرواقيين إلى النحو . وقد أرسل ديوجنيس إلى روما سنة ١٥٦ كعضو فى وفد أثينى ، وحمل معه الفلسفة الرواقية والمنطق والنحو اليونانى ، وبذور النحو اللاتينى . وتحليل أية لغة لا يقود إلى نحوها فقط ولكنه يقود إلى شعور عام بالنحو .

وفى النصف الأول من القرن الثانى قبل الميلاد ، أدت المنافسة الشديدة بين مدرسة الإسكندرية القديمة ومدرسة برجامه الحديثة إلى نشاط الدراسات الفيلولوجية . وفى كلتا المدرستين كانت المكتبة مقر هذه الدراسات . وعلى رأس النحاة فى الإسكندرية أريستوفانيس البيزنطى (توفى سنة ١٨٠ ق.م.) وأريستارخوس الساموتراكى (حوالى ٢٢٠ — ١٤٥) .

وقد أعد أريستوفانيس من هوميروس ومن أصل الآلهة ، لهزيود طبعات أفضل . وكان أول من جمع أشعار پندار ونشرها وقام بتحقيق مسرحيات يوريپيديس وأريستوفانيس ووضع قاموساً يونانياً Lexeis ، وقام ببحوث فى القياس والشذوذ فى النحو .

وأكبر دعامة لشهرته ابتداعه (أو تحسينه) لوسائل وضع النبرات والترقيم ومن الخطأ أن يظن أنه ابتدع النبرات والترقيم نفسهما . فهذه قديمة قدم استعمال الناس لغة الخطاب . ومن المحال أن ينطق أحد نطقاً صحيحاً وأن يفهم بوضوح دون وضع النبرات وتجميع الألفاظ وتقسيم الجمل . وحين صارت اللغة أشكالا مكتوبة ، أصبح من الضرورى ، أو على الأقل من الملائم ، تبين نبرات الألفاظ وتقسيم الكلمات بواسطة الرموز ، فهل كان أريستوفانيس أول من فعل ذلك قطعاً ؟ ربما كان الجواب بالنفى ، والراجح أنه تفوق على من سبقة وكان أكثر دقة .

كانت هذه التغييرات الجديدة من الأهمية بمكان ، وفى وسع أى باحث أن يدرك بسهولة إذا اضطر أن يقرأ نصاً بدون ترقيم أو حروف كبيرة (مثال ذلك فى اللغة العربية)[٣] .

وجدير بالذكر أنها لم تنل قبولا مدة طويلة . وأقدم المخطوطات اليونانية واللاتينية ليست خالية من الترقيم فحسب ، بل ومن الفواصل بين الكلمات وهناك مخطوطات متأخرة ترجع إلى القرن الثالث عشر ولا ترقيم فيها . أما من قاموا بنشر الطبعات الأولى فقد حاكوا المخطوطات وألفوا معظم علامات الترقيم والفواصل بين الكلمات . ولم تستخدم الفواصل بوجه عام إلا بعد ستة

عشر أو سبعة عشر قرناً من وفاة أريستوفانيس ، حين عرفت بدرجة كافية واستقرت فى فن الطباعة .

ولا يرجع هذا التأخير الطويل إلى مجرد الكسل ، بل إلى سيطرة الرواية الشفوية على الرواية المكتوبة . كانت الكتابة (والطباعة فى أول ظهورها) طريقة لتمثيل اللغة الحقيقية (لغة الكلام) وكانت تستهدف إثارة المعانى فى النفس بدلا من أن تكون تامة مفصلة . وهذا يصدق بوضوح فى كتابة اللغات السامية التى لا تدمج الحروف القصيرة اللينة ، وتنطق ذلك بصورة أصدق جداً على لغات كاللغة الصينية ، وليس فيها إشارة ألبتة إلى كيفية النطق أو النبرات (٤) . ويبين الهجاء الإنجليزى عدم الكفاية الأساسية للغة المكتوبة إذا قورنت بلغة الخطاب ، على الرغم من أن اللغة الإنجليزية قد تطورت تطوراً كبيراً فى أنحاء كثيرة . فهناك كثير من الكلمات الإنجليزية لا يستطيع أجنبى أن يرفع صوته عند قراءتها ، إذا لم يكن يعرف من قبل كيفية النطق بها .

خلف أريستارخوس الساموتراكى أريستوفانيس فى رياسة المكتبة ، وكان مسناً ، حوالى ١٨٠ ق.م ، ثم رحل إلى قبرص ، حيث توفى حوالى سنة ١٤٥ . كان أولا وقبل كل شيء ناقداً أدبياً وضع شروحاً hypomnémata, syngrammata على الكتب الكلاسيكية : وقارن اللهجة الهوميرية باللهجة الأتيكية . وهذه المقارنات تمس الكلمات نفسها Lexicography أو ترتيبها أو تعريفها ، أو تكوين الجملة Syntax . وقد ميز بروتاجوراس جنس الأسماء ، وبعض الأزمنة والصيغ . أما أرسطو فعرف ثلاثة أجزاء من الكلام : اسم ، وفعل ، والتكملة . وعرف أريستارخوس ثمانية أجزاء : اسم (ونعت) ، وفعل واسم فاعل أو مفعول ، وضمير ، وأداة تعريف ، وظرف ، وحرف جر ، وحرف عطف .

وفى أثناء ذلك كان كراتيس المالوسى يقوم ببحوث مشابهة فى برجامه ، وكان لا بد له أن يصل إلى النتائج نفسها . وزاد ذوقه النحوى بمقارنة اللغتين اليونانية واللاتينية ، وفى الواقع لا مناص من التفكير فى النحو إذا ما استعمل

المرء لغتين . ويقال إنه أول من ألف فى النحو اليونانى ، وينبغى أن يؤخذ هذا بحذر . تحليل لغة يشبه تحليل الجسم البشرى ، ومن العسير أن يقال متى بدأ ذلك ومتى انتهى . والنحو كالتشريح لم يبتدع فى وقت واحد بمجهود فردى وإنما عولج غير مرة وبأقدار صغيرة . كان عمل كراتيس بلا ريب عظيماً ، ولكنا لا نستطيع أن نقيسه بدقة لأن مؤلفه النحوى ضاع . وأقدم كتاب فى النحو وصل إلينا ، وضعه أحد تلاميذ أريستارخوس وهو ديونيسيوس ثراكس[٥] (النصف الثانى من القرن الثانى ، ولد حوالى سنة ١٦٦) ، وازدهر فى الاسكندرية ورودس . فكتابه فى النحو techné grammatice, ars grammatica[٦] كان نموذجاً لكل كتب النحو فى العصور المتأخرة ، لا فى اليونانية فقط ، بل فى اللاتينية والأرمينية[٧] ، وبطريق غير مباشر فى جميع اللغات الهندية الأوربية الأخرى . يقول جلبرت مرى : « كان من أحسن الكتب المدرسية فى العالم ، وقد بقى الأساس والعمدة فى تعليم النحو اليونانى حتى نهاية القرن التاسع عشر تقريباً ، وكان يستخدم فعلا فى مدرسة ميرشانت تيلور عندما كان أحد أعمامى البعيدين تلميذاً صغيراً هناك . وأدى ديونيسيوس للنحو ما أداه إقليدس لعلم الهندسة . واستمر كتابه مدة تكاد تساوى المدة التى استمرها كتاب إقليدس[٨] » .

ويعتبر نشره فى النصف الثانى من القرن الثانى قبل الميلاد علامة مؤكدة على انتهاء عصر عدم التعلق بالنحو . وما كان أسعد الصبى الأثينى القديم الذى عاش زمناً يتكلم أجمل لغة فى العالم دون أن يقاسى الآلام فى تعلمها كما نفعل . وإتقان لغة يحتاج إلى جهود كبيرة ، وإذا لم نستعملها استعمالا كافياً فنحن معرضون لنسيانها ، ولا بد أن نتعلمها ثانية . أما الغلام الأثينى فى القرن الرابع ، فلم يكن عليه أن يتعلم لغته الأصلية ، ولم يكن من الممكن أن ينساها .

وتسببت قصة وضع النحو القديم فى إغفاله لاثنين من فقهاء اللغة يذكرهما الناس لأعمال جليلة أخرى ، وهما : ديميتريوس الاسكيبسى وأپولودوروس

الأثينى . ولعلهما أقرب إلى علم الآثار منهما إلى علم النحو .

ديمتريوس (حوالى ٢٠٠ — ١٣٠) ازدهر فى سكيبسيس من أعمال طروادة ، وكتب تعليقاً على ثبت السفن فى هوميروس (إلياذة ، ٢ ، ٨١٦ — ٨٧٧) ، وكان يسميه التنظيم الطروادى Trōicos diacosmos[٩] ويقع فى ثلاثين كتاباً ، وكان مصدر الكثير من المعلومات القليلة الجدوى . أما أپوللودوروس الأثينى فكان تلميذاً لأريستارخوس السكندرى ، ترك الإسكندرية سنة ١٤٦ . ولعله استقر فى برجامه بدليل أنه أهدى أهم مؤلفاته : « كرونيكا » ، إلى أتالوس الثانى فيلادلفوس (ملك برجامه ١٥٩ — ١٣٩) ، وقد ألف مشروحاً على هيروس ودراسات فى الاشتقاق والجغرافيا والأساطير ، ويختلط كتابه فى الميثولوجيا ، عن الآلهة برسالة أخرى فى الميثولوجيا مسماة مكتبة أپوللودوروس وقد وضعت بعده بقرنين على الأقل .

وكثيراً ما ساعد أولئك الذين يتحدثون أكثر من لغة على زيادة الإحساس اللغوى فى العالم اليونانى الرومانى . كان على المثقفين فى الغرب أن يعرفوا لغتين اليونانية واللاتينية ، أما فى الشرق فلم يعرفوا دائماً اللاتينية ، وكانوا يلمون باللغات الشرقية . وزعم إنيوس أن له ثلاثة أرواح[١٠] ؛ لأنه كان يستطيع التحدث بثلاث لغات ، اليونانية والأوسكية واللاتينية . وكانت لغته الثانية الأوسكية ، أكثر اللهجات الإيطالية قبولا ، لأنها كانت مستعملة فى أرجاء إيطاليا الجنوبية . أما اللاتينية التى أصبحت اللغة الرسمية لروما ، فقد كانت فى مبدأ الأمر محدودة جداً من الناحية الجغرافية . وقد بقيت الأوسكية تستخدم حتى بعد أن هزم الأوسكى أو الأبيكى Osci or Opici وأصبحوا فى طى النسيان . وبقيت حية فى روما نفسها فى القصص الأتيلانية Fabulae Atellanae وهى روايات كوميدية ريفية ، مرحة جداً ، وبذيئة ، تستخدم فيها الأوسكية وكانت رائجة لدى عامة الشعب .

وإذا كان لإينيوس أرواح ثلاث ، فكم كان عدد أرواح ميثريداتيس الأكبر ؟ ربما كان يعرف ما يقرب من خمس وعشرين لغة ! ! والحق أن

جيليوس يخبرنا أن ميثريداتيس كان يتكلم لغات الأمم التي أخضعها ، أو كان على الأقل على اتصال بها وعددها خمس وعشرون . وقد يبدو ذلك محالا في نظر الرجل الأمريكي الذي لا يعرف إلا لغة واحدة . ولكنه بكل بساطة انعكاس لتعدد اللغات المنتشرة في الشرق الأدنى . استمع إلى شهادة پليني عن مدينه ديوسكورياس من أعمال كولخيس :

كانت المدينة الكولخية ، ديسكورياس الواقعة على نهر أنتيموس والتي هجرها أهلها الآن — شهيرة في يوم ما ، حتى إنه نقلا عن تيموستنيس (١١) كان فيها ثلثمائة قبيلة تتكلم لغات مختلفة اعتادت على التخاطب بها ، وكان تجار روما يقومون بأعمالهم هناك بمساعدة هيئة من التراجمة يبلغ عددها مائة وثلاثين مترجماً (١٢) .

وعلى ذلك ليس من المدهش أن يتقن ميثريداتيس خمساً وعشرين لغة . لقد جعلته الظروف يجمع اللغات كما اضطرته إلى أن يجمع النباتات والسموم والمعاجين والترياقات . وقد تلألأت شهرة ميثريداتيس الذي يتكلم لغات كثيرة إبان عصر النهضة . وعندما نشر العالم الطبيعي العظيم كونراد جيسنر بحثه في اللغات أطلق عليه اسم ميثريداتيس (١٣) . وكان هناك اثنان من علماء النحو اليوناني الممتازين في عصر أغسطس ، هما : ديونيسيوس الهاليكارناسي وديديموس (١٤) .

وقد وفد ديونيسيوس من هاليكارناسوس وبلغ في روما ، وسبق أن تحدثنا عن كتابه « تاريخ روما » Rhomaice archaiologia إلا أنه كان قبل كل شيء أديباً وعالما من علماء الخطابة والنحو ، أجهد نفسه ليكفل صفاء اللغة اليونانية . وربما كان أول ناقد مبرز في عصره ، وقد ألف كتباً في مزايا الخطباء القدامى ومميزات ثيوسيديديس وأفلاطون وغيرهما (وإن كان لا يحب أسلوب أفلاطون) ، وكتباً أخرى في ضرورة محاكاة المؤلفين المجيدين ، واختيار الألفاظ ، وأحسن ترتيب لها . ولم يكن يكفي في رأيه أن يعرف المرء اليونانية بل ينبغي أن يعرفها جيداً ، وإن لم يكن ذلك ميسوراً . كان ديونيسيوس

المالیكارناسی من أحسن الذین تصدوا للدفاع عن اللغة الیونانیة فی وقت تعرضت فیه للخطر بسبب إقبال الرومان علیها وإقبال أمم أجنبیة أخری.

حمل دیدیموس لقب « ذو الأمعاء البرونزیة » Chalcenteros بسبب جده واجتهاده الذی فاق كل جد . وكان یدافع فی الإسكندریة عن الأمر الذی كان یدافع عنه دیونیسیوس . وقد فسدت اللغة الیونانیة فی الإسكندریة أكثر منها فی روما ، إذ أساء استعمالها قوم جهلة . وقد وضع دیدیموس بحوثا فی الأدب الیونانی ووقف جهوده علی نشر هومیروس وثیوسیدیدیس والخطباء القدامی .

فالعمل الذی كان یناضل من أجله رجال من أمثال دیونیسیوس ودیدیموس یمكن أن یقارن بما یقوم به إنجلیز أو فرنسیون للمحافظة علی الأدب الإنجلیزی أو الفرنسی علی أعلی مستوی فی بلاد نائیة وهو عمل شاق جداً . وإن كانت مزایاه عظیمة . لأن الأدب الجید أقوم سبیل لنشر الحضارة .

وقف الباحثون الیونانیون السابقون جهودهم علی الدفاع عن اللغة والثقافة الیونانیة وشرحها فی مصر وآسیا بین أناس لغتهم الأصلیة هی الیونانیة ، وإن انحطت بتأثیر البیئة الأجنبیة[١٥] ، أو بین الرومان الذین لم تكن الیونانیة بالنسبة لهم إلا لغة أجنبیة . وهناك فئة ثالثة یجب أن ننظر فی أمرها ، أعنی الیهود الذین انتشروا فی جمیع أنحاء العالم الیونانی الرومانی ، ولا سیما فی المدن الكبری فی مصر وسوریا ، وفی روما ومدن أخری فی الغرب . إلی أی حد استجاب الیهود للغة الیونانیة ؟ لقد سبقت مناقشة هذا الموضوع عندما عرضنا للترجمة السبعینیة Septuagint فی الفصل الرابع عشر ، والدیانة الیهودیة فی الفصل السادس عشر . ولكنه موضوع بالغ الأهمیة جدیر بأن نعود إلی بحثه مرة أخری .

كان للیونانیین مكان الصدارة فی سوریا ، وكانوا یتحرقون شوقاً إلی الدفاع عن الحضارة الهلنستیة . وقد حمل أحد حكامهم ، انطیوكس الرابع إپیفانیس لواء الهلنستیة إلی درجة أشعلت الثورة المكابیة (فی سنة ١٦٨) . وقد نجح

اليهود فى الدفاع عن ديانتهم ، ولم ينجحوا فى الدفاع عن لغتهم . واستمر انتشار الحضارة الهلنستية لا على أيدى أمراء من اليونانيين فحسب ، ولكن على أيدى بعض المكابيين (أو الهاسمونيين) وعلى يد هيرود الأكبر (٤٠ — ٤ ق.م) : ملك يهوذا (اليهودية تحت لواء الرومان) .

ΣΧΟΛΙΑ ΠΑΛΑΙΑ ΤΩΝ ΠΑΝΥ ΔΟΚΙ ΜΩΝ ΕΙΣ ΤΗΝ ΟΜΗΡΟΥ ΙΛΙΑΔΑ.

ΥΠΟΘΕΣΙΣ ΤΗΣ Α. ΟΜΗΡΟΥ ΡΑΨΩΔΙΑΣ.

شكل ١٠٦ — ديديموس (النصف الثانى من القرن الأول قبل الميلاد) تعليقات قديمة من أحسن طراز على إلياذة هوميروس « Hypothesis of Homeric rhapsody نشره يانوس لاسكاريس وقام بطبعه أبيلوس كولوتيوس (فوليو ، ٣٠ سم ، زومة ، ١٥١٧) كتب البابا ليو العاشر فى السابع من شهر سبتمبر ، ١٥١٧ خطاباً باللغة اللاتينية فى السنة الخامسة من ارتقائه كرسى البابوية ، يقدم فيه هذا الكتاب ، ونشر خطابه فى آخر الكتاب فوق الخاتمة اليونانية. وقد كان يانوس لاسكاريس (١٤٤٥ — ١٥٨٠) يمثل المرتبة الثانية بعد ألدوس ما نوتيوس كناشر للأدب اليونانى فى أوائل عصر النهضة Emile Legrand, Bibliographie hellénique (باريس ، ١٨٨٥) ، المجلد الأول ، ص (١٥٩ — ١٦٢) .

كان عدد كبير من يهود مصر وسوريا يتكلم اليونانية ، وكانت لغتهم الأصلية ، فلم يكونوا فى حاجة إلى تعلمها ، إنهم كانوا يعرفونها . ومن المحتمل أن إلمامهم بلغتين جد مختلفتين كاليونانية والعبرية قد أيقظ فيهم إحساسهم النحوى . وإن كان هذا قد حدث ، فهم قد عرفوا كتاب ديونيسيوس ثراكس المسمى صناعة النحو Techne Grammatice وأخـــذوا عنه . والحق أن

ديونيسيوس (ولد حوالى ١٦٦) كان جاراً لم وجهوده ربما كانت من أحسن ماعرف فى الإسكندرية ورودس حيث ازدهر [١٦] .

وفى قيصرية [١٧] ، وهى مدينة بناها هيرود الأكبر ، كان هناك يهود يقرءون صلوات : « اسمع » [١٨] . . . باللغة اليونانية . . فضلا عن وجود أكاديمية للفلسفة اليونانية فى فلسطين. يقول رابان سيمبون بن جاماليل الحاخام: « كان هناك ألف شاب فى بيت أبى ، خمسمائة يدرسون القانون (اليهودى) ويدرس الخمسمائة الآخرون الفلسفة اليونانية [١٩] .

وكان رؤساؤهم يعرفون اليونانية معرفة لا بأس بها ، ولم تكن معرفة الجماهير اليهودية أجل من معرفة من يتخاطبون باليونانية ممن يقيمون فى الشرق ، ويدل على انتشار الحضارة الهلنستية بين اليهود فى الشرق عدد كبير من الآثار اليهودية والتحف الفنية التى تحمل طابع ذلك العصر [٢٠] ، ووجود كلمات يونانية كثيرة فى المؤلفات العبرية [٢١] .

وقد استخدم يهود كثيرون النثر اليونانى فى الكتابة ، ونظم بعضهم شعراً باللغة اليونانية . ومن أمثلة ذلك فيلون الأكبر الذى كتب ملحمة عن بيت المقدس Peri ta Hierosolyma . وألف ثيودوتوس ملحمـــة فى تاريخ شيشيم Shechem [٢٢] ووضع حزقيل تراجيدية عن الخروج Exodus [٢٣] ومن المحتمل أن هؤلاء الشعراء ازدهروا فى القرن الثانى قبل الميلاد . لاحظ أن الأول والثانى يحملان اسمين يونانيين كما كان الشأن بالنسبة لكثيرين غيرهم من اليهود فى ذلك الوقت .

وكثيراً ماكان اليهود فى تشتتهم فى الغرب ، حتى فى روما ، يتقنون اللغة اليونانية أكثر من اللاتينية .

فقه اللغة اللاتينية

كانت الشعوب التى تتكلم اللاتينية بطيئة جداً فى تطبيق قواعد النحو التى وضعها ديونيسيوس ثراكسى على واقع لغتهم ، ولكنهم عندما فعلوا فى النهاية،

كان أخذهم واضحاً وضوحاً كافياً . والاصطلاحات النحوية نفسها التى نعرفها (مضاف إليه ، مفعول به ، مصدر ، وهلم جرا) فى اللغة الإنجليزية ليست إلا ترجمة خاطئة لاصطلاحات يونانية . ومع ذلك لم يستمتع مؤلفو اللاتينية قط بالصفاء اللغوى الذى استمتع به اليونانيون الأول . وعلى أن هذا الصفاء نفسه دب إليه الفساد أثناء العصر الهلنستى ، لا لمن يتكلمون اليونانية وحدهم ، ولكن لكل من حولهم . وفقد ذاك الفردوس إلى الأبد .

وأصبحنا لا نتعلم نحو اللغات الأجنبية فحسب ، بل نحو اللغة التى نتلقنها من شفاه أمنا ، علينا أن نعرف نحوها جيداً حتى يصبح جزءاً من كياننا ، وعندئذ قد ننساه (أو نظن أننا قد نسيناه) ، فبعد أن يبلغ الإحساس النحوى ذروته ، يقبع النحو الذى تعلمناه فى اللاشعور ، وعندئذ نملكه حقاً . ألا ينطبق ذلك على جميع فروع المعرفة ؟

ولنعد إلى اللغة اللاتينية : فن الواضح أن كل رومانى حاول أن يتقن اللغة اليونانية ، وكل يونانى درس اللغة اللاتينية ، كان من المحتوم عليه أن يقوم بعمل مقارنات نحوية ، وأن يسأل نفسه أسئلة فى النحو ، ويجب أن يفترض أن المربين اليونانيين ، وهم يشرحون لطلبتهم النقاط الدقيقة فى الأسلوب الأتيكى كانوا يعطونهم ، عمداً أو دون عمد ، دروساً فى النحو . ولهذا يبدو كسل النحاة اللاتين النسبى أو تباطؤهم أمراً مدهشاً .

لم تدرس غالبية الرومان اليونانية ، إلا أنهم كانوا أذكياء ، أو بعبارة أدق إذا كان ذكاؤهم موجهاً توجيهاً صحيحاً ، أيقظت المقارنة بين اللغة اللاتينية واللهجات الإيطالية المختلفة حساسيتهم الفيلولوجية . وكثيراً ما ينسى المرء أن اللغة اللاتينية فى أول نشأتها كانت لهجة منطقة صغيرة نسبياً ، مدينة روما وإقليم لا تيوم ، ثم زادت تلك الرقعة تدريجياً واتسعت بعد انتصار الرومان على الإيطاليين والأقطار الأخرى . وليس معنى هذا أن اللاتينية حلت دفعة واحدة محل اللهجات المحلية ، ولم يكن ذلك ممكناً ، أو كان حلولها كالمألوف بطيئاً ، بدأت على مراحل فى أماكن مختلفة تبعاً لتاريخ الفتح ، وسارت ببطء أكبر

فى الأقاليم التى عظمت فيها المقاومة . وكان عليها أن تحل محل اللهجات الإيطالية مثل الأوسكية والأومبرية واللهجات غير الإيطالية مثل الأترسكية والليجورية ، وخارج إيطاليا كان عليها أن تنافس الكلتية والايبرية والليبية والبونية وكثيراً غيرها .

ولما كانت اللاتينية هى لغة الإدارة ، كان على كل مواطن رومانى أراد الالتحاق بإحدى الوظائف فى الحكومة المركزية أو المقاطعات أن يتعلمها . وكانت أفضل مدرسة لها هى الجيش الرومانى الذى جند عسكره من كل ولاية . فضلا عن أن الضباط والموظفين والتجار الرومان استقروا فى الأقطار الأجنبية بعد فتحها بفترة قصيرة . ونقلوا معهم لغتهم وأخلاقهم وعاداتهم .

وعندما جاء المسيح ، كانت هناك لهجات كثيرة ما زالت حية ، ومع ذلك أصبحت اللاتينية لغة دولية لا مجرد لغة قومية .

ومع كل الاعتبارات كانت دوليتها أسرع من اليونانية ، وإن كانت لم تعمر مثلها ، فاليونانية مازالت لغة حية إلى اليوم يتكلمها أناس كثيرون فى جميع مدن العالم ، فى حين نسيت اللغة اللاتينية ، فيما عدا بعض الكنائس والأديرة .

كان أول النحاة أو فقهاء اللغة من الرومان لوكيوس أيليوس ستيلو برايكونينوس الذى ازدهر فى النصف الثانى من القرن الثانى قبل الميلاد . وأصله من بلدة لا نوفيوم من أعمال لاتيوم، وتكلم اللاتينية منذ طفولته . وكان من علماء الآثار والنقاد ، كتب شروحاً لغوية لقانون الألواح الاثنى عشر[٢٤] ولكتابات قديمة أخرى، ونشر طبعات محققة من مؤلفات إنيوس ولوكيليوس . وباختصار كان ستيلو أول باحث بدأ فى روما ما كان يقوم به نحاة اليونان فى الإسكندرية منذ قرن. وتتلمذ عليه كل من فارو وشيشرون . واستمد تفكيره من النماذج اليونانية ولا سيما مناطقة الرواقيين ونحاتهم أمثال خريسيبوس السولوى (النصف الثانى من القرن الثالث ق.م) ، وهو نفسه من أتباع المذهب الرواقى .

ومن المبالغة أن يسمى ماركوس توليوس تيرو ، عتيق شيشرون ، وكاتم سره ، فقيهاً فى اللغة ، وإن كان قد اخترع الاختزال فى اللغة اللاتينية ، وعاونته مذكراته المختصرة التى سميت فيما بعد رموز تيرو notoe Tironianae على الاحتفاظ بخطب شيشرون وكتاباته الأخرى . ومن الطبيعى أن أى كاتم سر ذكى ، يدون إملاء مستمراً فى زمن طويل أو مقيد ، يحاول ابتداع بعض الوسائل التى تسهل عليه عمله . وقد كتب تيرو رسائل شخصية Epiostulae وألف كتاباً فى اللغة اللاتينية لا نعرف عنه شيئاً إلا عنوانه الجذاب :

De usu atque ratione Linguae Latinae (فى استعمال اللغة اللاتينية وفلسفتها) .

ونستطيع أن نتحدث فى اطمئنان عن فارو صاحب الكتاب العظيم فى اللغة اللاتينية De lingua Latina libri XXV وهو أحد كتابين وصلا إلينا (والآخر فى الزراعة) ، ولسوء الحظ لم يصلنا إلا قسم من الأول . وصلتنا خمسة أجزاء من الخامس إلى العاشر (والخامس والسادس كاملان) ويمكن تصور خطة الكتاب العامة كما يلى . الجزء الأول مقدمة تلقى نظرة عامة على الموضوع كله . والأجزاء من الثانى إلى السابع تشرح أصول الكلمات وانطباقها على الحسيات والمعنويات ، والثامن إلى الثالث عشر تعالج إعراب الأسماء والأفعال ، والرابع عشر إلى الخامس والعشرين تعالج قواعد اللغة ، والأجزاء : من الخامس إلى الخامس والعشرين مهداة إلى شيشرون . ثم وضع الكتاب كله قبل مقتل شيشرون بقليل سنة ٤٣ . لم يكن اشتقاق ڤارو للكلمات فى أغلب الأحوال سوقيا ولا خيالياً كما صنع القدامى (فى العربية أو اليونانية) ؛ لأنه لم تتوافر لديهم معرفة لغوية كافية تسمح بمعرفة أصول الكلمات[٢٥] كان عقليته فلسفية على نحو الرواقيين . وربما كان أول من أدرك فكرة أساسية فى النحو الحديث ، ألا وهى أن المستويات اللغوية Le bon usage ليست مطلقاً مستقرة ولا نهائية "Consuetudo dicendi est in motu" أى إن طرق الكلام فى تحرك مستمر . وقد حفظ لنا كتابه مقتطفات مختلفة واصطلاحات

وأشكالا قديمة لولاه لضاعت ، ومن المؤسف حقاً أنه لم يصلنا إلا خمسه فقط .

وآخر نحوى نذكره ربما كان خارج إطارنا ، وهو فاريوس فلاكوس الذى ينسب إلى عصر أغسطس ، وإلى آخره ، كان عتيقاً أثبت أنه مرب ممتاز ، يعهد إليه بالإشراف على تعليم أحفاد أغسطس . وضع كتباً تعليمية وأخرى فى النحو Libri rerum Etruscarum (فى الإترسكيين) De orthographia (الأشياء الجديرة التذكر) Libri rerum memoria dignarum (فى الهجاء وغيرها) . وأهم مؤلفاته نوع من المعاجم الموسوعية ، وكتابه هذا أقدم نوع منها فى اللاتينية De verborum significatu وهو محفوظ بجزئياً فى مختصر بومبيوس فيستوس P. Festus (القرن الثانى) وپاولوس دياكونوس P. Diaconus (النصف الثانى) من القرن الثامن . وقد نقل عنه پلينى الأكبر (النصف الثانى من القرن الأول) بعض المعلومات ، وبذا وصلت إلينا .

M.T.VARRONIS DE LINGVA LATI.

شكل ١٠٧ — ڤارو (النصف الثانى من القرن الأول ق . م .) De Lingua Latina طبعة پومپونيوس لايتوس (١٤٢٥ — ١٤٩٨) ، الذى أسس الأكاديمية الرومانية ، وكان على رأس علماء الإنسانيات فى زمانه . تمتعت الأكاديمية الرومانية بعصر ذهبى تحت رياسة پومپونيوس ، فى أثناء تولى البابا ليو العاشر (١٥١٣ — ١٥٢١) . وقد كانت إحدى ضحايا نهب روما الذى قام به شارل كوينت فى ١٥٢٧ . (كوارتو ٢٢ سم ، ٨٤ ورقة) (روما : جيورجيوس لاوير بدون تاريخ) ومن المحتمل أن تاريخها هو سنة ١٤٧١ . أول صفحة من نص ڤارو . وحرف Q الكبير كتبه بالمداد الأحمر رسام .

وأقدم كتاب فى النحو اللاتينى وضع فى زمان متأخر (حوالى ٦٧ — ٧٧)

ألفه كوينتوس ريميوس پالايمون Q.R. Palaemon (النصف الثانى من القرن الأول) . وهو فى الغالب عتيق أو يونانى ، واسمه يؤذن بأنه يونانى. وإذن فلم يستقر النحو اللاتينى قبل العصر المسيحى ، رغم المثل البارع الذى ضربه يونانى آخر هو ديونيسيوس ثراكس .

وفى الوقت الذى فتح فيه الرومان العالم وخلدت اللاتينية فى مؤلفات أدبية بلغت الذروة ، لم يكن تحليلها قد تم بعد . وبقيت مفرداتها غير كافية وكان كتاب الرومان لا يزالون يعتمدون على اليونان ، كما تحقق فى أحوال كثيرة على يد فلاسفة كشيشرون أو مؤلفون فى العلوم والفنون أمثال ڤتروڤيوس . ومن العسير معالجة الفلسفة أو الفنون دون استخدام ألفاظ يونانية ، وكان أعظم شعراء الرومان ينتحلون من النماذج اليونانية .

ويوضح ذلك صعوبة التأليف فى النحو ، كما يبين بطء الرومان فى الاقتراب منه . واليونانيون أنفسهم ما كانوا يستطيعون إتمامه لو لم يدفعهم ازدياد الصبغة العالمية وكثرة اللغات التى يتحدثونها ، ومع مضى الزمن أصبح الشعب الذى يتكلم اليونانية عاجزاً يوماً بعد يوم عن التحدث بالفصحى دون جهود مستمرة ، كالأجانب الذين كانوا يتعلمون اليونانية بمشقة. وبصورة غير طبيعية . كانوا فى حاجة إلى كتب فى النحو وإلى المفاهيم والأدوات الأخرى . وعلى هذا فلا غرو أن رأى هذا العصر ظهور علم النحو .

وعلى رجال العلم ألا يظنوا أن ذلك كان عملا صغيراً . وبطبيعة الحال لا يعد وضع كتاب نحو فى لغة معروفة عملا علمياً اليوم . أما واضعو النحو الأول أمثال ديونيسيوس ثراكس ، أو سلفه ديوجنيس البابلى وكراتيس المالوسى الذين حاولوا أن ينسقوا نتائج تطور طويل ، فقد قاموا بعمل علمى ذى أهمية ضخمة ومزايا كبيرة والكشف عن التكوين المنطقى للغة ما عمل علمى يشبه الكشف عن تركيب الجسم التشريحى ، ولم يظهر الوعى اللغوى إلا تدريجياً ، وبالتالى كان الكشف عن تكوين اللغة المنطقى بطيئاً جداً ، دون ذكر أسماء من قاموا به .

ووضع أول نحو للغة ما يعتبر عملا علمياً ، وإن كان قليل الأهمية . وفقيه اللغة الذى يضطلع بهذا العبء يقدر مقدماً أن لكل لغة نحواً ، ويعرف بجلاء ما هو بصدده . ومن الممكن مقارنته بالباحث فى علم الحيوان الذى يشرح لأول مرة حيواناً عثر عليه حديثاً . فكل الأنسجة والأعضاء متشابهة فى نظره ، وهى معروفة من دراساته السابقة ، وتشريح هذا الحيوان ما هو إلا صورة أخرى لتشريح كثير غيره . وباختصار إن وضع كتاب فى النحو لا يمكن مقارنته ألبتة بوضع علم النحو نفسه ، على نحو ما اضطلع به نحاة اللغة السانسكريتية واللغة اليونانية الأول .

ويجب أن نلاحظ أيضاً أن المحاولات العلمية كيفما كانت تؤدى إلى شىء من الدقة فى البحث العلمى . وكل بحث علمى لا يستغنى عاجلا أو آجلا عن ألفاظ وتعبيرات خاصة ، ويكشف عن أفكار جديدة لا بد أن تجد لها تعبيراً وافياً . ولا يكفى أن يستخدم العالم لغة صحيحة ، بل لا بد له أن يعرف بالدقة خواص آلاته وحدودها ، واللغة إحدى هذه الأدوات ، وعليه أن يتأكد من قدرته على التعبير عن أفكاره بدقة وفى غير إبهام . ومن الضرورى أن يتضمن تقدم العلم تحليل اللغة وتحديدها تحديداً كافياً . وعلى هذا كان وضع النحو خطوة أساسية فى تطور العلوم .

كان إقليدس وهيروفيلوس وكراتيسى وهيپارخوس وديونيسيوس ثراكس أبناء بيئة واحدة . اتجه حبهم للاستطلاع وجهات شتى ، وأدوا واجبات متماثلة .

تعليقات

(١) هذه تكملة للفصل الثالث عشر .

(٢) انظر تعليقاتي على ياسكا (القرن الخامس ق . م .) وبانيني (النصف الأول من القرن الرابع ق . م.) . ونحو (قواعد اللغة) السنسكريتية لم يكن معروفاً خارج الهند قبل نهاية القرن الثامن عشر ، ولهذا لم يكن من المستطاع أن يؤثر فى النحو الأوربى قبل ذلك . أما تأثيره فى تطور النحو المقارن فقد كان كبيراً فى القرن التاسع عشر ، ولكن هذه مسألة أخرى . سبق نحاة اللغة السنسكريتية العالم فى دراسة الأصوات phonetics ولكنهم لم يكتشفوا حروف الهجاء ، وإنما كان ذلك من عمل الساميين 111 — 1909 .Vol I, pp . وكانت الرواية الشفوية (ولا تزال) قوية فى الهند على شكل غير عادى .

(٣) يمكن معاونة القارىء على تصور الصعوبات التى يسببها عدم وجود ترقيم وعدم ترك مسافة بين الكلمات إن حاول فك طلاسم القطعة التالية :

"thetheoryofrelativityisintimatelyconnected withthe theoryofspaceandtimeishalltherefore beginwithabrief investigationoftheori — giofourideasofspaceaand time althoughindo ingsoiknowthatiiptro — duceacontrroversialsubhjecttheobjectofallscieucewhethernaturals — ciencearpsy chology is tocoordinateourexp erienceesand toobring themintoalogical systemhowareourcustomary ideasofspaceaandtimerelatedtedtothecharacterofourexperien- ces" Albert Einstein, The meaning of relativity (Princeton : Princeton University Press, 1945), opening paragraph.

(٤) نطق الحرف الصينى يمكن أن يهتدى المرء إليه بالعنصر الصوتى الذى يحتوى عليه (ص ٧٣ ح ١ من القسم الأول) .

(٥) ثراكسى أو ثراكوس تعنى تراقيا . ولكن هذا لا يستتبع أنه هو نفسه ولد فى تراقيا ، فقد يكون قد ورث الاسم عن أبيه أو عن أجداده .

(٦) قام جوستاف أوليج بطبع كتاب Ars grammatica (٢٢٤ صحيفة ، ليبزيج ، ١٨٨٣) . ألفرد هليجارو Scholia (٧٠٣ صحيفة ، ليبزيج ، ١٩٠١) . وقد ترجم الكتاب إلى الإنجليزية توماس دافيدسون ، انظر : Journal of Speculative Philosophy

(سانت لويس ، ١٨٧٤) ، ١٦ صحيفة .

Jacque Chahan Cirbied (1772 — 1834); grammaire de Denis de Thrace (٧)

tirée de deux MSS. arméniens de la Bibliothéque du Roi

(١٢٥ صحيفة ، باريس ، ١٨٣٠) ، النص باللغات الأرمينية واليونانية والفرنسية .

(٨) Greek Studies by G. Murray (أكسفورد ، مطبعة كلارينلون ، ١٩٤٦) ص ١٨١ .

(٩) ديموكريتوس الأبديرى كتب رسالتين عنوانهما Megas Micros; diacosmos (التنظيم الكبير والتنظيم الصغير) Diacosmos, تعنى الترتيب أو التفسير .

(١٠) « كوينتوس إنيوس اعتاد أن يقول إن له ثلاثة أفئدة ؛ لأنه كان يتكلم اليونانية والأوسكية واللاتينية » أولوس جيليوس (النصف الثانى من القرن الثانى) ليالى أتيكا ، ١٧ ، ١٧ . وهذا هو المرجع أيضاً عن الخبر التالى الخاص بكثرة اللغات التى كان يتكلمها ميثريداتيس .

(١١) كان تيموستنيس أمير البحر فى أسطول بطلميوس فيلادلفوس (٢٨٥ — ٢٤٧) ، وقد استعمل إيراتوستنيس وسترابون مؤلفاته فى تقويم البلدان .

(١٢) التاريخ الطبيعى ، ٦ ، ٥ ، (طبعة لويب ، المجلد الثانى ، ص ٣٤٩) كتب پلينى بعد موت ميثريداتيس بنحو مائة وثلاثين سنة ولكنه أشار إلى تيموستنيس الذى ازدهر فى القرن الثالث قبل الميلاد . وتقع ديوسكورياس فى النهاية الشرقية للبحر الأسود ، إلى الشرق من بونتوس وهى مملكة ميثريداتيس .

(١٣) ميثريداتيس (زيورخ ، ١٥٥٥) ، انظر كتابى :

Appreciation of ancient and medieval Sience during the Renaissance

(فيلادلفيا : مطبعة جامعة بنسيلفانيا ، ١٩٥٥) ، ص ١١١ ، عالج جيسنر مائة وثلاثين لغة ، بعدد اللغات التى كان لها مترجمون من الرومان فى ديوسكورياس . . وقد نشر Johann Christoph Adelung تحت نفس العنوان « ميثريداتيس » بحثاً أكثر عمقاً (أربعة مجلدات فى ستة ، برلين ، ١٨٠٦ — ١٨١٧) . وهذا هو السر فى أن كلمة ميثريداتيس كانت تعنى عند الكثيرين من الناس لغويات ، كما كان إقليدس يعنى الهندسة .

(١٤) ازدهر ديونيسيوس من سنة ٣٠ إلى سنة ٨ قبل الميلاد . ديديموس ولد حوالى

سنة ٦٥ ق . م . ومات حوالى سنة ١٠ بعد الميلاد .

(١٥) كلمة أجنبية barbaric استعملت هنا على النهج اليونانى لتدل على أى شىء أو غير يونانى . كان من يتحدثون اليونانية فى مصر وسوريا أقلية ضئيلة جدا ولكن كان هناك أناس كثيرون قادرون على الرطانة باللغة اليونانية الركيكة .

(١٦) على الرغم من المثل الذى ضربه ديونيسيوس ، لم يفكر يهودى ممن يتكلمون اليونانية فى استنباط نحو عبرى من واقع اللغة العبرية . ولم يوضع هذا النحو إلا فى عصر متأخر جدا تحت تأثير العرب ، وضعه Saadia Gaon (النصف الأول من القرن العاشر) . ويرجع ذلك إلى أمر مزدوج ، وهو أن النحو العبرى مختلف جدا عن النحو اليونانى وقريب جدا من نحو اللغة العربية .

(١٧) كانت قيصرية هذه على شاطئ السامرة (سماريا) ، وتبعد عن أورشليم ٥٥ ميلا ، إلى جهة الشمال الغربى . وقد أعاد بناءها هيرود الأكبر على مستوى كبير ، ثم أصبحت عاصمة ولاية يهوذا الرومانية أثناء ولاية المراقبين والنواب عن الإمبراطور .

(١٨) « اسمع . . . » مختارات من القطع القصيرة مأخوذة من سفر التثنية ، ٦ : ٤ — ٩ ، ١١ : ١٣ — ٢١ ، وسفر العدد ١٥ : ٣٧ — ٤١ ، التى تعبر عن أهم مبادئ العقيدة اليهودية والاسم مأخوذ من أول كلمة من أول قطعة شمع . . . اسمع ...

(١٩) Saul Lieberman : Greek in Jewish Palestine نيويورك ، ١٩٤٢) ص ١ . انظر أيضاً كتابه Hellenism in jewish Palestine (نيويورك نفس جهة النشر السابقة ١٩٥٠) . وهذان الكتابان يعالجان الفترة التى تلت ظهور المسيحية . توفى Rabban Gamaliel الأكبر حوالى ٥٠ بعد الميلاد وكان معلم القديس بولس (أعمال الرسل ، ٢٢ : ٣) .

(٢٠) Ernst Cohn - Wiener : Die Jüdische Kunst (برلين ، ١٩٢٦) ، Franz Landsbergere, History of Jewish Art سينسيناتى : اتحاد الكنائس الأمريكية ، ١٩٤٦) Erwin Ramsdell Goodenough : The Jewish Symbols in the Greco- Roman period, (٦ مجلدات ، كوارتو ، نيويورك : بانثيون (١٩٥٣ — ١٩٥٦) .

(٢١) انظر دليل الكلمات اليونانية الذى وضعه Immanuel Loew in Samuel Krauss : Griechische und Latinische Lehnwörter im Talmud. (مجلدان ، برلين ، ١٨٩٨ — ١٨٩٩) .

(٢٢) Shechem أو Sichem بلدة قديمة ورد ذكرها فى التوراة ، وهى أهم بلدان السامرة (سماريا) ، موطن يعقوب ، وفيها بئر يعقوب وقبر يوسف . وقد سميت فيما بعد نابلس أو نيابوليس .

(٢٣) Emil Schürer ; Geschichte des jüdischen Volkes im Zeitalter Jesu Christi (ثلاثة مجلدات ، ليبزيج ، الطبعة الثالثة ، ١٩٠٩) ، ترجمة انجليزية فى ثلاثة مجلدات قامت بها صوفيا تيلور وبيتر كريستى (نيويورك ، ١٨٩١) ، ص ١٥٦ — ٣٢٠ ، ولا سيما ص ٢٢٢ — ٢٢٣ .

(٢٤) الألواح الاثنا عشر مجموعة من أقدم القواعد فى القانون الرومانى ، نقلت عن العوائد القديمة ، ومن العسير تأريخها ، إلا إذا قلنا إنها ترجع إلى أقدم حضارة رومانية وتدل على أن تطوراً حدث ، كانت ذروته القانون المدنى Corpus iuris الذى نشره جستنيان (النصف الأول من القرن السادس) .

(٢٥) فى اشتقاق الكلمات اليونانية واللاتينية بصفة عامة ، انظر Peter Barr Reid Forbes, Oxford Classical Dictionary ص ٣٤١ .

الفصل السابع والعشرون

الفن فى القرنين الأخيرين (١) قبل الميلاد

النحت الهلنستى فى اليونان ومصر وآسيا

تقسيم الفن إلى مرحلة سابقة على عصر الإسكندر ومرحلة تالية لذلك العصر، تقسيم مصطنع فيه شىء من التحكم ، كما أن الفصل بين الفن فى القرن الثالث قبل الميلاد والقرنين التاليين لذلك القرن تقسيم أكثر اصطناعية وتحكمية ؛ وذلك لأن من المستحيل رسم خطوط تنطبق على جميع الأقاليم ، لأن الأسلوب الفنى لم يتغير بسرعات متساوية فى أقاليم مختلفة ، ولو كان الأمر غير ذلك لكان عجيباً خارجاً على منطق المعقول . ونشأت مراكز فنية كثيرة خلال القرنين الأخيرين قبل الميلاد ، وأهمها فى مدينة برجامة وجزيرة رودس ، وفى أثينا والإسكندرية وسكيون وغيرها ، وكان النحاتون ينتقلون إلى البلاد البعيدة للقيام بما يوكل إليهم من مهام ، ويجمعون حولهم مساعدين لهم وتلاميذ من أهل تلك البلاد ، فيبدأون بذلك مدارس جديدة . وفضلا عن ذلك كان بعض الفنانين محافظين فى أسلوبهم الفنى ، ولا يسيرون مع روح العصر ، وبعضهم الآخر كان يميل إلى الجرأة والهجوم والسبق على القديم ، وعلى أى حال فليس فى نيتى أن أكتب تاريخاً للفن الهلنستى ، بل أريد أن أعطى القارئ فكرة عامة عن أفكار الفنانين وأعمالهم الفنية(٢) .

ليس من المستطاع أن نضع تاريخاً دقيقاً للنحت الهلنستى باستثناء الأحوال التى تكون الأعمال الفنية فيها بتكليف من ملوك نعرف تواريخ حكمهم . وكان أهم مشجعى الفن فى القرن الثانى قبل الميلاد يومينيس الثانى ملك برجامه (١٩٧ — ١٥٩ ق.م) ، من الأسرة الأتاللوسية ، والملك السيلوكى أنطيوكس الرابع إيبفانيس ملك سوريا ١٧٥ — ١٦٤ .

كان أول هذين الملكين أكثر سخاء على الفن من الثانى ، إذ استمر فى القيام على نطاق أوسع بالأعمال المجيدة التى بدأها سلفه أتاللوس الأول (٢٤١ — ١٩٧) . وكان كل من أتاللوس الأول ويومينيوس الثانى حريصاً على رفع برجامه إلى نفس المكانة الفنية والثقافية التى وصلت إليها الإسكندرية أو إلى ما هو أرفع من ذلك[٣] . وكان الملك أتاللوس هو الذى قرر أن يعبر عن امتنانه للإله زيوس لا نتصار برجامه على الجالاتيين ، وذلك بإنشاء هيكل عظيم على المنحدرات الواقعة فى أعالى المدينة ، وكان ارتفاع هذا الهيكل ٤٠ قدماً ، وازدانت حيطانه بأفاريز ضخمة منحوتة بالنحت البارز ، وتمثل هذه الأفاريز مجموعة المعارك بين الآلهة (رمزاً لأهل برجامه) والعمالقة (رمزاً للجالاتيين المهزومين) . وبلغت الألواح التى نحتت فيها هذه الأفاريز ٧ ½ من الأقدام عرضاً و ٣٥٠ قدماً طولا ، وبقى لنا منها ثلاثة أرباعها تقريباً (على الأقل حتى الحرب العالمية الثانية) . وحتى تلك الأفاريز تناول النحاتون مراحل موضوعهم بخيال واسع وشجاعة مدهشة ، وهو موضوع حرب ضخمة ، ومن المحتمل ، برغم ضخامة الهيكل ، أن تم بناؤه فى نهاية حكم يومينيس الثانى ، وهو هيكل معروف للعالم الحديث ، لأنه نقل إلى ألمانيا وعرض بمتحف برلين عرضاً رائعاً .



شكل ١٠٨ — منظر عام لهيكل زيوس العظيم فى برجامه (منتصف القرن الثانى قبل الميلاد) حسبما أعيد تشييده فى متحف برلين قبل الحرب العالمية الثانية ، حيث كانت قطع النحت هى الأصلية ، ويمكن الاطلاع على صور أكثر من ذلك فى كتاب : Gerda Bruns : Das grosse Altar von Pergamon (74 pp.; Berlin, Mann, 1949) or in Margarete Bieber : The sculpture of the Hellenistic age (New York : Columbia University, Press 1955), Figs 458 — 470.

فى أثناء بناء الهيكل ، استخدم الملك أتاللوس عدداً كبيراً من النحاتين ومساعديهم ، ولو كان ذلك العدد صغيراً عندما بدأ أتاللوس فى البناء ، فلابد أنه كان هناك عدد كبير من هؤلاء وأولئك من مختلف البلاد فى نهاية حكم يومينيس ، وهكذا تأسست مدرسة برجامة فى جو من التعاون المستمر بين عدد كبير من الفنانين والمشجعين الذين جمع بينهم مشروع عظيم[٤]. وفى أثناء بناء الهيكل أو بعد الانتهاء من ذلك العمل الكبير أقيمت مبان كثيرة على أيدى هؤلاء الفنانين ،وذلك عندما لم يعد لديهم ما يشغلهم ، ووجدت بعض أعمال أولئك الفنانين طريقها إلى متاحف أوربا مثل تمثال « الجالى المحتضر » فى متحف الكابيتول فى روما ، وتمثال « الجالى الجريح » فى باريس ، أما تمثال « الجالى المنتحر بسيفه بعد قتل زوجته » وهو تمثال موجود فى المتحف الأهلى فى روما فهو نسخة مأخوذة من تمثال عمل فى برجامه فى ذلك العصر الذهبى[٥] .

ومن المحتمل أن الدراسة الدقيقة للنحت اليونانى بدأت فى برجامه (إن لم يكن فى الإسكندرية) ، وهذا طبيعى لأن نهضة فن النحت فى برجامه بدأت فى جو علمى ، ولا بد أن كبار الباحثين الذين عملوا فى مكتبة برجامه كانوا يريدون أن يعرفوا حياة كبار النحاتين فى الماضى ، ولذا يبدو أنه كان فى برجامه سجل للنحاتين العشرة الأوائل ، مثلما كان السجل الإسكندرى لخطباء أتيكا العشرة[٦] .

وبناء على ذلك يكون هذا السجل على جانب كبير من الأهمية . إنه يمثل رأى نحاتى برجامه فى أسلافهم الذين عملوا على محاكاتهم ، وهذه هى أسماؤهم مرتبة ترتيباً زمنياً ، وعندما يجد القارئ اسما دون ذكر البلد الذى ينتسب إلى ذلك الاسم . فإن هذا يعنى أن صاحب الاسم أثينى (أى إن ستة من العشرة كانوا من أثينا) ، وهم :

كاللون الأيجينى (عاش سنة ٥٢٠) ، هيجاس (أوائل القرن الخامس) كالاميس (عاش عام ٤٧٠) ، ميرون البيوتى (ولد عام ٤٨٠) ، بوليكيتوس

المنتمى إلى أرجوس وسيكيون عاش بين ٤٥٢ ، ٤١٢ ؛ فيدياس (٥٠٠ — ٤٣٢) ، والكامينيس (عاش بين ٤٤٤ ، ٤٠٠) وبرا كسيتيليس (حوالى ٣٧٠ — ٣٣٠) ولسيبوس السكيونى (وهو معاصر للإسكندر الأكبر) وكان أولئك جميعاً من أشهر تلاميذ فيدياس ؛ وكان آخر أولئك العشرة يدعى ديمتريوس .

على الرغم من التطورات التى حدثت خلال حكم أنطيوكس الرابع إپيفانيس كان هذا الملك حريصاً على تجميل عاصمته أنطاكية على نهر الأورونتيس (نهر العاصى) . كما كان منافسه يومينيس حريصاً على تجميل برجامه ، لذلك أمر أنطيوكس الرابع بصنع نسخ من تماثيل فيدياس الضخمة للإلهين زيوس وأثينا ، كما كلف بويثوس الخلقدونى بعمل تمثال نصفى أو تمثال كامل لشخصه لإقامته فى مدينة ديلوس ، وعاش بويثوس هذا حوالى عام ١٨٠ فى مدينة لندوس بجزيرة رودس . ومن أشهر أعماله تمثال « الولد الذى يحتضن إوزة ويكاد يخنقها » ، وهو تمثال له نسخ كثيرة . وهناك تمثال آخر لهذا الفنان وجد فى سفينة غارقة من القرن الأول قبل الميلاد بالقرب من مدينة المهدية فى تونس ، ويوجد هذا التمثال الآن بمتحف باردو فى تونس ، وهو تمثال للإله الشاب أجون الحامى المقدس للألعاب الرياضية ، وإلى جانبه تمثال برونزى نصفى للإله هرميس ، وهذه المجموعة الثنائية فريدة فى نوعها . لكن هل عاش بويثوس فى حاشية الملك أنطيوكس الرابع ؟ ومن المعروف أن أنطيوكس كان ملكاً مندفعاً متقلباً ، وكثيراً ما خلق مشكلات كثيرة لنفسه ولغيره . فهو الذى حاول القضاء على الديانة اليهودية ، وأن يحل الآلهة اليونانية محل عبادة أدوناى ، ولم ينجح أنطيوكس فى ذلك ، بل أدت محاولته إلى التعجيل بالثورة الميكابية الدينية ، واتهمه كل من اليونانيين واليهود بجريمة الخروج على الدين وانتهى الأمر بموته عام ١٩٣ وهو فى حال من الجنون[٧] .

وهناك شخصية أخرى معروفة من نفس العصر ، وهى شخصية داموفون أو ديموفون المسينى[٨] الذى كلفه أنطيوكس الرابع بإصلاح تمثال فيدياس للإله

زيوس فى مدينة أوليمبيا ، وربما كان ذلك بعد الهزة الأرضية التى حدثت عام ١٨٣ ، وبذا صار ذا خبرة بالنحت فى أضخم أشكاله ، وصنع تماثيل عديدة لآلهة وآلهات لمعابد فى جزر البيلوپونيز ، وفى موطنه مسينى ، وفى أخايا وميجالوبوليس وليكوسورا فى مقاطعة أركاديا . وشهد المؤرخ پوزانياس (النصف الثانى من القرن الثانى ق.م) المجموعة الضخمة التى قام بعملها داموفون لمعبد ديميتر ودسپينا بالقرب من ليكوسورا ، ووصفها فى كتابه الذى عنوانه « وصف اليونان » (الكتاب الثامن الباب ٣٧) ، وعثر الباحثون الأثريون على أجزاء كثيرة من هذه المجموعة ، ومن هذه الأجزاء رؤوس موجودة بمتحف أثينا ، وكان من هذه المجموعة أربعة آلهة فى صف واحد وهى ، دسپينا وديميتر جالستان فى الجانبين وأرتميس والتيتان أنيتوس واقفان فى الوسط[٩] ويلاحظ أن أمثال تلك المجموعة المتأثرة ولا شك بأعمال فيدياس الفنية ، ويمكن مقارنتها بها ، من حيث الضخامة على الأقل ، كانت تصنع فى نفس القرن على يد يوبوليديس فى أثينا ويوكليديس فى أيچيرا .

وفى القرن الثانى قبل الميلاد حافظ فنانون من أمثال بويثوس وفيليسكوس والأخوين أبوللونيس وتاوريسكوس التراليزى على عظمة الفن الرودسى . وربما كان فيليسكوس الرودسى صاحب المجموعة المشتملة على أرباب الفن التسعة ، وهى المجموعة الشهيرة التى وجدت طريقها فى النهاية مع تماثيله للإله أبوللو وليتو أرتميس[١٠] إلى معبد أبوللو بالقرب من باب أوكتافيا فى روما ، أما أبوللونيوس وتاوريسكوس التراليزى وهما ابنا أرتيمدورس فان منكراتيس الرودسى بناهما[١١] ، ويقال إنهما اللذان نحتا مجموعة ثور فارنيزى[١٢] وهى المجموعة ذات الأسلوب الباروكى لأبطال وحيوانات ، نبعت أشكالها الغريبة من تقليد جديد وصل إلى قمته فى فن النحت اليونانى فى تمثال لاوكون .

ومن الغريب أننا لا نعرف أسماء نحاتين آخرين من القرن الثانى ، ولابد أنه كان هناك كثيرون ، لا فى رودس فحسب ، بل فى بلاد أخرى كثيرة من بلاد العالم الهلنستى التى كانت تتمتع بدرجة من الرخاء ، وكان ذلك

بالنسبة إلى تلك البلاد دليلا على العزة القومية ومصدراً للفخر : وهناك قطع كثيرة من النحت البارز من العصر الهلنستى ربما كان مصدرها من رودس ، ومنها مثلا قطعة « تأليه هوميروس » بالمتحف البريطانى : وهى منسوبة إلى أرخيلاوس البرينى [١٣] وذلك فضلا عن النقش التذكارى بمتحف النحت بمدينة ميونيخ ، وتمثال « الاثنين على ظهر حصان » وأصله من جزيرة كابرى ، وموجود الآن بمتحف نابولى ، وكذلك تمثال « منظر خارج المنزل » وهو بالمتحف البريطانى ، وتمثال « ديونيسوس يزور بشراً » بمتحف اللوفر ، وتمثال « شاب ومعه محظياته » وهو بمتحف نابولى ، وأهم من ذلك كله القطعة الرائعة التى تمثل « هيلين وأفروديتى مع الصبى الكساندروس (أو باريس) وبجانبه ملاك شاب » ، وهى أيضاً فى متحف نابولى ، ونحن نورد صورة لها هنا (شكل ١٠٩) لأنها ليست معروفة بالدرجة التى تستحقها ، وسوف تساعد القارئ على تصور غيرها من القطع .



شكل ١٠٩ — هيلين وأفروديتى مع الصبى الكساندروس (أو باريس) وبجانبه ملاك شاب .

والباحث يدرك بسهولة كيف كان العمل فى هذه اللوحات البارزة شيئاً فنيًّا محبباً للعقلية المتأنقة بين أولئك الفنانين ، سواء فى رودس أو فى غيرها من المدن ، وذلك لأن المجال كان محدوداً فى نحت التماثيل ، لأنه كان فى استطاعة الفنان أن ينحت تمثالا لشخصية واحدة أو مجموعة من الشخصيات ،

ولكنه كان من المستحيل عليه أن يصور حول تمثاله شيئاً من البيئة[١٤] المحيطه به على حين كان من المستطاع فى نحت أية لوحة بارزة أن يصور الفنان ، لا أناساً وحيوانات فحسب ، بل أى شيء آخر حتى المبانى والأشجار ، فضلا عن الإيحاء الفنى بمنظر طبيعى . وبالاختصار فإن اللوحات البارزة تقابل فى النحت ما يراه الفنان فى الصور الملونة . وبما أن الصور الهلنستية الملونة مفقودة فنحن لا نعرف كيف استطاع المصورون القدماء أن يعبروا عن إحساسات مجموعة من الناس أو طبيعة البلاد من حولهم ، ومن حسن الحظ أن بعض اللوحات الهلنستية البارزة تعطينا مثل هذه المعلومات .

وخاصية أخرى من خصائص النحت الهلنستى البارز هى الميل إلى تصوير الأشخاص ، ومعظم الصور البارزة الموجودة بمتاحفنا إما هلنستية أو نسخ هلنستية مأخوذة عن أصول يونانية . وأشير هنا إلى أقدم الصور البارزة الموجودة فقط ، أما الصور المتأخرة فهى نسخ رومانية من أصول هلنستية أو نسخ هلنستية ، وأقدم نوع من هذه الصور البارزة هى الصورة المعروفة باسم « هيرما »[١٥] ومن المحتمل أن صوراً بارزة نحتت للملوك وملكات وأمراء وأميرات العصر الهلنستى ، ولكن كيف يمكن التأكد مما إذا كانت صورة ما تمثل الملك سليوكس نيكاتور أو أى ملك من ملوك البطالمة ؟ وفى حالات قليلة نستطيع أن نقارن بين هذه الصور البارزة والصور المنقوشة على النقود ، ولكنى غير مقتنع بهذه المقارنات ، أما التماثيل النصفية أو الكاملة لهوميروس ديموسثنيس وأيسخيلوس وسوفوكليس ، ويوريبيديس وهيبوكراتيس وأرسطو وأفلاطون فهى لا تزيد على أن تكون رموزاً ، وبلغ من شغف نقاد الفن بإعطاء أسماء لتماثيل نصفية وتماثيل كاملة مجهولة الأسماء أن خلقوا شخصيات خيالية لا حصر لها[١٦] ، والواقع أنه كلما أطلق ناقد معروف اسم أرسطو مثلا على تمثال نصفى ، أصبحت جميع التماثيل النصفية المشابهة تسمى تلقائياً باسم أرسطو . ومتاحفنا مكتظة بالتماثيل النصفية القديمة ومعظمها من العصر الهلنستى والرومانى التى لصقت بأسماء مشاهير الرجال لصوقاً غير مستند إلى حقيقة . وأنتج النحاتون الهلنستيون عدداً

كبيراً من هذه التماثيل لأنه كانت هناك سوق رائجة لها ، واتسعت هذه التجارة أكثر عندما بدأ المشترون فى غرب أوربا ينافسون المشترين من شرق أوربا وآسيا .

على أن أروج تجارة بين تجارات ذلك العصر كانت التجارة المتصلة بتماثيل الآلهة والآلهات والأبطال ، لشدة الحاجة المستمرة إلى تماثيلهم فى المبانى العامة والمعابد والقصور الخاصة . ومع أنى لم أقم بإحصاء التماثيل المرغوبة فإنى أعتقد أن أشكالا من تمثال أفروديتى كانت أكثر طلباً من غيرها ، ولدينا أشكال مختلفة لها : أفروديتى تخر من البحر ، أو أفروديتى تصفف شعرها أو أفروديتى تستعد للحمام، أو أفروديتى تخلع صندلها ، أو أفروديتى تركع هكذا . وفى تلك الأشكال كلها يكون جسمها دائماً عارياً تقريباً ، وقلما يكون نصف مغطى ، وأيما كان الشكل لا يرى الرائى سوى تصوير فنى بسيط ، أى جسم امرأة عارية ، ومع هذا بلغ من نبوغ الفنانين الذين صنعوا تلك الأشكال أنهم خلقوا نماذج لا تنسى .

ونستطيع المقارنة بين انتشار تماثيل أفروديتى فى العصر الهلنستى وانتشار صور السيدة العذراء فى عصر النهضة الأوربية الكبرى وما بعده ، مع الاختلاف الكبير من الناحية الفنية ، لأن أكثر صور العذراء شهرة ، زيتية بالألوان ، ومع أننا نستطيع أن نذكر صور المرأة التى اتخذها الرسامون نماذج لصور العذراء فإن الأشخاص والأشياء التى أحاطت بمختلف هذه الصور ساعدتنا كثيراً على الفهم[١٧] وهذا غير ممكن فى النحت ، ثم إن أفروديتى كانت تصنع دائماً عارية تقريباً وبدون أية إضافات ، ومع هذا فإن كثيراً من تماثيلها تمتاز عن سائر التماثيل الهلنستية ، وتلصق بالذاكرة لصوق أية شخصية حية .

ومن عديد التماثيل الخاصة بأفروديتى اشتهر منها تمثالان فى العصور القديمة ، ولا بد أن شهرتهما بلغت الأوج فى الأزمنة الهلنستية نفسها وأولهما تمثال أفروديتى الكنيدوسية من صنع الفنان براكسيتيليس (٣٧٠ — ٣٣٠)

انظر شكل (١١٠) ، وثانيهما صورة أفروديتى الكوسية من صنع الفنان أبلليس (حوالى ٣٣٢ ق.م) . ومما يدعو إلى ابتسام مؤرخى الطب القديم أن أحد هذين النموذجين يرتبط بمدرسة من المدارس الطبية المتنافسة فى اليونان القديمة ، ويقال إن كلا من هذين الشكلين منقول عن نفس النموذج فيرينى ، وهى امرأة ذات جمال فائق وربما اتخذها أحد الفنانين الاثنين المنسوب إليهما هذين الشكلين نموذجاً أو ربما تكون هى التى أوحت بتلك القصة الجميلة . وسواء أكانت القصة صحيحة أم مختلقة فإنها تساعدنا على أن نذكر أن هاتين القطعتين الفريدتين فى الفن القديم صنعتا فى نفس البيئة وفى نفس الزمن تقريباً ، أى فى عصر الإسكندر الأكبر ، وضاعت اللوحة التى صنعها ابيلليس نهائياً . أما أفروديتى الكنيدوسية فهى معروفة عن طريق نسخة مبكرة منها بمتحف الفاتيكان ، وأما أفروديتى المديتشية بمتحف أوفيزى بفلورنسا فربما ترجع إلى نفس عصر نسخة الفاتيكان (من نهاية القرن الثالث قبل الميلاد تقريباً) ، وأضيفت حديثاً إلى كنوز متحف المتروبوليتان فى نيويورك نسخة قديمة رائعة من أفروديتى المديتشية[١٨] .

وأكثر تماثيل أفروديتى شهرة فى العصر الحاضر تمثال عثر عليه الإيطاليون فى برقة بشمال أفريقية ويوجد الآن فى روما ، وتمثال آخر عثر عليه فى جزيرة ميلوس وهو الآن فى باريس ، وكلاهما رائع فى جماله لدرجة أن النقاد الأولين نسبوهما إلى القرن الرابع ، ولكن نقاد العصر الحاضر متفقون على أن كلا من هذين النموذجين من العصر الهلنستى وإن لم يكن من الممكن التحديد أكثر من ذلك . ويلاحظ أن هذين النموذجين عثر عليهما فى عصور حديثة نسبياً ، وفى أماكن غير مألوفة ، والتمثال الذى عثر عليه الإيطاليون فى برقة بشمال أفريقية ربما كان من إنتاج جزيرة رودس فى نهاية القرن الثالث قبل الميلاد وفيه إغراء وجاذبية شديدة ، ولا تقل أفروديتى الأخرى جمالا ولكنها أكثر نقاوة ، واكتشفها الضباط البحريون الفرنسيون فى جزيرة ميلوس[١٩] وأحضرت إلى متحف اللوفر عام ١٨٢٠ ، وفيها من الغموض مثل ما فيها من الجدية وليس

فيها أية سمة توحى بعمرها ، ومن الصعب وصف هاتين القطعتين الرائعتين وإن كان من المستحيل نسيانهما .



شكل ١١٠ – نموذج من الجص لتمثال «أفروديتى الكنيدوسية» من صنع پراكسيتيليس. حصل متحف المتروبوليتان على أصل هذا النموذج عام ١٩٥٢ ، وقاعدة التمثال الأصلى وقدم واحدة منه فضلا عن سمك الدولفين فى هذه القاعدة موجودة منفصلة بعضها عن بعض ومحفوظة بمتحف المتروبوليتان ، وهذه النسخة القديمة لأفروديتى المديتشية بفلورنسا كانت مخبأة فى إحدى قلاع سيليزيا منذ أيام العالم الألمانى الكبير ونكلمان (١٧١١ – ١٧٦٧) أو قبل ذلك . ونحن نورد صورتها هنا ، لأنها غير معروفة بدرجة تمثال «فينوس ميلو» وشقيقتها التى عثر عليها فى برقة الموجودة الآن فى روما . (هذه الصورة مأخوذة بإذن من متحف المتروبوليتان)

فى خلال النصف الثانى من القرن الأخير قبل الميلاد عاش نحاتان مشهوران، وربما كان مركز نشاطها مدينة أثينا ، وهما أولا أپولونيوس الأثينى ، ابن نسطور الذى نحت من الرخام تمثالا معروفاً باسم تمثال بلفدير النصفى ، ثم تمثالا من البرونز للملاكم ، وثانياً جليكون الأثينى الذى عمل نسخة من تمثال «هرقل»

المعروف باسم « هرقل فارنيزى »[٢٠] . وأقيم هذا التمثال فيما بعد فى حمامات كاراكللا فى روما ، ويمكن تسمية هذين الفنانين يونانيين رومانيين ، لأنهما يمثلان نهاية الفن الهلنستى .

ونستطيع التدليل على نهاية الفن الهلنستى تدليلا أدق وأحسن بالإشارة هنا إلى نحتين فنيين كبيرين ، وهما تمثال « النيل » وتمثال « لا وكون » ، وتمثال النيل الموجود بالفاتيكان نسخة من مجموعة يونانية مصرية قديمة ، وهذه النسخة صنعت لهيكل ايزيس وأوزيريس فى روما[٢١] ، وفيها أبونا النيل على شكل عملاق محوط بستة عشر طفلا ، مع تفاصيل فنية عديدة تذكرنا بالحيوانات المصرية[٢٢] . أما تمثال « لاوكون » (وهو موجود أيضاً بالفاتيكان[٢٣]) فيمثل قمة الفن الهلنستى الغامض (شكل ١١١) وهو من صنع ثلاثة فنانين ، وهم أجيسا ندروس وپوليدوروس وأثينودوروس الرودسى الذى انتهى من ذلك التمثال حوالى عام ٥٠ ق.م ونصب هذا التمثال فى قصر الإمبراطور تيتوس (٧٩ — ٨١ ب . م) على تل الاسكويلين فى روما ، وذلك نقلا عن پلينى (التاريخ الطبيعى ، ٣٥ ، ٣٧) . واكتشف ذلك التمثال فى روما فى عصر النهضة عام ١٥٠٦ ، وكان هذا الاكتشاف من أكبر الأحداث المثيرة فى عصر النهضة . ولقى هذا التمثال ما هو جدير به من إعجاب كبار الفنانين ، أمثال ميخائيل أنجلو وإلجريكو[٢٤] وتغنى به الشعراء ، وهو يعد من روائع العصر القديم فى نظر العلماء أمثال ونكلمان (١٧٥٥[٢٥]) وليسنج (١٧٦٦) وجوته (١٧٩٨) وبعد ذلك بقرن من الزمان ، أى عندما ازدادت المعرفة بالنحت القديم ، قل عدد المعجبين بتمثال لاوكون . وكثرت أعداد الذين لا يعجبون به .

وذلك لأنه اتضح تدريجياً أن النجاح فى التغلب على صعوبات القيام بعمل فنى ليس مقياساً للقيمة الفنية لذلك العمل . وبرهان ذلك أن الطريقة الفنية التى استخدمها صانعو « ثور فارنيزى » و « لاوكون » طريقة لا نظير لها ،



شكل ١١١ – مجموعة لاوكون كما ظهرت عقب اكتشافها فى روما عام ١٥٠٦ وهذا الشكل رسمه بالحفر ماركو دنتى الرافنى (مات عام ١٥٢٧) وبمقارنة هذا الشكل بصور لاوكون المعروضة بالفاتيكان تظهر اختلافات كثيرة سببها ترميمات فنية أحياناً وغير فنية أحياناً أخرى (هذه الصورة منقولة هنا بإذن من متحف المتروبوليتان) .

ولكن الرؤيا الفنية عند أولئك الفنانين كانت فقيرة ، والفرق بين العمل الفنى الأصيل والمهارة الآلية مثل الفرق بين الحكمة والعلم .

وتدل قصة نحت تمثال لاوكون أصدق دلالة على تطور الذوق خلال مختلف العصور[٢٦] لأن هذا النحت أنضج ما أنتجه العصر الهلنستى ؛ إذ نال الإعجاب أولا بسبب الإسراف فى التعبير عن الشعور بالآلام ، ثم بسبب الصعوبات الفنية الضخمة التى تغلب عليها الفنانون فى صنعه . يضاف إلى ذلك أن هذا النحت فتح المجال واسعاً لتعليقات الشعراء والمحافظين من نقاد الفن .

غير أن القطع الفنية الضخمة من نوع « ثور فارنيزى » و « النيل » و « ولاوكون » تعطينا فكرة ضعيفة خاطئة عن الفن الهلستى ، وعلينا أن نكون حذرين من ذلك ، وأن نذكر الأعمال الفنية الأخرى مثل « الانتصار الساموتراقى » و « أفروديتى ميلوس » و « أفروديتى برقة »[٢٧] وهى الأعمال الفنية التى تعد نماذج رائعة للفن اليونانى لدى الملايين من المثقفين فى جميع أنحاء العالم ، لكن قصة هذه الأعمال الفنية أقصر من أن تكون على قدم المساواة مع « لاوكون » . ثم إن « أفروديتى ميلوس » اكتشفت عام ١٨٢٠ ، كما اكتشف « الانتصار الساموتراقى »[٢٨] و « أفروديتى برقة » فى ٨ ديسمبر سنة ١٩١٣[٢٩] ، ولذا فإن شهرتها الكبيرة ليست مفهومة وهى على جانب من المغالاة وعدم النقاء فيما يبدو ، ولكن يجب أن نأخذها فى الحسبان[٣٠] . ومن الغريب أن هذه التماثيل الثلاثة التى يفضلها معظم المثقفين على سائر الأعمال الفنية الأخرى لا ترجع إلى العصر الذهبى للنحت اليونانى ، بل إلى العصر الفضى ، وهو عصر تدهور حين أخذت القيم اليونانية تتدهور بامتزاجها بمؤثرات مصرية وآسيوية

النحت الهلنستى فى روما :

كان دخول الفن الهلنستى إلى مدينة روما نتيجة لغزو الرومان للأراضى اليونانية ، وهذا الغزو قصة كلها حرب وسرقة للأعمال الفنية، مما يجعل الباحث يعجب ويسأل نفسه ماذا كانت مشاعر الرومان الفنية وقتذاك لأن سرقة الأعمال الفنية تعنى بالتبعية درجة معينة من الولع بها ، أو على الأقل شيئاً من الإعجاب والتقدير . ومع هذا يسأل الباحث نفسه هل تهذبت طبائع السارقين نتيجة لجمال ما يسرقونه . الجواب على ذلك لا بالتأكيد . ولكن الطبيعة الإنسانية معقدة ، وربما كان من الأفضل ألا نحكم على أولئك الرومان من عشاق الفن حكماً قاسياً .

ومن المعلوم أن مأساة الحروب كانت دائماً تشمل التخريب والنهب ، وهذا أمر فظيع ، ولكن هل هو أفظع من قتل الرجال واستحياء النساء ؟ ولم يكن ما فعله الرومان خلال غزواتهم أسوأ مما فعله المسيحيون الطيبون الذين قاموا بالحملة الصليبية المعروفة بالرابعة عندما نهبوا مدينة القسطنطينية عام ١٢٠٤ أو أسوأ من جنود شارل الخامس المسيحيون عندما نهبوا « المدينة الخالدة » عام ١٥٢٧ ، أو أسوأ من بونابرت عندما نهب الكنوز الإيطالية عام ١٧٩٦—٩٧ أو أسوأ من الدول الأوربية عندما نهبت مدينة بكين عام ١٨٦٠ ثم فى عام ١٩٠٠ — ١٩٠١ ، وهذه القائمة غير المشرفة ربما لا تكون كاملة ، وليس فيها سوى أمثلة قليلة ، ولكنها تكفى ، لا لتبرير جشع الرومان ، بل لوضعه فى مكانه التاريخى الصحيح ، والواقع أن الرومان لم يكونوا أسوأ من غيرهم من الغزاة ، وأفظع المآسى فى الماضى كله ارتكبها أناس « متحضرون ». عاشوا بعد ذلك بأكثر من ألفى سنة فى عصرنا الحالى ، ولهذا لا نستطيع أن ندين الرومان بالنهب دون أن ندين أنفسنا بالنفاق .

وكانت المراحل الكبرى فى تاريخ نهب الرومان للأعمال الفنية اليونانية كما يلى : أول تاريخ هام هو عام ٢١٢ ، عندما نهب كلوديوس ماركللوس مدينة سيراكوز ، وكانت هذه المدينة الغنية مملوءة بالتماثيل اليونانية التى شحنت إلى

روما لتزيين المعابد الرومانية ، ولن يجد مؤرخو العلم صعوبة فى هذا التاريخ ، ففيه قتل أرشميدس خلال نهب مدينته ، وأيقظ ماركللوس شهية الرومان للفن اليونانى ، وضرب للقادة الرومان وحكام الأقاليم الرومانية مثلا لم ينسوه .

وفى عام ٢٠٩ استولى فابيوس كونكتاتور على مدينة تارنت فى كالابريا ونهبها[٣١] وفى عام ١٩٨ تم نهب إرتريا[٣٢] على يد كونتوس فلامينينوس الذى حمل إلى روما أول أمثلة لفن ليسيوس . ومن الغريب أن فلامينينوس هذا هو الذى أعلن بعد ذلك بسنتين (عام ١٩٦) ، أى خلال الألعاب الرياضية بكورنثه ، باسم مجلس السناتو الرومانى حرية اليونان واستقلالها ، وذلك على قاعدة أن الفاتحين يعدون أنفسهم محررين . وفى عام ١٨٧ عاد جنايوس مانليوس فولسو من رحلة طويلة فى سوريا والأناضول ومعه غنائم كثيرة ، ورغم أن كثيراً من هذه الغنائم ضاع أثناء اختراقه تراقيا فإنه أحضر من الأشياء الفنية والتحف الآسيوية ما يكفى للتأثير فى الرومان . وكان جنود ما نليوس فولسو القدامى هم اللذين نشروا الذوق الفنى للكماليات الأجنبية فى العاصمة الرومانية ، وبعد هزيمة برسيوس عند مدينة پيدنا عام ١٦٨ على أيد أيميليوس بولوس المقدونى نقلت مكتبة بريسيوس وتحفه الفنية إلى روما ، وفى عام ١٤٦ نهبت مدينة كورنثه تماماً على يد ل. موميوس الذى باع كثيراً من التحف الفنية للملك برجامه ، وأحضر كثيراً منها إلى روما . والخلاصة أن معظم قطع النحت اليونانية التى كانت موجودة فى روما فى نهاية القرن الثانى جاءت من كورنثه ، وذلك نقلا عن المؤرخ پوليبيوس . وعندما فتح الطاغية فيليكس سللا أثينا عنوة عام ٨٦ تركت المدينة للنهب مدة ، ووجدت معظم كنوز أثينا طريقها إلى روما. وحذا ك. فريس حذو موميوس وسللا، ففى خلال حكمه لصقلية (٧٣ — ٧١) لم تعرف أطماعه ومطالبه حدوداً ، وكان فريس مهتما أولا بالثروة ، ولكن فى ذلك الوقت كان النحت اليونانى ذا سعر مرتفع فى السوق الرومانى ، وكذا أخذ فريس من التماثيل اليونانية بقدر ما أخذ من الحلى والنقود ، وهناك وثائق كثيرة لهذه القصة القبيحة ، لأن جهود فريس فى النهب بلغت

من القطاعة درجة أدت به إلى المحاكمة وكان ممثل الاتهام فى محاكمته شيشرون الذى كان يتولى منصب كويستورد مدع عام فى صقلية عام ٧٥ وأحب الصقليين وجزيرتهم . وكتب شيشرون ما لا يقل عن سبع خطب أو وثائق ضد فريس ، ونجح فى الحصول على حكم غيابى ضد هذا المجرم[٣٣] برغم ضخامة الصعوبات الناجمة عن تأييد الطبقة الأرستقراطية كلها لهذا الرجل وسرقاته . وكان فريس ملتجئاً بمدينة مارسيليا، حيث احتفظ بكنوز كثيرة إلى درجة أن ماركوس أنطونيوس اتهمه سنة ٤٣ بحيازتها ، ويقال إن ماركوس أنطونيوس كان يطمع فيها لنفسه ، أو لعله كان فى حاجة إليها لتجميل المعبد الذى أنشأه للإلهين إيزيس وأوزيريس . والواقع أن كثيراً من عمليات النهب والسرقة كانت تتم بدافع دينى ، فكان الناهبون يريدون تجميل المعابد التى تصادف هوى فى قلوبهم[٣٤] ، ولم يؤد نهب جزيرة رودس على يد كاسيوس لونجينوس[٣٥] فى عام ٤٣ إلى تجميل المعابد الرومانية بدرجة كبيرة ، ولكنه كان ضربة قاضية على المدرسة الفنية العظيمة فى الجزيرة .

وكان أحباب النحت اليونانى فى روما مولعين بتشجيع ابتكار قطع فنية جديدة ، وفى نفس الوقت كان الفنانون الذين استطاعوا الاستمرار فى أثينا والمدن اليونانية الأخرى يعرفون أن الرومان ربما أصبحوا أحسن مشجعيهم ، وربما كانت الأعمال الفنية التى تمت فى أثينا خلال القرنين الأخيرين قبل الميلاد بإيحاء أو بتشجيع من الرومان ، ومثال ذلك پوليكليس الأثينى وابناه تيموكليس وتيمارخيديس الذين بلغوا شيئاً من الشهرة فى اليونان ، وأقيم أحد تماثيل پوليكليس فى أولمبيا . وصنع ابناه تمثال أسكليوس فى الاتيا[٣٦] . ثم استقر پوليكليس وابناه فى روما ، بناء على نصيحة كيكليوس ميتللوس المقدونى ، فيما يبدو . ذلك أنه بعد أن غزا كيكليوس مقدونيا عام ١٤٦ ، وقبل وفاته عام ١١٥ ، بنى هذا القائد باب أوكتافيا فى روما ، وأدمج بعض أعمالهم فى ذلك البناء ، ومن أهمها تمثال پوليكليس « أبوللو يحمل القيثارة » . وحذا النحاتون اليونانيون حذو بوليكليس وابناه لأن روما أصبحت أفضل سوق

للفن اليونانى بعد اضمحلال أثينا . ومن الدليل على ذلك مثلا أن الفنان أركيسيلاوس قام بصنع قطع فنية للثرى الرومانى لوكلوس (حوالى ١١٧ — ٥٦) كما قام بصنع قطع فنية أخرى لاسينيوس بوليو مؤسس أول مكتبة عامة فى روما ، وللقائد فارو ، وليوليوس قيصر نفسه . وكان التمثال الذى صنعه أركيسيلاوس ليوليوس قيصر ، وهو التمثال المعروف باسم فينوس الأم ، تمثالا لتزيين المعبد الذى أنشأه يوليوس قيصر عام ٤٦[٣٧] . ومثال فنى آخر هو الذى صنعه النحات پاسيتيليس الذى كان فى روما من حوالى ٦٠ — ٣٠ ، ولم يكن پاسيتيليس على أية حال من اليونان، بل من إيطاليا ، التى كانت تسمى باسم اليونان العظمى . وبهذه الصفة كان هذا الفنان من بين الإيطاليين الكثيرين الذين استفادوا من قانون بلاوتيا پاپيريا[٣٨] ، وهذا القانون هو الذى أعطى جميع الحقوق الرومانية لجميع المقيمين فى إيطاليا جنوبى جبال الألب ، ولم يكن پاسيتيليس نحاتاً بل كان ممثلا للفن اليونانى ، وكان عمله مشابهاً لعمل يونانيين آخرين عديدين ممن شرحوا الآداب اليونانية للعالم الرومانى وكتب بحثاً طويلا عن الفن اليونانى عنوانه بعد نقله إلى اللغة العربية « خمسة مجلدات عن الأعمال المجيدة فى العالم » ، ومن المؤسف أن هذا البحث فقد لأنه آخر ما كتب فى العالم القديم بيد فنان محترف ، وكان پاسيتيليس من هواة الفن ، وربما أنه كان يساعد الهواة بنقده ، وأنشأ مدرسة الفن ، ومن أحسن تلاميذه ستيفانوس ، ومنيلاوس[٣٩] .

النحت الرومانى

وهذا يقودنا إلى موضوع النحت الرومانى ، أو بعبارة أدق النحت اليونانى الرومانى . ومن الصعب علينا أن نرسم خطوطاً تفصل بين الأعمال الفنية التى قام بها نحاتون يونانيون فى أثينا إرضاء للذوق الرومانى ، وبين الأعمال التى قام بها النحاتون اليونانيون فى روما ، والأعمال التى قام بها تلاميذهم الرومان،

ولم يوجد حد فاصل قاطع ، فالخصائص الرومانية مثلا أصبحت أكثر انتشاراً ولكنها لم تكن أبداً كافية لأن تمحو الأسلوب اليونانى أو أن تطغى عليه قبل عصر أغسطس قيصر . ومن الواضح أن النحاتين اليونانيين الرومانيين فى العصر الرومانى الجمهورى كانوا تحت التأثير اليونانى أكثر من الكتاب أمثال لوكريتيوس وشيشرون وفرجيل .

والحقيقة أن تأثير النحت اليونانى فى روما كان شائعاً عامًّا ، وكان اوضح بكثير من تأثير الأدب اليونانى فى الأدب الرومانى ، فلم يكن للأدب اليونانى تأثير إطلاقاً فى أناس لايعرفون اللغة اليونانية أو لا يعرفونها بدرجة كافية ، وأما جميع التماثيل فى المعابد والقصور الرومانية فكانت يونانية ، وكان أى شخص له ذوق فنى يستطيع أن يفهمها فى الحال .

وأصبحت روما أكبر سوق للفن اليونانى ، وكان هناك تجار وسطاء دائمون ومن أشهرهم أفيانوس إيفاندروس ، الذى كان صديقاً للخطيب شيشرون(٤٠) ، وبلغ من كثرة القطع الفنية اليونانية أن أى شخص أراد تجميل معبده المفضل أو منزله كان يستطيع بسهولة أن يحصل على احتياجاته فى المتاجر الرومانية .

وازدادت ميول الناس نحو الصور الفردية المنحوتة ، سواء أكانت صوراً نصفية أم تماثيل كاملة ، وفى هذا الميدان وجدت الصفات الرومانية أحسن فرصة للتعبير عن نفسها ، وخاصة صفة الواقعية ، مهما يكن رأينا فيها ، وربما ساعدت الصور الإتروسكية القديمة على تحويل النحاتين الرومان عن إعجابهم البالغ باليونان . وعلى أية حال فإن أفضل الصور الرومانية المنحوتة لم تظهر إلا فى نهاية العصر الأوغسطينى أو بعد ذلك .

ونظراً لتركيز الفن اليونانى فى روما أكثر من أية مدينة يونانية ، فليس من المستغرب أن تجىء معرفتنا بهذا الفن من المصادر اليونانية مثل بوزانياس (النصف الثانى من القرن الثانى) بقدر ما جاءت من مصدر لاتينى ، وهو كتاب التاريخ الطبيعى تأليف بلينى الأكبر (النصف الثانى من القرن الأول) ، وعلى أية حال كانت النتيجة الرئيسية لهذا التركيز تأخير ظهور فن رومانى خالص .

وربما قال الأخلاقيون هنا إن فى ذلك عقوبة صالحة جزاء لما حدث من مصادرة الفن اليونانى على نطاق واسع واستيراده إلى روما . وهو ما لم يحدث فى أى عصر من العصور على مثل ذلك النطاق ، أو بمثل هذه الدرجة من التمام . ثم تبعثرت التحف الفنية التى ملكتها الدولة الرومانية فى شتى أنحاء أوربا وأمريكا[٤١] .

وفى بداية القرن الثانى قبل الميلاد ، أدخل الرومان طرازين معماريين جديدين ، هما البازيليكا وقوس النصر .

أما البازيليكا[٤٢] ، فلم تكن بهواً بسيطاً بل مبنى مغلقاً ذا شكل مستطيل يستخدم قاعة للمحاكمة أو مكاناً للمعاملات المالية ، أو لاجتماع رجال المال والسياسة ، وأول هذا النوع من المعمار فى روما هو البناء المعروف باسم بازيليكا پوركيا الذى بناه الرقيب كاتو عام ١٨٤ ، وبالتدريج ظهر فى روما عدد كبير من هذا النوع من المعمار (حوالى العشرين) وبعضه كان مكشوفاً إلى السماء ، وبذلك كانت البازيليكا تشبه الأبهاء المبنية حول فناء الدار ، وبمضى الزمن تحولت هذه المبانى البازيليكية إلى كنائس مسيحية والاسم نفسه يوحى الآن بكنيسة مسيحية مبنية على نفس الطراز[٤٣] .

وأما قوس النصر فهو تطور رومانى لمبنى أبسط ، وهو باب النصر الذى كان القائد الرومانى المنتصر يستطيع أن يدخل منه إلى المدينة التى انتصر عليها . وأقدم قوس نصر بناه قائد رومانى اسمه ل.سترتينوس فى روما حوالى عام ١٩٦ ، والثانى بناه ب . سكبيو الإفريقى عام ١٩٠ ، وفى النهاية تم بناء ٨٨ قوساً للنصر فى روما ، وغيرها كثير فى العالم الرومانى ، ولم يبق من هذه الأقواس فى روما سوى خمس وليس بين هذه الأقواس الخمس واحدة ترجع إلى ما قبل الميلاد .

ربما كان أحسن مثل للنحت الرومانى الخالص هو مذبح السلام ، الذى دشنه مجلس السناتو عام ٩ ق.م تذكاراً للسلام الذى منحه أغسطس قيصر للعالم الرومانى . وكان المذبح محاطاً بحائط من الرخام ارتفاعه حوالى ثلاثة

أمتار ممثل عليه بالنحت الغائر موكب من الأسرة الإمبراطورية وكبار الموظفين الرومانيين ، وعلى قدر ما يستطيع الباحث أن يحكم من البقايا الأثرية ، كان هذا النصب القومى عملا رائعاً ، ومن الواضح أنه كان رومانياً فى هدفه ، فهو رمز دقيق للحضارة الرومانية فى أعلى مراتبها وهو مع هذا يذكرنا بالفن اليونانى إذ تبدو الشجرة الرومانية الفتية مطعمة بالجمال اليونانى .



شكل ١١٢ — مذبح السلام لأغسطس قيصر ، تم بناؤه فى روما سنة ١٣ ق. م. ودشنه مجلس السناتو فى عام ٩ ق. م. ، ولم يبق منه سوى بقايا قليلة ، ولكن محاولات عملت لإعادة بنائه كاملا ، وهذا الشكل لأحد الأفاريز ، ويصور أعضاء من الأسرة الإمبراطورية ، حيث يرى أجريبا واقفاً فى الوسط يضع على رأسه الغطاء الخاص بكاهن (مات ١٢ ق. م) . توجد شروح وصور أكثر من هذا المذبح فى كتاب : José Pijoàn, Summa artis 5, 271 — 79 (Madrid, 1934).

ونزعت أجزاء من مذبح السلام منذ عهد بعيد ، ولكن قطعاً منه عثر عليها فى أوقات متفرقة ، ويمكن رؤيتها فى متحف أوفيزى بفلورنسا ، ومتحف اللوفر ، ومتحف الفاتيكان ، وبوجه خاص فى المتحف الوطنى فى روما ، حيث تعرض نماذج من القطع الأثرية من هذا المذبح ، مع نموذج مؤقت للمذبح كله .

وفى القرن الثالث قبل الميلاد صنعت أحسن التماثيل الصغيرة المعروفة باسم تناجرا (انظر الفصل الثالث عشر هنا) ، وصنعت هذه التماثيل الصغيرة فى أماكن كثيرة ، ومن المحتمل أن يكون بعضها صنع فى إيطاليا ، على يد فنانين يونانيين ، واستعمل الفنانون الرومان مادة الفخار فى صنع تماثيل أكبر ، وأيضاً فى تزيين المبانى ، وربما استعاروا الفكرة من الأمثلة الأتروسكية(أوانى حفظ رماد الجثث وأقنعة الموتى ، والمجموعات المنحوتة على التوابيت) ، وكان هذا الفن الرومانى قديماً نسبياً ، واستمر استعماله فى العمارة حتى نهاية الإمبراطورية ، وفى عام ١٩٥ شكا الرقيب كاتو من أن التماثيل الفخارية

الموضوعة فى واجهة المعابد الرومانية تبدو وضيعة ومضحكة إذا هى قورنت بتماثيل اليونانيين الرخامية .

واستعمل الفنانون الرومان نفس المادة لتزين الحوائط وتخطية أخشاب السقوف والكرانيش ، وكانت اللوحات المصنوعة من الفخار تصب فى قوالب. وكتب شيشرون إلى أتيكوس ذات مرة يطلب منه نماذج قوالب أثينية. ثم قل استعمال القوالب الفخارية خلال العصر الأغسطسى ، لأن ازدياد الثروة شجع على استعمال الرخام بدلا من الطين المحروق .

التصوير الهلنستى والرومانى[٤٤]

من الغريب أن معرفتنا بالتصوير الهلنستى والرومانى فى ذلك العصر الذى نحن بصدده ناقصة . والواقع أن معلوماتنا عن المرحلة السابقة على ذلك العصر والمرحلة اللاحقة له معلومات طيبة ، ففى المرحلة السابقة على ذلك العصر كان تطور التصوير الزخرفى على الأوانى الفخارية مساعداً على الفهم ؛ إذ ندرك منه جميع الصفات المميزة لفن الرسم اليونانى ، أما المرحلة اللاحقة لذلك العصر فتوجد منها صور الحوائط من بومبى وهركولانيوم التى تتراءى فيها نماذج هلنستية[٤٥] .

ووصلت إلينا أسماء عدد قليل من الرسامين الرومان ، ومن أقدم تلك الأسماء امرأة اسمها أيايا الكيزيكية[٤٦] التى عاشت فى روما أيام شباب فارو (أى حوالى ١٠٠ ق.م) وكانت ترسم صور الأفراد ، وبخاصة صور السيدات بما فى ذلك صورتها، وكانت تحصل على أجر أكثر من أعظم منافسيها من الفنانين من الرجال ، مثل سوپوليس وديونيسيوس ، وعاشت دون أن تتزوج ، وهناك رسامان آخران يستحقان الذكر ، وأولهما تيموماخوس البيزنطى الذى ازدهر زمن يوليوس قيصر ، واشتغل برسم الموضوعات الأسطورية ،

فضلا عن رسم الأشخاص ، وثانيهما لوديوس (أو تاديوس) الذى ينتمى إلى العصر الأوغسطينى ، وهى الذى ابتكر « طريقة لطيفة فى الرسم على الحوائط ، حيث رسم فيلات وأبواباً ومناظر للحدائق وأشجاراً مقدسة وغابات وتلالا وأحواض سمك ، وبواغيز وأنهار وسواحل[٤٧] تتخللها شخصيات مختلفة تقوم بأنواع النشاط ، غير أنه لا توجد نماذج معروفة من تصوير هذين الفنانين ولكن الباحث يستطيع أن يتخيل كأن بعض صور پومپى مستمدة من هذين الفنانين .

المجوهرات والأحجار الثمينة المنحوتة

من أهم الفنون الزخرفية نحت الأحجار الثمينة أو « الكاميو »[٤٨] الذى جاء إلى روما من اليونان ، وقصة هذا الفن هى قصة النحت والتصوير فى العصور القديمة ، فنى مبدأ الأمر استوردت القطع الفنية ، ثم الفنانون أنفسهم ، وفى المرحلة الثانية قام الفنانون بتعليم تلاميذ من الرومان ، وهذه المرحلة الثانية لم يتم الوصول إليها فى أيام المسيح ، وكانت أحسن نماذج الكاميو الرومانية تصنع على يد يونانيين .

كان الملك متريداتيس الأكبر من أعظم جامعى الأحجار الثمينة المنحوتة[٤٩] وبعد وفاته عام ٦٣ أعطى پومپى كنوز متريداتيس لمعبد جوپيتر على تل الكاپيتول ، وأول رومانى جمع الأحجار الثمينة المنحوتة هو م. أيميليوس سكاوروس ، الذى كان مساعداً لپومپى أثناء حروب متريداتيس ، وبعدهما (حوالى عام ٦١) ، وهو الذى انتصر على أريتاس ملك نبطه ، وكان يوليوس قيصر أيضاً محبًّا لجمع الأحجار الثمينة المنحوتة ، وقدم منها أعداداً كثيرة للمعبد الذى سماه فينوس الأم ، وعلينا أن نذكر دائماً أن الاعتقاد كان سائداً بأن الأحجار الثمينة المنحوتة ذوات خصائص سحرية ، وإهداؤها للمعبد كان يشبه إلى حد ما إهداء الكنيسة المسيحية بعض الأشياء التى تكون ذات قيمة مادية (مثل

غطاء مذبح أو كأس نبيذ القداس) فضلا عن كونها مخلفات دينية ثمينة .

وحذا القادة والحكام الرومان حذو الإيرانيين والبابليين واليونانيين ، واستعملوا الأختام لتأكيد أوامرهم ، وربما كان يوليوس قيصر أول من عين حارساً لخاتمه الخاص ، وكان تعيين هذا الحارس بداية لموظفين من نفس النوع فى الحكومات التالية حتى العصور الحديثة . وكان للإمبراطور أغسطس قيصر ثلاثة أختام، يحمل الأول منها صورة أبو الهول ، والثانى رأس الإسكندر المقدونى ، وهما من عمل بيرجوتيليس . والثالث رأس أغسطس قيصر نفسه ، وهو من عمل ديسكوريديس وربما كان الخاتم الأول مصرى النموذج ، والثانى يونانياً ، والثالث يونانياً رومانياً ، وعاش الفنان ديسكوريديس فى روما وكان أعظم حفار فى العصر الأوغسطينى ، وخلفه أبناؤه الثلاثة وهم يوتيخيس وهيروفيلوس وهيللوس .

وهناك عدد كبير من المجوهرات المحفورة والكاميو القديمة يمكن فحصها فى حجرة الميداليات الملحقة بالمكتبة الأهلية بباريس ،وفى مجموعات مماثلة ، ولا معنى لوصفها هنا فإن ذلك يكون عملا مملا ، بل عديم القيمة لعدم وجود صور توضيحية[٥٠] .

تعليقات

(١) هذا الفصل استمرار للموضوع الذى بدأ فى القسم الثالث من الفصل الثالث عشر من هذا الكتاب.

(٢) يمكن الاطلاع على جميع الأشكال المتعلقة بالموضوع بسهولة فى كتاب :

Margarete Bieber : The Sculpture of the Hellenistic age (quarto, 244 pp., 712 ills; New York : Columbia University Press, 1955).

ويجد القارئ عدداً كبيراً من هذه الأشكال أيضاً فى كتاب :

José Pijoàn : Summa artis (Madrid, vol. 4, 1932; vol. 5, 1934).

فضلا عن كتب أخرى.

(٣) كثيراً ما يكون من الصعب توزيع الفضل بين أتاللوس سوتير ، ويومينيس الثانى . كما أن من الصعب توزيع الفضل بين بطلميوس سوتير وبطلميوس فيلادلفوس ، ومن الأسهل نسبة عصر برجامه (وأيضاً عصر الإسكندرية) إلى الملكين معاً .

(٤) أقصد هنا أن قطع النحت نقلت إلى برلين ، وبنيت بمتحف برلين قاعة ضخمة ليوضع بها نموذج للهيكل مع الأفاريز الأصلية وكان من أعظم معروضات متحف برلين فى تلك السنوات . ونقل الروس هذه التحف أثناء الحرب العالمية الثانية ، ومكانها الحالى غير معروف (خطاب من السيدة جيردا برونز من برلين بتاريخ ٣١ يناير سنة ١٩٥٢) .

(٥) كثيراً ما يخطئ الزائرون فى هاتين الحالتين فضلا عن حالات أخرى فهم معنى كلمة «جالى» فهم يفكرون فى الجاليين من إقليم الجال : أى فرنسا الحالية ، غير أن المقصود هنا هم الجاليون الآسيويون أو الجالاتيون ، انظر Piotr Biénkowski (مات عام ١٩٢٥) .

Die Darstellungen der Gallier in der Hellenistischen Kunst (184 ills.; Vienna 1908); Les Celtes dans les arts mineurs gréco — romains (336 figs. ; Cracow, 1928)

(٦) توجد قائمة بأسماء خطباء أتيكا العشرة فى المجلد الأول من النسخة الإنجليزية من هذا الكتاب ص ٢٥٨ ، وهم جميعاً ينتمون إلى القرنين الخامس والرابع ، ولذا استقر أمر هذا المسجل فى أوائل القرن الثالث ، وهذا هو تاريخ سجل برجامه تقريباً .

(٧) قام أعداء أنطيوكس بتغيير لقبه من إبيفانيس أى الواضح أو المشهور إلى إبيمانيس أى الغضبان .

(٨) مدينة مسينا هى عاصمة جزيرة مسينيا فى الجنوب الغربى من جزر البيلوبونز ، وهى غير مدينة مسينا الواقعة على الساحل الشمالى الشرقى لجزيرة صقلية .

(٩) دسبينا لفظ يونانى معناه السيدة وكانت تمثل مختلف الإلهات ، وخاصة برسيفونى وعرف الرومان الآلهة بوسيفونى باسم بروسيربنا . أما العمالقة وعددهم ١٢ أو ١٣ فهم مخلوقات ضخمة من أبناء الإله أورانوس أى السماء والإلهة « جى » أى الأرض .

(١٠) الإلهة ليتو ابنة أحد الآلهة العمالقة ، وهى أم الإلهين أبوللو وأرتميس من زيوس ، وكان الرومان الناطقون باللاتينية يطلقون على ليتو وأرتميس اسمى لاتونا وديانا .
(١١) ربما كان منكراتيس هذا هو الفنان الأول فى بناء الهيكل الكبير فى برجامه ، وكانت هناك صلات فنية وسياسية قوية بين برجامة ورودس ، والواضح أن تبنى منكراتيس لكل من أبوللونيوس وتاوريليكوس يجعلهما كما يجعل مجموعة ثور فارنيزى من القرن الثالث قبل الميلاد .

(١٢) « ثور فارنيزى » هو الاسم التقليدى والأسهل لمجموعة ضخمة توجد الآن فى المتحف الأهلى فى نابولى ، وتمثل هذه المجموعة الأخوين آمفيون وزيتوس يربطان الفتاة ديركه إلى قرنى ثور (وهى أسطورة معقدة ليس هنا مجال لسردها) والثور يشغل الجزء الأساسى من المجموعة التى تكون شكلا هرميا وعرفت المجموعة كلها باسم ثور فارنيزى لأنها كانت ضمن مجموعة الآثار الخاصة بأسرة فارنيزى المشهورة فى دوقية بارما ، ثم انتقلت هذه المجموعة فى النهاية إلى متحف نابولى .

(١٣) مدينة بريينى إحدى المدن الأيونية الاثنتى عشرة ، الواقعة على ساحل آسيا الصغرى فى شمال غرب كاريا ، وكان الاتصال سهلا بينها وبين جزيرة رودس والجزر الأخرى .

(١٤) لم يكن من المستطاع إلا إذا اتبع الفنان الطريقة اللطيفة التى اتبعها المصريون فى التمثال المصنوع من القاشانى لفرس البحر ، وهو من عهد الأسرة الثانية عشرة ، حوالى ١٩٥٠ ق . م . وموجود الآن فى متحف المتروبوليتان فى نيويورك . وتوجد حول ذلك التمثال أزهار اللوتس وطيور وأوراق شجر مرسومة على جسم فرس البحر وربما كان هذا جائزاً فى جسم فرس البحر ولكن كيف يمكن أن يستعمله الفنان مع أبوللو أو أفروديتى ؟

(١٥) النسبة هنا إلى هرميس ، ربما كانت هذه التسمية لأن بعض النسخ الأولى كانت تمثل الإله هرميس نفسه على شكل رأس ووجه ذى لحية فوق عمود حجرى ، وكلمة « هيرما » تستعمل لوصف صورة تقتصر على الرأس والجزء الأعلى من الصدر ، أما النصف الأعلى من الجسم فهو تطور رومانى جاء فيما بعد وأقدم الأمثلة الموجودة منه هى الرؤوس المغطاة بخوذات القادة العسكريين فى أتيكا ومن أشهرهم السياسى اليونانى بيركليس .

(١٦) G. Sarton, "Portraits of ancient men of science", Lychnos (Uppsula, 1945), pp. 249 — 256, 1. fig

وانظر أيضاً مقالة مختصرة فى :

(١٧) التمييز بين صور العذراء ليس فقط عن طريق التفاصيل التى تدل على مرحلة معينة من حياتها (التطهير ، البشارة ، الصعود وغير ذلك) بل أخذ كثير من هذه الصور الاسم الفنى المعروفة به من شىء خارجى مضاف إلى الصورة ويساعدنا على معرفتها ، مثل صور قديسين معينين ، أو ملائكة ، أو صخور جميلة ، أو أعشاب تحترق ، أو عباءة على كتفى العذراء ، أو سبحة ، أو عنقود عنب ، أو ورود ، أو بنفسج ، أو كمثرى ، أو تفاحة ، أو قرد ، أو أى نوع من الطيور مثل الزقزاق والصفير الذهبى وطير الحسون ، ويوجد من صور العذراء ومعها طير الحسون الذهبى الكثير ، بحيث إنه يجب التمييز بينها بطرق أخرى ، انظر Herbert Friedmann : The Symbolic goldfinch (New York : Pantheon, 1946) [Isis 37, 262 (1947)]

(١٨) Christine Alexander, Bulletin of the Metropolitan Museum of Art (New York, May 1953), pp. 241 — 251, 14 figs.

(١٩) هذه الجزيرة نائية إذا قورنت بالجزر الأخرى المبعثرة على طول الساحل الآسيوى وجزيرة ميلوس آخر جزر السيكلاديس غرباً وتحاذى الجزء الجنوبى الشرقى من البيلوبونيز تقريباً .

(٢٠) تمثال هرقل فارنيزى (فى نابولى) نموذج صنعه ليسيبوس ، وهو المثال المحبوب للإسكندر الأكبر . وهناك عدد ضخم من القطع الفنية (حوالى ١٥٠٠) منسوبة إليه ، وبفضل سخاء الإسكندر وتشجيعه .لا بد أن ليسيبوس استخدم فنانين آخرين كثيرين وسبق شرح كلمة فارنيزى فى الحاشية ١٢ .

(٢١) يقع معبد إيزيس وأوزوريس (أو سرابيس) فى روما ، وافتتحه ماركوس

أنطونيوس عام ٤٣ ق . م . ثم أمر تيبريوس بتخريب ذلك المعبد فى عام ١٧ . بسبب الفضائح التى يقال إنها كانت تحدث فيه .

(٢٢) تصوير النيل (أو روح النيل) عن طريق النحت فكرة فنية قديمة صورت على المبانى المصرية ، ونجدها مثلا فى هرم الملك سحورع بأبى صير (الأسرة الخامسة حوالى ٢٥٥٠ ق . م) وفى قطعة من النحت البارز بالمتحف البريطانى من عصر الأسرة الحادية والعشرين (حوالى ١٠٠٠ ق . م) غير أن المجموعة الضخمة المحفوظة فى الفاتيكان عمل فنى مختلف تماماً ، وهو المفهوم اليونانى الرومانى لفكرة مصرية ، وهناك تصوير لمنابع النيل فى باب هادريان ، بمعبد أنس الوجود (جزيرة فيلة بأسوان) وصورت أنهار أخرى بنفس الطريقة ، ومثال ذلك تصوير نهر تيبر الموجود فى متحف اللوفر .

(٢٣) كان لاوكون أميراً طروادياً وكاهناً لأبوللو ، دنس حرمة المعبد . أما موضوع التمثال فهو أنه بينما كان لاوكون يقدم القرابين على المذبح يساعده فى ذلك ولداه ، خرجت حيتان من اليمين واليسار والتفتا حول أجسام الرجال الثلاثة وهذا التمثال يصف عذابهم عند الموت ، وهو منظر حزين إلى حد لا يطاق . وكانت الصعوبات الفنية التى تغلب عليها الفنانون صعوبات ضخمة .

(٢٤) انظر صورة إلجريكو الرائعة للاوكون وخلفه منظر لمدينة طليطلة ، فى المتحف الفنى بمدينة واشنجتون وكانت هذه الصورة سابقاً ببلجراد ضمن مجموعة الأمير بولص الصربى .

(٢٥) كثيراً ما يطلق على العالم الأثرى ونكلمان (١٧١٧ ، ١٧٦٨) اسم أبو الآثار الكلاسيكية ، وهو أول المهتمين بالفن الكلاسيكى ، وإحقاقاً للحق فيما يختص به (وأيضاً فيما يختص بالعالمين لسنج وجوته) يجب أن نذكر أن أحسن نماذج الفن اليونانى لم تكن عرفت بعد .

(٢٦) يجد القارئ هذه القصة والنصوص المتعلقة بها فى كتاب :

Margarete Bieber: Laocoon. The influence of the group since the rediscovery (22 pp., 29 ills.; New York : Columbia University Press, 1942).

(٢٧) التمثالان الأولان موجودان فى متحف اللوفر ، ولذا فهما معروفان لدى الناس باسمهما الفرنسى ، أى أفروديتى دى ميلو وانتصار ساموتراكى . والواقع أن وجودهما فى اللوفر زاد فى شهرتهما إلى حد ما . ولا شك أن هذه الشهرة كانت تنمو بدرجة أقل لو أن

هذين التمثالين كانا فى متحف أصغر . ومن ناحية أخرى يجب أن نذكر أن قطعاً فنية كثيرة تعرض فى اللوفر منذ قرون دون أن تصبح مشهورة .

(٢٨) وصلت إلى متحف اللوفر مقدمة السفينة التى تظهر كقاعدة « لتمثال انتصار ساموتراكى » ، وتجعل لذلك التمثال قيمة عظمى. وكان وصول هذه القطعة الفنية إلى متحف اللوفر سنة ١٨٨٣ ولم تبدأ شهرة هذا التمثال إلا بعد عام ١٨٨٣ ، وبما أن تمثال النصر ربما كان عملا من أعمال القرن الثالث فإننا تحدثنا عنه فى الفصل الثالث عشر من هذا الكتاب ، مع العلم بأن الباحثة مرجريت بيبر ترجعه إلى أوائل القرن الثانى (٢٠٠ — ١٩٠) وتنسبه إلى فنان اسمه بيثوكريتوس الرودسى .

(٢٩) انظر Gilbert Bagnani, "Hellenistic sculpture from Cyrene," Journal of Hellenic Studies 41, 232. - 246 (1921).

ولاعجب أن أفروديتى برقة ليست معروفة مثل أفروديتى ميلوس ، لأن أفروديتى ميلوس ملأت إعجاب الناس قبل أختها بقرن من الزمان .

(٣٠) تكون الشهرة عادة مشوبة ببعض الخطأ على الأقل ، لأنها تعبر عن آراء غير العارفين بعض الأحيان ، وكثيراً ما تكون آراؤهم هذه مستندة إلى أشياء خارجة عن الموضوع . والواقع أن الشهرة مسألة عجيبة ، ولا يستطيع أحد أن يعرف كيف تبدأ وكيف تنمو وكيف تنبت فى عقول الناس . وهنا نسأل لماذا وكيف صار تمثال نفرتيتى أو تمثال أفروديتى كثير الرواج بين الناس ؟ ونستطيع أن نصفهما بأنهما من التحف الرائجة لكثرة إقبال الناس على شرائها .

(٣١) أطلق لقب المبطئ على كونتوس ماكسيموس فابيوس ، وذلك بسبب أساليبه فى البطء واجتناب الطرق الواضحة خلال الحرب ضد هانيبال (الحرب البونية الثانية) وكان اسم فابيوس هو الذى أوحى باسم الجمعية الفابية فى إنجلترا سنة ١٨٨٤ ، وأهدافها نشر الاشتراكية دون اللجوء إلى العنف أو الثورة .

(٣٢) تقع جزيرة إرتريا فى يوبيا وهى كبرى جزر بحر إيجه ، وهذه الجزيرة من القرب لأرض اليونان بحيث يمكن اعتبارها قطعة منها تقريباً ، وعند جزيرة خالكيس بضيق بوغاز يوريبوس بين الجزيرة وبيوتيا بحيث بنيت فوقه قنطرة .

(٣٣) يشتمل المجلد الأول من طبعة جورج لونج (لندن ١٨٥١) على الجزء السابع

من هذه الخطب وعنوانه « الخطب السبع ضد ڤرِّيس » ، انظر بداية الكتاب الرابع وعنوانه العلامات ، وكان ڤريس من أكبر جامعى الفن اليونانى فى صقلية وأضعفهم ضميراً ، وكان يستعمل الجواسيس والمخبرين مثل تليپولوس وهيرون للحصول على التحف الأثرية ، وفى مسينى (مسينا الحالية) جمع ڤريس تمثال هرقل الذى صنعه ميرون (عاش ٤٨٠-٤٥٥) ، وتمثال « حامل السلال» الذى صنعه بولكليتوس (عاش من ٤٥٢-٤٠٥) وتمثال إينوس الذى صنعه براكسيتيليس (عاش ٣٧٠ — ٣٣٠) .

(٣٤) قارن بهذا سرقة المخلفات المقدسة على يد المسيحيين المتعصبين ، الذين لم يترددوا فى ارتكاب الجرائم فى سبيل زيادة قداسة كنائسهم المفضلة (مقدمة المجلد الثالث من هذا الكتاب ، صفحات ١٠٤٤ ، ٢٦٦ ، ٢٩١) .

(٣٥) كثيراً ما يطلق على كاسيوس لقب « قاتل الطغاة » لأنه تزعم مع بروتس تكوين المؤامرة ضد قيصر ، وقام معه بقتله فى ١٥ من مارس عام ٤٤ ق . م .

(٣٦) كانت مدينة إلاتيا أهم مدينة فى البلاد اليونانية بعد دلفى ، وتقع فى فوكيس .

(٣٧) انظر Pliny, Natural History XXXV, 156.

(٣٨) صدر هذا القانون عام ٨٩ بفضل م . سلفانوس بلاوتوس الذى كان مدافعاً عن الشعب ومصالحه (تريبونا) فى هذه السنة ، وإلى ك . پاپيريوس كاربو الذى كان قنصلا فى ٨٥ — ٨٤ ثم فى ٨٢ ، وقتله پومپى عام ٨٢ ، ولم تكن الحقوق الرومانية تمنح لجميع الإيطاليين ، بل اقتصرت على أولئك الذين يستوفون شروطاً معينة .

(٣٩) انظر Pliny, Natural history XXXV, 156.

(٤٠) كان ك . أڤيانوس إڤاندورس ، أحد معاتيق م . أيميليوس أڤيانوس ، وكان يعمل فى تجارة الآثار فى أثينا عندما تعرف به شيشرون ، وفى ٣٠ ق . م . أخذ أڤيانوس إڤاندروس إلى روما أسيراً .

(٤١) ربما كانت الحالة الوحيدة المشابهة لاستيراد الفن الأجنبى هى استيراد القطع الفنية الصينية إلى اليابان ، واستيراد قطع الفن الأوربى والآسيوى إلى الولايات المتحدة . غير أن الهواة الأمريكيين لم يلجأ وا إلى السرقة ، بل بالغوا فى دفع الأثمان لدرجة أن رفعوا الأسعار العالمية للأعمال الفنية إلى مستويات عالية .

(٤٢) هذا هو الاسم اللاتينى الذى احتفظت به اللغات الإنجليزية ، وهو مأخوذ

عن صفة يونانية مؤنثة هي لفظ « بازمليكي » ، أي ملكي ، وكان اليوناني يطلق اسم « ستوا بازيليكي » stoa basilice. على البهو الملكي

(٤٣) من الأمثلة على ذلك كنيسة سانت كليمنت في روما ، وكنيسة سانت أمبروچيو في ميلان ، وكلمة الآن لها معنى ديني مستقل عن العمارة ، وبعض الكنائس يطلق عليها اسم بازيليكا بسبب عظمة تلك الكنائس ، التي تتمتع بامتيازات معينة ، ويوجد في روما سبع بازيليكات (ليست سانت كليمنت من بينها) وفي باريس تعتبر كنيسة القديسة كلوتيلد وكنيسة القديسة جان دارك وكنيسة القلب المقدس كنائس بازيليكية، وأقدمها كنيسة القديسة كلوتيلد التي بدأ بناؤها سنة ١٨٤٦ ، ثم كنيسة القلب المقدس سنة ١٨٧٦ ، ثم كنيسة القديسة جان دارك سنة ١٩٣٢ .

(٤٤) للاطلاع على الرسوم ، انظر Ernst Pfuhl, Meisterwerke griechischer Zeichnung und Malerei (160 ills., Munich, 1924); English trans. by J.D. Beazley (152 pp., 126 pls. London : Chatto and Windus, 1955).

(٤٥) تخريب مدينتا بومبي وهركولانيوم بسبب ثوران بركان فيزوف في ٧٩ م . ، ولكن كانت كل منهما مدينة قديمة ، وترجع رسوم الحوائط بهما إلى السنوات الواقعة بين سنة ٣٠٠ ق.م وسنة ٧٩ م ؛ وقد قسمت هذه الرسوم إلى ثلاث مجموعات وأقدمها رسوم الطريقة الأولى : ثم رسوم العصر الواقع بعد عصر سهلا (١٣٨–٧٨) وهي رسوم الطريقة الثانية . ثم رسوم العصر الواقع بعد عصر أغسطس (مات في ١٤ م .) ، وهي رسوم الطريقة الثالثة وفي هذه الرسوم الثالثة عناصر مصرية ، غير أن أهم تلك الصور جميعاً هي رسوم الطريقة الثانية أو الثالثة .

(٤٦) للتعريف بلفظ يايا أولالا أو لايا أو مايا (؟) انظر Pliny, Natural history, XXXV, 147; Pauly — Wissowa, vol. 17 (1914) 612

(٤٧) انظر Pliny, Natural History, XXXV, 116 وربما قصد پليني أن الفنان لوديوس ابتكر هذه الطريقة الجديدة في روما، وكان الفنانون الهلنستيون يمارسونها من قبل .

(٤٨) الكاميو حجر منحوت بالنحت البارز وخاصة من حجر الكوارتز أو حجر الأونكس أو الساردونكس ذي طبقات متعددة الألوان، ويحاول النحات أن يجعل الشخص المنحوت فيها في لون والأرضية في لون آخر .

(٤٩) جمع الملك مثريداتيس مجموعات من التحف بحيث استغرق الرومان ثلاثين يوماً في عمل قائمة لمخزن واحد من مخازنه ، وهو مخزن تالورا ، ولا أعرف أين كان هذا

المخزن ، وللحصول على معلومات أكثر عنه بصفته محبا للفن وجامعاً له انظر كتاب :

Theodore Reinach : Mithridate Eupator (Paris 1890). pp. 286, 399.

(٥٠) ربما نكتفي هنا باستثناء واحدة من أحجار الكاميو ، وهي المعروفة باسم الكاميو الكبير الموجود في سانت‌شابل ، وهي الكاميو المختار من قسم الميداليات في المكتبة الأهلية في باريس ، وهي أشهر كاميو في العالم القديم وأكبرها حجماً (٣٠×٢٦) ، وتنسب إلى ديسكوريديس حفار عصر أغسطس ، وتمثل تمجيد القائد الروماني القديم يوليوس قيصر جرمانيكوس ، وهذا القائد (١٥ ق . م . — ١٩ م .) تبناه الإمبراطور تيبيريوس في عام ٤ م . ، واحتفل في روما في ١٧ بانتصاره على الجرمان . ولذلك كان هذا الكاميو منسوباً إلى ما بعد المسيحية بقليل ، وتوجد صورته ووصفه في كتاب :

Ernest Babelon, Catalogue des camées antiques de la Bibliothèque Nationale (2 vols.; Paris 1897), no. 264, vol. I, pp. 120 — 137; vol. 2, pl. XXVIII.

الفصل الثامن والعشرون

الاستشراق فى القرنين الأخيرين[1]

إن قصة الاستشراق فى القرنين الأخيرين للحضارة اليونانية أقل إثارة للدهشة منها فى القرن الأول ، وينبغى ألا يغيب عن بالنا أن بعض الأعمال التى بدئت فى القرن الثالث قبل الميلاد استمرت فى القرون التالية ؛ وهذا يصدق مثلا بالنسبة للترجمة السبعينية .

بلاد الأطراف : الإمبراطورية البارثية والبحر الأحمر

كان العالم الهلنستى مصطبغاً بصبغة نصف شرقية ، فكان هناك أمراء يونانيون أو مقدونيون يحكمون فى الجزر وفى مصر وفى بلاد كثيرة فى آسيا الشرقية . وكانت هناك مستعمرات يونانية أو مصطبغة بالصبغة اليونانية فى كل تلك البلاد ، ومراكز أمامية متطرفة حتى الإقليم الطيبى فى الجنوب وحتى نهر أمو داريا (جيحون) ونهر السند نحو الشرق . ومن جهة أخرى كانت هذه المستعمرات متشربة للتأثيرات الشرقية . وهذا لم يكن مقصوراً على المستعمرات المحلية ، بل شمل أيضاً المستعمرات النائية التى نشأت فى أرض بابل وإيران والهند .

ومنذ أواسط القرن الثالث وما بعده كانت الإمبراطورية البارثية هى الأرض الرئيسية التى تفصل بين الشرق والغرب . وكانت شعبة من الإمبراطورية السليوكية أثناء انحلالها ، لما ثار الأخوان السكيذيان، أرساكيس وتيريداتيس ، الحاكمان لإقليم بلخ ، على سيدهما أنتيوكس الثانى ثيوس (٢٦١ — ٢٤٦) . وحوالى عام ٢٥٠ صار أرساكيس أول ملك مستقل حكم بلاد بارثيا وكانت عاصمة ملكه هيكاتومبيليس[2] . وهو مؤسس الإمبراطورية البارثية التى وسعها خلفاؤه شيئاً فشيئاً . وينتمى إلى الأسرة الارساكية التى عمرت نحو خمسة

قرون (٤٧٦ عاماً) ، ثلاثون ملكاً حكموا من ٢٥٠ ق.م. إلى ٢٢٦ م [٣] .

واجتاح البارثيون الولايات المجاورة حتى امتدت إمبراطوريتهم من نهر الفرات إلى نهر السند، ومن نهر آمو داريا (جيحون) شمالا إلى المحيط الهندى جنوباً . وهذه الامبراطورية لم تهدد روما كما هددت إمبراطورية الأخمينيين (التى دامت حتى ٣٣٠ ق.م) بلاد اليونان ، لكنها كانت حاجزاً قوياً فى طريق الرومان نحو الشرق . وكانت انتصارات البارثيين راجعة فى بعض أمرها إلى خططهم فيما يتعلق بالخيالة ، وقد جمعوا بين المهارة التامة فى ركوب الخيل وبين الرماية بالسهام [٤] ، وكانوا فى ذلك السابقين لغزاة المغول [٥] . وقد استطاع تيجرانيس [٦] حوالى عام ٨٨ والأعوام التالية أن يوقف تقدمهم مؤقتاً من جهة حدودهم الشمالية الغربية ، لكنهم هزموا الرومان هزيمة منكرة عند كراى [٧] عام ٥٣ ق.م ، وعندها فقد كراسوس [٨] جيشه وفقد حياته . ثم أوقف تقدمهم غرباً عام ٣٩ — ٣٨ ، بفضل انتصارين لفنتيديوس نائب أنطونيوس ، وبسبب تفرق كلمتهم فى الداخل ، فاستطاع أغسطس بفضل هذا الشقاق أن يعيد السلام حوالى عام ٢٠ على الحدود البارثية . على أنه كانت لاتزال هناك منافسة شديدة بين الإمبراطوريتين الرومانية والبارثية وخصوصاً حول السيطرة على مملكة أرمينية ، وكانت كل منهما على السواء حريصة على « أن تحميها » .

والفرق الجوهرى بين الإمبراطورية السليوكية والإمبراطورية البارثية التى حلت محلها جزئياً ينحصر فى أن الحكام السليوكيين كانوا من أصل يونانى ، وكانوا أكبر أبطال الحضارة الهلنستية فى آسيا بينما كان الارساكيون سكيذيين Scythians أو أسيويين . ولم تخلب الثقافة اليونانية لبهم بوجه من الوجوه . أما فيما يتعلق بالتجارة الدولية فإن من العسير أن نعرف ما إذا كان البارثيون قد استطاعوا أن ينهضوا بها لمصلحتهم أم لم يستطيعوا ، وذلك لأن ما نعرفه عن التجارة الهلنستية هو أقل من القليل . وكما لاحظ تارن ، « كانت التجارة الهلنستية أشبه بكتابة على رق محيت وحلت محلها كتابة أخرى هى التجارة الرومانية ، مثلما عنت

آثار الطرق الهلنستية تحت آثار الطرق الرومانية ، ولا يستطيع الإنسان أن يجعل من الأحوال الرومانية المعروفة أحسن من غيرها أساساً للحكم على ما كان قبلها حكماً لا سند له إلا مجرد الاستدلال »[٩] . وكان المركز الرئيسى لتجارة الشرق فى البحر المتوسط لا يزال هو الإسكندرية ، ولكن هل كانت طرق التجارة البارثية هى التى تملأ مخازن الإسكندرية أم لا ؟ ولا يمكن ذكر التجارة العربية هنا لأنها كانت تأتى دائماً من طريق البحر الأحمر ، لكن هل كانت القوافل الهندية والصينية تلقى تشجيعاً على السير عبر الأراضى البارثية ؟ كان جزء من تجارة الهند يأتى عبر الصحراء العربية أو على شاطئ البحر الأحمر ويمكن الحكم على أهميته من الازدهار العجيب لمدينة البتراء النبطية[١٠] .

وكان المصدر الرئيسى للحديد هو إقليم خاليبيس (إلى الجنوب من شرق البحر الأسود) وكان أسهل طريق لذلك الحديد كى يصل إلى الغرب هو السير عبر البحر الأسود ومضيق البوسفور . والمخزن الرئيسى له فى كيزيكوس فى بحر مرمرة . وهناك نوع أجود من الحديد يأتى من الصين عبر بلاد الصغد Soghdiana وشطر الإمبراطورية البارثية . وكانت تستورد أشياء كثيرة من الهند مثل البضائع القطنية (موسلين muslins) . وقد استطاع تشانج تشين السياسى الصينى (النصف الثانى من القرن الثانى ق.م) أن يسافر غرباً حتى بلغ أرض الصغد وبلخ ، وقبل أن يجئ عام ١١٥ « كان قد أنشأ علاقة تعامل منتظم بين الصين وبين الغرب »[١١] . ويحتمل أن « طريق الحرير الصينى » لم تكن مطروقة قبل ذلك العصر وأن استيراد الحرير الصينى ظل قليلا إلى ما بعد ذلك بكثير[١٢] والواقع أن عشاق الحرير فى حوض البحر المتوسط كانوا أكثر استعمالا للحرير الخشن الذى كان يأتى من كوس ومن سورية[١٣]

وليس بيسير إعطاء معلومات أكثر دقة عن التجارة بين الشرق والغرب التى كانت تأتى عبر بارثيا أكثر مما كانت تأتى من طرق أخرى إلى جنوب تلك الإمبراطورية . وشكوكنا تشمل التبادل الثقافى أيضاً . فالتأثيرات الإيرانية

مثل نحلة مترا Mithraism ، انتشرت جنوب بلاد القوقاز ، عبر أرمينية والبحر الأسود . لكن معظمها كان قد بلغ الغرب وبدأ حياة جديدة هناك قبل تكوين الإمبراطورية البارثية . والفلكيون الكلدانيون قاموا بكثير مما عملوه بعد حلول حكم الاسكاليين محل حكم السليوكيين ، لكنه ظل مجهولا لأهل الغرب إلى أيامنا هذه[١٤] . ومن جهة أخرى فإن قدراً يسيراً من الفن اليونانى انتقل شرقاً[١٥] ، لكن الرحلة الرئيسية للفن اليونانى مع طول الطريق حتى قندهار وما بعدها لم تقع إلا بعد ذلك (بعد المسيح) . وأحسن آثار الفن البارثى هى قطع النقود . وكان استعمال النقود فكرة يونانية ، ثم صارت شرقية وبصورة متزايدة . وبالجملة يبدو أن الإمبراطورية البارثية (فى العصور السابقة على المسيحية) كانت على الأقل حاجزاً يحول دون صبغ الشرق بالصبغة الهلنستية ودون صبغ الغرب بالصبغة الشرقية بدل أن تكون سبيلا لذلك . على أنها لم تكن حاجزاً صلباً ، بل ضرباً من سياج القضبان أو حاجز التعريشة الذى يسمح بمرور قليل من الحرير والخوخ والمشمش فى اتجاه الغرب وبمرور الزمان إلى الشرق .

التجارة مع الهند والصين :

نظرنا حتى الآن فى أمر الحدود الشرقية فحسب ، لكن التأثيرات الشرقية لم تقف عن التدفق آتية من مصر . وكان البحر الأحمر حلقة اتصال بين مصر من جانب وبين جزيرة العرب وكل بلاد الهند وجزرها من جانب آخر . وكان النيل الأعلى حلقة اتصال مع السودان وإثيوبيا وغرب أفريقية[١٦] . وكانت الرياح الموسمية لا تزال تسوق السفن من ساحل ملبار إلى جزيرة العرب أو إلى بلاد الصومال ، ومن هناك كان بعض الهنود يتحركون كما تتحرك بعض السلع والأفكار الهندية نحو الشمال إلى عالم البحر المتوسط .

على أن معظم ما نعرفه عن تبادل الأفكار والسلع بين الشرق والغرب يتعلق بالأزمة المتأخرة ، فمثلا وجدت نقود رومانية كثيرة فى الهند لكنها تكاد تكون كلها من عصر ما بعد المسيح[١٧] .

بوليبيوس :

معظم معلوماتنا عن البلاد الشرقية مستمد من المؤرخين اليونانيين ، خصوصاً بوليبيوس (النصف الأول من القرن الثانى ق.م) ؛ فمثلا فى كلامه عن الحرب بين أنتيوكس الأكبر وأرساكين (٢١٢—٢٠٥) وصف جيد لنظام القنوات[١٧] العجيبة التى تسير تحت الأرض والتى عملت فى البلاد الإيرانية ووصف قصر إكتابانا Ectabana العجيب[١٨] ولا شك أنه إن لم يكن قد أمد قراء تاريخه من اليونانيين والرومان بمعرفة كاملة عن الشرق فإنه أعطاهم على الأقل صوراً حية لا تنسى .

بطلميوس الخامس إبيفانيس ، حجر رشيد :

نحن مدينون للملك الشاب بطلميوس الخامس إبيفانيس (٢١٠ — ١٨٠) بإضافة للاستشراق الحديث ، لها من الأهمية والغرابة بقدر ما كانت قيمتها بعيدة عن البال . فقد أصدر مجلس عام من الكهنة المصريين الذين اجتمعوا فى منفيس Memphis عام ١٩٦ مرسوماً لتكريمه نقش على حجر (٤٥×٢٨ بوصة) بالحروف الديموطيقية مع ترجمة إلى اللغة الهيروغليفية بحروفها القديمة وترجمة إلى اليونانية . وذلك النقش ظل مجهولا لبنى الإنسان مدة تقرب من ألفى عام ، ثم اكتشفه الفاتحون الفرنسيون لمصر عام ١٧٩٩ فى مدينة رشيد[١٩] وسلم إلى الإنجليز عام ١٨٠١ وأخذ إلى المتحف البريطانى . وقد تبينت للفرنسيين أهميته لأول وهلة ، وخصوصاً للجنرال بونابارت الذى أمر بأن تؤخذ له نماذج وتوزع على علماء أوربا ، وبمجرد أن وصل إلى إنجلترا (عام ١٨٠٢) وزع الإنجليز منه نماذج ونسخاً . وهكذا تسنى لكثير من العلماء دراسة ذلك النص ذى اللغات الثلاثة، فكشف لهم سر الرموز الهيروغليفية . وقد تم فك رموزها على يد العالم الفرنسى جان فرانسوا شامپليون عام ١٨٢٢[٢٠] ولما لم يكن هناك نقش ذو لغتين يضارع نقش حجر رشيد فإن علم الآثار المصرية ما كان يمكن أن يقوم بدونه .

فحجر رشيد هو المفتاح لفهم واحدة من أعظم حضارات الماضى .

ميثريداتيس السادس الأكبر :

كثيراً ما ورد اسم ميثريداتيس الأكبر (النصف الأول من القرن الأول ق.م) فى هذه الصفحات ، وأنا واثق من أنه سينقش فى ذاكرة قارئ كتابى . وكان مشهوراً جدا فى الأزمنة القديمة وذهب بعض المعجبين به إلى حد مقارنته بالإسكندر . ولعله لا يستحق مثل هذا التعظيم الكبير ، ولكنه لا يستحق أيضاً أن ينسى فى عصرنا. إنه واحد من الحكام البارزين فى الماضى ، واحد من « البرابرة » القليلين الذين أنزلوا الرعب فى نفوس الرومان[٢١] ، وكان ميثريداتيس ، كما يدل اسمه ، من أصل فارسى ، وقد تلقى تثقيفاً يونانياً ، وكان يعرف لغات شرقية كثيرة . وهو مستشرق حقيقى ، وربما كان أول مستشرق وصلنا اسمه . ولم يكن أول الأوائل فى ذلك بطبيعة الحال. لكن اختلاف اللغات كان من الشدة فى بلاد الشرق بحيث كان الشخص الذكى لايجد بداً من تعلم بعضها إذا كان محتاجاً إلى التعامل مع مختلف طوائف الناس ، أو إلى كثرة الارتحال من وطنه . ولم تكن اتصالات ميثريداتيس الدولية مقصورة على الأمم الكثيرة فى شرق آسيا ، بل امتدت إلى العالم اليونانى والرومانى فى الغرب وإلى بلاد الصين فى الشرق الأقصى هذا إذا فرضنا ، ونحن نستطيع أن نفترض ، أن جهود تشانج تشين التقت مع جهوده .

ختام القرن الأول

توفى ميثريداتيس عام ٦٣ ق.م ، وقبل موته كان كثيرون من اليونانيين والرومان قد أصبحوا يهتمون بأمور الشرق .

ومن بين المصنفات الكثيرة التى ألفها الإسكندر الملطى الملقب بالمتبحر Polyhistor كتب أفردت للتحدث عن اليهود Peri Iudaiôn وعن مصر

وسورية وبابل والهند . وقد جيء بالإسكندر هذا إلى روما أسير حرب فى زمان سللا ، ونبغ فى روما ولورينتم[٢٢] حيث مات وهو كبير السن أثناء احتراق بيته . ويحتمل أنه كانت لديه معلومات عن الشرق قبل أسره ونقله إلى روما ، لكنه كان يستطيع أن يحصّل وقد حصّل فعلا ، معرفة أكثر من الاطلاع على المكتبات الرومانية العامة منها والخاصة .

و « مكتبة التاريخ Historion bibliothecè » التى أتمها ديودور الصقلى حوالى عام ٣٠ ق.م وجه من العناية بالشرق مثل العناية بالغرب فمثلا القسم الأول الذى ينتهى بالحرب الطروادية وأشور وميديا وجزيرة العرب وجزر البحر الهندى بما فى ذلك بانكايا Panchaia[٢٣] .

وجوبا الثانى ، ملك موريتانيا ألف باليونانية مصنفات فى تاريخ أشور وجزيرة العرب .

وأهدى نيكولاوس الدمشقى لسيده هيرود الأكبر مجموعة الإثنوجرافية Ethôn synagôgè التى تصف أخلاق كثير من الأمم وعاداتها . وتاريخه الشامل تناول الامبراطورية الأخمينية والحروب الميثريدية والحروب اليهودية وغير ذلك .

والنصف الثانى من جغرافية سترابون تناول مصر وآسيا وكان أغزر مادة من النصف الأول . وكتابه فى التاريخ ، وقد فقد ، آسيوى أكثر منه أوربى .

ومن الواضح أنه إلى أن جاء العصر الأوغسطى (وطوال بضعة قرون بعد ذلك) كانت الدراسات والروح الإنسانية Humanism شرقية الصبغة إلى حد كبير ، ذلك لأن العلماء كانوا على وعى بميراثهم الآسيوى كما كانوا على وعى بميراثهم اليونانى أو الغربى . فكانت كل من مصر وبابل بمنزلة كريت وبلاد اليونان أو إريتريا ، وكان الرومان لا يلتمسون أصل تقاليدهم القومية فى روما بل فى طروادة .

(١) هذا هو استمرار الحكاية التى قصصناها فى الفصل الرابع والعشرين . أما الديانات الشرقية والأعمال الإسّينية Essenian والكتابات العبرية فالبحث يتناولها فى الفصل السادس والعشرين .

(٢) مدينة هيكاتومپيلوس (مائة باب) أسسها السليوكيون إلى الجنوب من الركن الجنوبى الشرقى من بحر الخزر ، وهى دامغان الحديثة فى شمال شرقى إيران .

(٣) آخر ملوك الأرساكيين وهو أرتبان الرابع هزم أمام أردشير مؤسس الأسرة الساسانية التى حكمت حتى الفتح الإسلامى عام ٦٥١ . وليلاحظ أن الأسرة الأرساكية حكمت بلاد پارثيا حوالى نفس الوقت التى حكمت فيه أسرات هان بلاد الصين (٢٠٦ق . م — ٢٢١ م) .

(٤) كانت إمبراطوريتهم من الامتداد إلى جهة الغرب بحيث كان لا بد لهم من إنشاء عواصم جديدة فى إكتابانا Ectabana وكتيسيفون (طيسفون) Ctésiphon على نهر دجلة (قريباً جداً من جنوب بغداد الحديثة) . وكانت إكتبانا (مدينة همذان الآن) عاصمة الملوك الميديين ثم عاصمة الأخمينيين بعد ذلك . وكان الأرساكيون يدعون أنهم من سلالة الأخمينيين .

(٥) أنظر كتابنا Introduction جـ ٣ ص ١٨٦٥ فيما يتعلق بالرماة بالسهام من على ظهور الخيل . ومهارة البارثيين فى ذلك النوع من القتال خلدتها هذه العبارات : « الرمية البارثية » « السهم البارثى » (وهما موجودتان عند ڤرجيل وهوراس) . والخيالة البارثيون واصلوا التقاليد العتيقة لبلاد الأناضول . والحيثيون الأولون كانوا يستعملون عربات حربية خفيفة . وقد وصلت إلينا رسالة حيثية فى تدريب الخيل يرجع تاريخها إلى القرن الرابع عشر قبل الميلاد (راجع جـ ١ ص ٦٤ ، ٨٥ ، ١٢٥) . ومن جهة أخرى فإن خطط الحرب المتعلقة بالخيالة لم تكد ترقى على يد اليونانيين والرومان ، وقليل من القواد من تميز فى قيادة الخيل ، ولا يحضرنى من هؤلاء سوى إكسينوفون (النصف الثانى من القرن الرابع ق م) وماركس أنطونيوس أحد الحكام الثلاثة triumvir (حوالى ٨٣ — ٣٠ ق . م) .

(٦) كان تيجرانيس الأول ، الأكبر ، ملكاً على أرمينية من عام ٩٦ إلى عام ٥٦ ، وقد وسع أراضيها كثيراً حتى استطاع أن يسمى نفسه ملك الملوك . وكانت عاصمته هى

تيجرانوكرتا Tigranocerta (وهى Siirt فى الجنوب الشرقى لتركيا) . وهو مدين للبارثيين بالفرص الأولى التى أتيحت له ، لكنه قاتلهم وطردهم بعد ذلك وصار ملكاً يضارع من حيث القوة مثريداتيس الأكبر ، وقد تزوج كيلوباترة ابنة مثريداتيس . وكان حليفاً لمثريداتيس ثم صار عدواً له بعد ذلك .

(٧) تقع Carrai (أو Carrae) فى إقليم Osroéné ، إلى الشمال الغربى من بلاد ما بين النهرين ، جنوب مدينة Edessa (الرها) مباشرة . ويستطيع الإنسان أن يقول إن موقعَى كاناى Canne فى عام ٢١٦ وكاراى فى عام ٥٣ كانتا أفظع كارثتين أصابتا الجيوش الرومانية (ق م) غرباً وشرقاً على التوالى . ومدينتا Edessa و Carrae تسميان اليوم أورفه Urfa وحرّان Harran .

(٨) م . كراسوس M. Crassus الذى سمى باسم triumvir (أحد الحكام الثلاثة) لأنه كان فى عام ٦٠ أحد أعضاء المجلس الأول للحكام الثلاثة ، وكان معه پومپى وقيصر (المجلس الثانى للحكام الثلاثة كان يتألف من أنطونيوس وأوكتاڤيانوس ولپيدوس عام ٤٣) .

(٩) W.W. Tarn and G. T. Griffith, Hellenistic civilisation (London : Arnold ed. 3, 1952),p. 249

(١٠) تقع البتراء فى الطرف الشمالى الغربى للصحراء العربية ، عند منتصف المسافة بين البحر الميت وخليج العقبة . وقد كان لى الحظ أن أقضى عدة أيام فى أطلال البتراء عام ١٩٣٢ . وإن وجود مثل تلك الأطلال الواسعة الجميلة فى وسط الصحراء أمر عجيب . وفيما يتعلق بالتفاصيل راجع Michael Rostovstev, Caravan cities (246 pp. Oxford, 1932) والمدن التى يتناولها البحث عن البتراء وجرش وتلمر Palmyra ودوره Dura . وعلى خريطة روستوفتسف (ص ٢) نجد أن الطريق التجارى الذى يطعم البتراء يأتى من طيسفون Ctésiphôn (المداين) وكان يمكن أن يأتى على نحو أكثر مباشرة من الخليج الفارسى أو من خليج العقبة . ويجد القارئ صوراً ملونة جميلة لمدينة البتراء فى كتاب جوليان هكسلى Julian Huxely, From an antique land (New York ; Crown, 1954).

(١١) هذه العبارة مقتبسة من كتابى Introduction ، جـ ١ ص ١٩٧ ، حيث توجد مراجع كثيرة ، والمراد من كلمة « الغرب » فى هذا السياق هو الإمبراطورية البارثية . لكن السلع الصينية التى كانت تصل إلى تلك الإمبراطورية كان يمكن أن تجد

طريقها إلى ملطية Milétos أو البتراء أو الإسكندرية ، ومن هناك إلى روما بسهولة .
وفيما يتعلق بتشانج تشين انظر أيضاً (W.W. Tarn, The Greeks in Bactria and India)
Cambridge, 1938)

(١٢) لمعرفة التفاصيل راجع F.E. Day, Ars Orientalis 1,232 — 245 (1954), an elaborate review of Adele Coulin Weibel, Two thousand years of textiles (New York : Pantheon, 1952)

(١٣) وهو مشابه لحرير توسا tussah silk الآتى من الهند (راجع Florence Day, p. 236) وينتج من نوع آخر من الفراشات مغاير للحرير الصينى . وفيما يتعلق بحرير الكوانى Coan silk راجع ص ٢٢٤ — ٢ من القسم الأول .

(١٤) راجع G. Sarton, "Chaldaean astronomy of the last three centuries B.C." Journal of the American Oriental Society 75 166-173 (1955).

(١٥) وجد السير أوريل شتين Sir Aurel Stein فى بارثيا Parthia (وعلى نحو أدق قرب فاسا Fasa فى فارس Persis or Fârs رأس امرأة صغيرة من المرمر ، يرجع تاريخه فيما يحتمل إلى القرن الثالث أو الثانى قبل الميلاد ، انظر له "Archaeological tour in the ancient Persis" Iraq 3, 111 — 225 (1936), p. 140

(١٦) Anthony John Arkell, "Meroe and India," in Aspects of archaeology presented to O.G.S. Crawford (London : Edwards, 1951), pp. 32 — 38

(١٧) انظر فى الكتاب نفسه المهدى للعلامة Crawford بحث R.E.M. Wheeler عن : — "Roman Contact with India, Pakistan and Afghanistan" pp. 345 — 381, map of Roman coins in India p. 374.

(١٨) Polybois, X, 27 — 28. ووصفه للقناة يمكن أن يجده القارئ فى الكتاب الشائق الذى ألفه A.V. Williams Jackson بعنوان From Constantinople to the hom of Omar Khayyam New York, 1911, p. 159. وبعض القنوات لا يزال يؤدى وظيفته إلى يومنا هذا .

(١٩) رشيد — Rosetta . ويسمى الحجر الذى عليه النقش حجر رشيد . وتقع رشيد فى الدلتا قرب أبى قير حيث وقعت موقعة النيل عام ١٧٩٨ لما دمر نلسون Nelson

الأسطول الفرنسى . وفى أبى قير أيضاً هزم بونابارت الجيش التركى عام ١٧٩٩ ورحل سير رالف أبركرومبى Sir Ralph Abercromby ما تبقى من الجيش الفرنسى ، عام ١٨٠١ فأسرع بإتمام الجلاء عن مصر .

(٢٠) E.A. Wallis Budge, The Rosetta Stone, (8 pp., quarto; London, 1913).
Champollion le Jeune, Lettre a M. Dacier relative à l'alphabet des hiéroglyphes phonétiques (52 pp. 4 pls.; Paris 1822). Facsimile reprint with introduction by Henri Sottas (84 pp. ; Paris, 1922)

(٢١) قد تقدم ذكر اثنين هما هانيبال Hannibal وكليوباترة Cleopatra والثلاثة جميعاً أخضعهم الرومان أخيراً واضطروهم إلى الانتحار ، فانتحر هانيبال عام ١٨٣ ومثريداتيس السادس عام ٦٨ ، وكليوباترة السابعة عام ٣٠ ق م .

(٢٢) لورنيتم من أقدم مدن لاتيوم Latium ، وكانت قريبة من البحر تجاور لاڤينيوم Lavinium ، وهى مركز دينى أسسه آينياس Aeneas (؟) ، ووحد المكانان فيما بعد فصارا مدينة واحدة .

(٢٣) بانكايا Panchaia هى الجزيرة التى وجد فيها ايفهيميروس Evhémerus (النصف الثانى من القرن الرابع ق . م) « النصوص المقدسة » sacred inscriptions (راجع كتابنا "Introduction," vol. I, p. 156) .

الفصل التاسع والعشرون

خاتمة

لنسائل أنفسنا الآن ماذا كانت حصيلة تلك القرون الثلاثة من العصر الهلنستي ؟ إننا نستطيع فى سهولة أن نقيس تلك المرحلة من الزمن ؛ إنها تساوى المرحلة التى انقضت بين نزول الآباء المهاجرين على شواطئ مساشوستس سنة ١٦٢٠ وأيامنا الحاضرة . وفى هذا العرض الموجز سنقصر أنفسنا على ذكر المناشط العلمية .

فأولا . نظم البحث العلمى فى معهد علوم الإسكندرية تنظيماً لم يحظ به من قبل ، على حين هيئت أدوات جمع المعرفة ونقلها فى مكتبات الإسكندرية وبرجامه ؛ ثم روما من بعد .

وكانت المدرسة الفلسفية الرئيسية هى مدرسة الرواقيين ممثلة فى كليانتيس من آسوس ، و خريسيبوس من سولوى ، و ديوجينيس البابلى ، وپانيتيوس و پوسيدونيوس من رودس ، أما أحسن ممثلى الأكاديمية الجديدة فكانوا : كارنياديس من برقة وشيشرون . وكان زعيم المدافعين عن جنة أبيقور رومانيا آخر هو لوكريتيوس . واستمرت تقاليد الليقيوم على يد ستراتون من لامبسكاكوس ، وأعد أندرونيكوس «الرودسى» أول طبعة علمية لكتب أرسطو وثيوفراستوس .

لقد كان العصر عصراً ذهبياً للرياضيات فى صورة لم تحدث ثانية حتى القرن السابع عشر ، ويكفى أن ننظر إلى تلك المجموعة اللامعة من الرياضيين التى تضم إقليدس الإسكندرى ، وأرشميدس السيراكوزى ، وإراتستنيس البرقى وأپولونيوس البرجى ، وكونون من ساموس ، وهيبسكليس السكندرى وهيپارخوس من نيكايا ، وثيودوسيوس من بيثنيا ، وجينوس الرودسى .

كذلك أنجزت كثير من الدراسات الفلكية لا على يد اليونانية فحسب ، ولكن على يد الكلدانيين أيضاً . وكان البارزون من أصحاب تلك الدراسات أريستارخوس من سوموس، وسليوكس البابلى، ووهيبارخوس، و«كليوميديس» وجيمينوس . وأعظم هؤلاء — بل أحد عظماء العصور كلها — كان هيپارخوس .

وحمل لواء البحوث الفيزيائية «ستراتون» و«إقليدس»و «أريستاخوس» من سوموس ، وأرشميدس ، وستيسيبيوس الإسكندرى، و فيلون البيزنطى . وبنى سوستراتوس منارة بالإسكندرية (فاروس) ، التى كانت إحدى عجائب العالم القديم السبع . وبنى المهندسون والمعماريون اليونان والرومان الطرق والقنوات والموانى وكثيراً من الأبنية الأثرية . وكتب فتروفيوس أهم بحث معمارى وصلنا من العالم القديم .

وشرح طرق الزراعة كاتو الرقيب ، وماجو القرطاجى ، و فارو من ريتى ، و فرجيل من مانتوا ، كما قام بالدراسات النباتية كراتيڤاس و نيكولاوس الدمشقى .

وكان هيروفيلوس من خالكيدن ، و إرازيستراتوس من كيوس المنشئين لعلمى التشريح والفسيولوجيا . أما سجل الدراسات الطبية فكان دون ذلك، ومع هذا فقد كان هناك عدد من مشهورى الأطباء: مثل أرخاجاثوس من روما ، وسيرابيون السكندرى ، وأسكلبياديس من بيثنيا، و تيميسون من لاوديكيا ، وهيراقليديس من تارنت ، وأپولونيوس من كتيون ، وأنطونيوس ميوسا .

وتقدمت الدراسات الجغرافية على يد إراتوسثنيس ، وكراتيس من ماللوس و هيبارخوس ، و بوسيدونيوس ، إزيدوروس من خاراكس . وألف «سترابون الأماسى» أدق وصف لجغرافية العالم ، وأمر قيصر و أجريپا بعمل مسح له أتم فى سنة ١٢ ق.م .

وكان أهم المؤرخين اليونانيين أركاديان بوليبيوس و بوسيدونيوس، وأهم مؤرخى اللاتين هم قيصر و ساللوت و ليڤى . أما الإطار الأسطورى للتاريخ الرومانى فقد كان منشؤه أنيادة فرجيل .

واخترع الأجرومية (قواعد اللغة)اليونانية ووضع أسس اللغويات اليونانية زينودوتوس من أفيسوس ، و « أريستوفانيس » البيزنطى ، وأريستارخوس ، الساموتراكى ، وكراتيس من ماللوس ، و« ديونيسيوس ثراكس» وديونيسيوس من هاليكارناسوس ..

وتطورت اللغويات اللاتينية على يد فارو ، وفرّيوس فلاكوس.

وكانت أهم الأعمال فى ميدان الأدب والدين العالمى ، « السبتواجنتا» (السبعينية) ؛ وهى ترجمة « العهد القديم » من العبرية إلى اليونانية .

حقًّا إن هذا سجل حافل ، وهو كذلك رائع فى غناه وفى اتساعه . وكم كنا نتمنى لو أننا أنجزنا مثل هذه الأعمال فى الثلاثة القرون التى مرت منذ أيام سفينة « المايفلور » (زهرة مايو) حتى الآن . ولقد يبدو السجل أكثر روعة إذا تذكرنا ماشهده العصر الهلنستى من نكبات وحروب وثورات ألحت عليه دون انقطاع .

لقد ظلت المنازعات السياسية والحروب كما هى خلال ذلك العصر وما بعده ولكن النزاع الدينى تغير تغيراً جوهريًّا . ففى خلال العصر الهلنستى كله ازدهرت ثلاثة أنواع من الدين الجماهيرى وكان بينها نضال وصراع : الأول الوثنية اليونانية القديمة ، والثانى اليهودية ، والثالث ضروب من النظم والطقوس الشرقية السرية : مثل عبادة « مثراس » و كيبيلا وأتيس و إيزيس وأوزيريس . ولكن مرحلة جديدة مختلفة كل الاختلاف بدأت بظهور السر الجديد الذى لايمكن الإحاطة به ، سرّ عيسى المسيح ، وانتصاره التدريجى الذى ميز حقبة جديدة تماماً .

قائمة المصطلحات

Academica	الأكاديميات . جـ ٥ صـ ٨٦
Acta diurna	الأعمال اليومية . جـ ٥ صـ ٣١
Acta Senatus	أعمال مجلس الشيوخ . جـ ٥ صـ ٣١
Alba	. لوحات الإعلانات . جـ ٥ صـ ٣١
Algebra	الجبر . جـ ٤ صـ ٩١
Almagest	المجسطي . جـ ٤ صـ ١٦٨
Analemma	الساعات الشمسية . جـ ٥ صـ ٢٤٩
Aqueducts	القنوات المائية . جـ ٥ صـ ٢٦٥
Apocrypha	الكتب المنحولة . جـ ٥ صـ ٤١
Ara Pacis	هيكل السلم .جـ ٥ صـ ٣٠
Archimides' Screw	حلزون أرشميدس . جـ ٤ صـ ١٣٨
Archontes	الحكام . جـ ٤ صـ ٣١٤
Armillary Sphere	كرة ذات حلق . جـ ٤ صـ ٩٠
Ars Amatoria	فن العشق . جـ ٥ صـ ١٠٧
Ars Poetica	فن الشعر . جـ ٦ صـ ١١٤
Astrolabon	الإسطرلاب . جـ ٥ صـ ١٥١
Asymptotes	الخطوط التقريبية . جـ ٤ صـ ١٦٤
Axes	المحاور . جـ ٤ صـ ١٦٤
Berenice Hair	شعر برينيكا . جـ ٤ صـ ١٥
Bucolica	الرعويات . جـ ٦ صـ ١٠٦
Cataclasis	انكسار الضوء . جـ ٥ صـ ١٦٣
Catoptrica	المرايا . جـ ٤ صـ ٢١٩
Centurion	قائد مائة . جـ ٦ صـ ٨٦
cochlias (cylindrical helix)	الحلزون الإسطواني . جـ ٤ صـ ١٦٧
Codex	السفر (المجلد) . جـ ٥ صـ ٧٨
Coinonia	مبدأ المشاركة الاجتماعية . جـ ٥ صـ ١٢
Conica	القطوع المخروطية . جـ ٤ صـ ١٦٤
Conjugate diameters	الأقطار المترافقة . جـ ٤ صـ ١٦٥
Cornucopia	قرن الخصب (قرن الرخاء) . جـ ٥صـ ٢٣٥
Cutting off of a ratio	القطع بنسبة . جـ ٦ صـ ١٦٧

كشاف

تاريخ العلم (جزء ٤ ، ٥ ، ٦)

– ت –

— ح —

— خ —

— د —

— ر —

— ش —

— ص —

ــ ق ــ

— ك —

— ل —

الإشراف اللغوى : حسام عبد العزيز

الإشراف الفنى : حسن كامل

التصميم الأساسى للغلاف : أسامة العبد

تم طبع هذا الكتاب من نسخة قديمة مطبوعة



الجزء السادس من تاريخ العلم يسير بك عبر المرحلة الهائلة التى قطعها العلم حتى بلغ هذه القمة الكبرى التى يشرف منها على العالم اليوم. وهذا الجزء من الكتاب يتكلم عن الجغرافيا فى القرنين الأخيرين، فيتناول الجغرافيا عند اليونان، كما يتناول الجغرافيا عند اللاتين، كما يعرض للأشخاص الذين أسهموا فى هذا العلم وقطعوا به الطريق الوعرة التى قطعها.

ويتناول الكتاب أيضا التاريخ فى القرنين السابقين، ويتناول مختلف المؤرخين الكبار الذين عملوا فى علم التاريخ فى هذه الفترة.

ثم ينتقل الكتاب إلى الأدب ويعرض لعباقرة كتابه من كتاب النثر وكتاب الأدب اللاتين، كما يعرض لشعراء الرومان فى عصر أغسطس وڤرچيل وهوراس، ثم ينتقل إلى فقه اللغة فى هذين القرنين الماضيين، ومن فقه اللغة يصل إلى الفن التشكيلى فيتكلم عن النحت والتصوير، ولا يفوته أن يتكلم عن المجوهرات الثمينة المنحوتة كلون من ألوان النحت.

ثم يتكلم بعد ذلك عن الاستشراق فى القرنين الأخيرين، ويعرض إلى الصلات التى قامت بين المستشرقين والدول الشرقية.

إنه كتاب لابد أن يقرأ...



تصميم الغلاف: نسرين كشك